كريستوفر كاثِروود









ترجمة عبد السلام عقيل

دراسات فكرية



كريستوفر كاثِروود

حروب باسم الرّب





دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

ردمك: ١٣٩٧٨٩٩٣٣٣٨٣٣٦٧

الطبعة الأولى

٢٠٢٢

إهداء

أهدي هذه الترجمة .... إلى:

- أولادي سهير وتوفيق ونَوْرَة.

- وأحفادي: إياد وناتاشا وعمر وساندرا وسولي وسامي وناديا وصوفيا.





١

الحروب الدينية

مدخل موجز

(اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)

«القرآن سورة التوبة ٩:٥ آية السيف»

فظاعة ١١ أيلول/سبتمبر تعدّ خرقاً للقانون والأخلاق الإسلامية

«الشيخ زكي بدوي، المعهد الإسلامي في لندن. بعد ٩/١١»

حائرون؟

سيبحث هذا الكتاب في جوانب التاريخ الطويل للحروب الدينية جميعها، وقد وصفها ناشرة بدقة بـ «قلب الإنسان الأسود». إنَّها ظاهرة يمكن للمرء أن يطلق عليها بحق سرّ الإنسانية المدنس، لأن الدين يُعد - إذا ما نحينا جانباً رأي بعض الملحدين المتشددين- أداة رئيسة للسلام والانسجام، وليس للحرب.

لن أنظر في الحرب بين المسلمين والمسيحيين فحسب، لأن نطاق الحروب الدينية أوسع من ذلك. سنرى مثلاً، أن المسلمين والمسيحيين مثلما حارب بعضهم بعضاً، حارب المسلمون بعضهم بعضاً، وحارب المسيحيون بعضهم بعضاً أيضاً، كما حدث خلال الحرب بين المسلمين في القرن السابع، والحرب طوال ما يقارب مئة وخمسين عاماً من تاريخ أوروبا، فيما يعرف بالحروب الدينية، عندما حارب الكاثوليك البروتستانت. أما اليوم فإن المسلمين



والمسيحيين في بعض أنحاء العالم اليوم، هم الضحايا لا الجناة، ولاسيما في الهند حيث لايزال التنظيم المتطرف نفسه الذي اغتال المهاتما غاندي. يحرّض على قتل هنود لا يؤمنون بعقيدة الأغلبية.

وبعبارات أخرى نقول: حيثما تجد الناس تجد الحرب. ولما كان معظم الناس متدينين على نحو أو آخر فإنَّ الدِّين عادة ما يتخذ ذريعة لقتل الآخرين على نطاق واسع. ومع ذلك فإنَّ الديانات المنتشرة حالياً وهي ما يدعوها الخبير البريطاني «أنطوني سميث» (أديانُ خلاص) تعظ الناس عامة بأن العنف خطيئة في الظروف العادية، وهو مباح في حالات استثنائية. لا يمكنني أن أتوجة ببساطة إلى أحد لا أستسيغه. وأبادره بضربة على رأسه كائناً ما كان دافعي إلى فعل ذلك، القواعد الدينية السائدة تعتبره غير مقبول أخلاقياً، وما يمكن أن يُطبق على فرد يكون صالحاً للتطبيق على جماعة أكبر من الناس كأمة أو جماعة دينية.

ومع ذلك يقتتل الناس منذ فجر التاريخ ويقضي بعضهم على بعضهم الآخر، وتتقاتل الأمم فيما بينها، ويكون لذلك، في عصرنا الحاضر، آثار مدمرة لأن الوسائل التي توفرها الحداثة للقتل أشد فتكاً من أسلحة الماضي البسيطة.

كان للحرب في الماضي القريب حوافز أخرى فضلاً عن الحوافز الدينية: مصالح أمم، وموارد اقتصادية، وغزوات عقائدية فهتلر مثلاً لم يقض على ستة ملايين يهودي، وأكثر من عشرين مليون روسي لأسباب دينية دائماً، وإنما بسبب اعتقاد شرير بالتفوق العرقي للشعب الألماني. كما أن الشيوعية المعادية للدين بشدة، كانت مسؤولة عن موت عشرات الملايين من الناس في القرن المنصرم.

ومع ذلك فإنَّ مبررات القتل باسم الدين التي قدمت طوال آلاف السنين لم تختف؛ فهي موجودة في مذبحةٍ قُتل فيها أكثر من ثمانية آلاف مسلم في



سربرنيتسا في العام ١٩٩٥ وفي أشهر مذبحة عرفتها الولايات المتحدة، حين قُضي في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وفي غضون دقائق قليلة على أكثر من ثلاثة آلاف ضحية بريئة ينتمون إلى ديانات متعددة. فمهما سمت درجة الحداثة والتطور التي يمكن أن نعتقد أننا بلغناها بدخولنا القرن الحادي والعشرين، فإن بعضاً من أسوأ الغرائز البدائية شديدة التحكم بنا مازال باقياً فينا.

سندرس بإيجاز في هذا الفصل مسألتين.

تتضمن الأولى عرضاً شخصياً لهذا الموضوع. فكتابي ليس كتاباً مدرسياً يحتوي ملاحظات في أسفل الصفحات، واقتباسات أستقيها من مراجعها الأصلية، وإنما هو محاولة لأن أشرح أحد أشد الموضوعات تعقيداً والأكثر أهمية للناس العاديين الأذكياء اليوم. ولكي أتمكن من تحقيق هدفي، أعتقد أن من الأهمية بمكان أن تعرف أيها القارئ إلى أي بلد أنتمي لأنني أريد، بصورة خاصة، أن تكون وجهات نظري واضحة ومتوازنة في الوقت ذاته.

هذا ويتعين علينا من ناحية أخرى أن ننظر في نصوص الدين الأصلية لكل من المسيحية والإسلام، الديانتان اللتان تضطلعان بدور كبير في هذا الكتاب، فما هو مفهوم المسيحية لـ «الحرب العادلة»؟ وهل يعد أمر كهذا ممكناً؟ وما هو الجهاد؟، هل يتسم بالعنف دائماً؟ أو يمكن أن ينطوي - كما يقول كثير من المسلمين الآن على أمرين متلازمين: نفسي وسلمي؟ سنولي اهتمامنا أيضاً لنزاعات أخرى غير النزاعات بين المسلمين والمسيحيين ونحتاج كذلك أن نتعرف بشكل أفضل، إلى ما يفترض أنها عقائد هاتين الديانتين، قبل أن نحلل كيف كانتا تقتتلان خلال حوالي ألف وأربعمئة عام.

سأحاول في كل ما يأتي أن ألتزم بشدة بالتوازن والموضوعية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. ولا أبتغي من ذلك التمسك بنوع من الحياد المحض، لأن هدفاً



جديراً بالثناء كهذا هو في الواقع، مستحيل. توجد لدى جميع البشر أفكار مسبقة، وأرى أن الفارق الحقيقي، بالنسبة إلي على الأقل يكمن في أني أتبنى تلك الأفكار بصراحة أو بالأحرى بموضوعية في الحالة الأولى سنكون منحازين، وفي الثانية متعصبين وجهلة الاختصاصيون والكتاب الآخرون ممن يزعمون أنهم موضوعيون رائعون هم غالباً ما يكونون منحازين، على نحو أو آخر: إنه لمن الأفضل التسليم بضعفنا الإنساني بداية، ومن ثم نحاول أن نبذل قصارى جهدنا لتكون متوازنين قدر المستطاع. عندما نتفحص وجهات نظر مختلفة جداً

عن وجهات نظرنا.

وهكذا فإنني كمعظم سكان الغرب، وجميع الذين يشعرون أنهم جزء من حضارته، يجب أن أوضح بداية أنني بالتأكيد، ضد جميع أشكال التطرف والعنف. وأن الإرهاب لا يمكن تبريره مهما كانت قضيته التي يدعي أنها عادلة وعلى الرغم من أنني عضو في الجناح الإسكوتلندي - الأيرلندي للبروتستانتية، إلا أنني عارضت دائماً، استخدام القوة في أيرلندا الشمالية، لأن ذلك نقيض ما أومن به وأسانده. فالديمقراطية. وليست البندقية هي السبيل إلى حل النزاعات القبائلية.

كون المرء ناشطاً دينياً (كحالي، فأنا عضو كالطائر النادر الآن في التجمع المزدهر لكنيسة إنكلترا في بريطانيا العظمى)، وأنتمي إلى أقلية، بقدر ما يتعلق الأمر بأوروبا الغربية، فضلاً عن أنني حصلت دراسة جامعية أيضاً. ولعله يكون واضحاً تماماً أنني آت من تلك البروتستانتية المعاصرة التي ترى أن تنامي التحول من ديانة إلى أخرى، أو مساعي التبشير السلمية يجب أن تكون هي وليس السيف أو الغزو الاستعماري وسيلة الديانة المسيحية للانتشار. (كان أسلافي من ناحية أمي من ويلز Wels وكان الإنكليز قد غزوها أولاً وبعدئذ ألغوا



حق السكان بالحكم الذاتي منذ العام ١٥٣٦ حتى العام ١٩٩٩). ولابد من القول إن ذلك يُحدث تغييراً في رأيي في الحروب الصليبية.

تؤمن المسيحية التي أنتمي إليها أيضاً بما يصفه «البيوريتانيون». الأصوليون المتزمتون بالخطيئة الأولى، أي بالفكرة التي تعني أن ما من أحد منا خير بطبيعته، أو بالأحرى أهل لبلوغ درجة الكمال. ولكن حين يترك لنا الخيار، ترتكب بغريزتنا ما يُعدّ خطأ. ولكن بعيداً عن فكرة اعتبار أن ذلك مجرد وجهة نظر تشاؤمية، فإنني أفضّل التمسك بأنها واقعية ببساطة، بدءاً من نزوات الأطفال الصغار، وحتى أخطاء الكبار التي نراها في الصحف كل يوم، أو نلاحظها في العالم الذي يحيط بنا.

لذلك لا أشعر أنني بحاجة إلى الدفاع عما فعله طوال قرون أولئك الذين يعتنقون الديانة نفسها التي أعتنقها، لأنهم كانوا خطائين كلهم أيضاً. ذلك يؤثر، ليس على رأيي في الحروب الصليبية وحسب، بل يؤثر أيضاً على رأيي في الحروب الدينية في أوروبا، التي حدثت نتيجة الحركة الإصلاح البروتستانتي. وبما أنني أيرلندي شمالي من جهة والدي، ومن أسرة استخدمت كاثوليكيين مثلما استخدمت بروتستانت أيضاً على قدم المساواة وعلى أساس الجدارة وبصرف النظر عن ولائنا لمعتقداتنا البروتستانتينية، فقد ربيت على نبذ النزاعات الطائفية، على الرغم من اعتناقي العقيدة الكالفينية منذ أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية في القرن الرابع الميلادي قتل المسيحيون مسيحيين آخرين. وذلك أمر أستنكرة بكل ما أوتيت من قوة، ويجب بالتأكيد عدم تجاهله عندما يفكر المرء كائنة ما كانت عقيدته، في الآثام التي ارتكبتها ديانات أخرى.

إن إحدى ميزات كوني إنكليزياً هي - وأنا على يقين من ذلك أنني سألتزم الحياد فيما يتعلق بحروب الولايات المتحدة الثقافية، وهذا أمر غالباً ما يؤثر، كما



أرى على الكتاب الأكثر ثقافة، حين يتناولون القضايا الدينية، التي عالجتها في صلب هذا الكتاب قرأتُ قبل أن أكتب هذه المقدمة كتابين رائعين حول موضوع الجهاد الشائك والمثير للجدل دائماً. وهو اصطلاح يُستخدم كثيراً للتعبير عن الجهد المبذول من أجل أن يكون المرء مسلماً صالحاً. كما يُستخدم حين يتعلق الأمر بالآخرين. من أجل شنّ الحرب على معتقدات أخرى هل الإسلام بشكل طبيعي وفطري دينُ سلام؟ أم أنَّهُ على النقيض من ذلك، دين ينطوي على العنف في صميمه؟ وإِنَّهُ كانَ دائماً هكذا منذ نشونه قبل ما ينوف على ألف وثلاثمئة عام؟ أحد الكتابين يجادل بإصرار لصالح وجهة النظر السابقة الأولى، ويجادل الثاني لصالح وجهة النظر الأخرى، وكلاهما كانا مصدر الاقتباسات التي استهل بها هذا الفصل.

إحدى المشكلات التي لاحظت هي أنَّ تحليل الماضي الإسلامي غالباً ما يكون محكوماً بشروط هذه الفئة أو تلك التي ينتمي إليها المؤلفون المنخرطون في الحرب الثقافية في قرننا الحادي والعشرين. في الوقت الراهن فإما أنَّ جميع المسلمين يؤمنون سراً بالحرب الدينية العنيفة، وبذبح الكفار على نطاق واسع وإما أنَّ الإسلام بأغلبيته الساحقة، دين مسالم إلى أبعد الحدود، وأن آثام بعض المسلمين المضللين في القرون المنصرمة لا يعني كثيراً، ويجب أن ينظر إليها في سياق حقب اتسمت بالجهل والبدائية.

يناقض أحد هذين الرأيين الآخر طبعاً. كلاهما يضفي على نحو غير صحيح أيضاً صبغة على الماضي، نعتقد أنها تتفق وما تؤمن به مجموعات معينة في الوقت الراهن. ومع ذلك فإننا نعترف - أو على الأقل. آمل أن نعترف بأن المسيحيين مثلاً لا يتصرفون الآن كما تصرفوا في القرن السادس عشر، حين شعر فريق من المؤمنين بأن لهم الحق في أن يحرقوا الآخرين في مواقد النار. الأديان ليست معطيات مطلقة. فالإسلام يجتاز، في أيامنا هذه مرحلة تغيير جذري لأول مرة في تاريخه يعيش قسم كبير جداً من معتنقيه خارج دار



الإسلام، مملكة إيمانه، حيث إن معتقداتهم تتأثر لا محالة، وتكتسب أنماطاً أكثر دنيوية.

وإذا كانت أغلبية المسلمين اليوم تؤمن بأنَّ دينها ديل مسالمٌ فعلاً - واستطلاعات الرأي تؤيد ذلك - فلا أرى سبباً يحملنا على أن نرفض صدق نواياها. لقد بذل قادة مسلمون كالمرحوم الشيخ بدوي في بريطانيا، وأكبر أحمد في الولايات المتحدة مساعيهما من أجل إحلال السلام والوئام.

ولكن ذلك لا يعني أننا يجب أن نعيد تفسير عنف الماضي في ضوء الحاضر المحب للسلام. أرى أن شيئاً من السخف يعتور أصحاب النوايا الحسنة من الكتاب اليوم ممن يقللون من أهمية العناصر الأكثر دموية في التاريخ الإسلامي، لأنهم يرغبون - كما يجب أن ترغب نحن فعلاً في أن يكونوا أصدقاء المسلمين، ولاسيما الذين يعيشون منهم اليوم في الغرب. أولئك المؤلفون أمثال الكاتبة كارين أرمسترونغ Karen Armstrong المعروفة جداً، لا يقدمون أبداً الهامش نفسه لصالح الكثير من الأفعال الوحشية الفظيعة التي ارتكبت في الماضي المسيحي، لأن المسيحية باعتبارها دين الأكثرية في الحضارة الغربية غالباً، بل يكاد يكون من المؤكد أنها بالنسبة إليهم موضع نقد، لا إعجاب.

يتعين علينا المواجهة منذ قرون يرتكب المسيحيون والمسلمون واليهود والهندوس ومعتنقو ديانات أخرى كثيرة، أشدّ الأفعال بشاعة. كل باسم الديانة التي يعتنقها، ليس هذا وحسب، بل إنهم غالباً ما فعلوا ذلك بصرف النظر عما دعت إليه النصوص المؤسسة لدياناتهم. وما دعا إليه فقهاؤهم من مبادئ رسمت لهم الطريقة الصحيحة التي يتعين عليهم العيش وفقها لا يمكن المواءمة بين مذابح المسلمين في القدس في عام ١٠٩٩ وفي سربرنيتسا في عام ١٩٩٥ وبين وصية المسيح بأن يحبّ المرء قريبه مثلما يحبّ نفسه، أو بأن



يرفض العنف باسم أمير السلام. ومثلما شنّ المسلمون خلال ألف سنة، ما بين القرن السابع والقرن السابع عشر حملات إمبريالية من غزو وهيمنة باسم الإسلام، كذلك ارتكب الغرب أيضاً ما يشبه ذلك من حروب استعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين. وإذا كان استيلاء بريطانيا على أجزاء واسعة من إفريقية خطأً، فإن غزو الجيوش الإسلامية الإسبانيا في القرن الثامن كان خطأً أيضاً.

سال كثير من الحبر وانتشرت أقوال كثيرة متناقضة عن موضوع الجهاد، حيث أصبح أمراً مثيراً للارتباك أكثر من أي وقت آخر. يتحدث كثير من الكتاب المعاصرين عن نوعين من الجهاد الجهاد الأصغر العسكري. والجهاد الأكبر الديني، الذي يعني مجاهدة النفس سعياً إلى القداسة. إذا سُئل معظم المسلمين الذين يعيشون اليوم في الغرب. أي نوع من الجهاد يفضلون، فغالباً ما يصرون على اختيار النوع الثاني. ولكن لدى قراءة الكثير من الأعمال التي تحمل في عناوينها كلمة جهاد. ستترك الكلمة لدى القارئ في كثير من الأحيان انطباعاً بأن الجهاد يعني دائماً العنف، وسفك الدماء والحرب ويعني، لاسيما بعد العام ٢٠٠١ حرباً مقدسة ضد الغرب.

أيهما يتعين علينا إذن أن نصدق ونحن أمام دلائل متناقضة؟ هل تصدق مثلاً كتب «جوهان إسبوزيتو Johan Esposito» التي تدعو إلى صيغة للإسلام، وتدافع عنه، وغالباً ما تكون مبررة له، ماضياً وحاضراً، أو تصدق الصيغة العدوانية التآمرية التي يروجها المؤلف «روبرت سبنسر - Robert Spencer» صاحب الموقع الالكتروني: «jihadwatch org»

شهد العام ٢٠٠٥، لحسن الحظ، صدور كتاب فقه الجهاد الأستاذ جامعة «رايس Rice... دافيد كوك David Cook» الذي نشرته جامعة كاليفورنيا، يمكن أن تكون حماستي لذلك العمل عائدة إلى أن وجهات نظر «كوك» قريبة



جداً من وجهات نظري وموازية لها. وعلى الرغم من أنني أشد ميلاً منه إلى أن أقدم إلى المسلمين المعاصرين فضيلة الشك في تأويل جهاد القرن ٢١ أعتقد أن كوك» توصل بتفوق إلى فهم تاريخي لتيار الإسلام المهيمن ومن ثم إلى ماهية الجهاد ومضمونه.

إذا ما أضفت وجهات نظري إلى وجهات نظر «كوك». يمكن أن أقول.. بينما تفسر أغلبية المسلمين الجهاد اليوم باله نضال من أجل صلاح الذات - ويؤكد هذا الرأي أصدقائي المسلمون وزملائي وكثير من استطلاعات الرأي التي جرت مؤخراً - لكن الجهاد تاريخياً يعني أمراً واحداً فقط، هو: الحرب باسم الله.

وهذا لا يعني طبعاً، ويجب ألا يعني أن معظم المسلمين اليوم. ولاسيما من يقيم منهم في الغرب خاصة يرون الأمور في الوقت الراهن على هذا النحو عندما يقول أحد أئمة بعض الأمريكيين، أو البريطانيين. إن الإسلام اليوم هو دين مسالم، لا أرى أي سبب يدعو إلى أننا يجب ألا نصدقه، لست من أنصار نظرية المؤامرة، أو من الذين يفكرون بأن المسلمين الذين يُفترض أنهم من ذوي التوجهات السلمية، يتحينون المناسة سراً لكي يقتلونا. إنَّ الذين يكرهون الغرب وأفعاله كلها، والذين ينساقون وراء نزعة التطرف والقتل السلفية. التي ذكرتها في الفصل الأخير هم بصورة عامة صريحون جداً، في الإعراب عن رأيهم فينا، وعن سبب تبنيهم هذا الرأي.

ومع هذا فإنني أرى مثلما يرى كوك أن قراءة حاضر الإسلام المسالم بمنظور الماضي، مفارقة تاريخية عفا عليها الزمن. وهذا ما يراه «كوك» كما أراه أنا أيضاً. هو يشاطرني إعجابي بعمل المؤرخة «كارول هيلنبراند - Carol Hillenbrand» أستاذة جامعة «إدنبره» حول رأي المسلمين في الحملات الصليبية، سواء حين حدوثها أو الآن. ولكن كوك يشير إلى أنه ليس هناك ببساطة شهادات واضحة مكتوبة تثبت أن المسلمين تبنوا بصورة عامة رؤية



سلمية للجهاد بالمعنى الذي قدمته هي (أبدى كوك الملاحظة نفسها على الأعمال المتعددة للبروفسور «جون إسبوزيتو - John Esposito» في جامعة جورج تاون. وقد أتينا على ذكره آنفاً).

ستنظر في الفصل الثالث، بتفصيل أوسع، في الدراسات المعاصرة لتاريخ الإسلام المبكر. لكننا نحتاج أولاً إلى وضع إطار يعيننا على تفسير الأحداث.

أرى شخصياً أن الإسلام يشهد عملية تغيير تطال أوساط المسلمين. ولاسيما الذين يعيشون خارج العالم الإسلامي التقليدي، في بلدان تحكمها سلطة غير إسلامية. إن بعض الشباب المسلمين، أصبحوا أشد عدوانية لدى ارتكاب أي مخالفة، كما يدلل على ذلك إرهابيو ٧/٧ السابع من تموز/ يوليو ٢٠٠٥ الذين ولدوا في بريطانيا وتعلموا فيها، وكذلك جميع أولئك الذين أدينوا بمحاولات القيام بأعمال إرهابية وحشية في المملكة المتحدة منذ ذلك الحين. إلا أن هناك على النقيض من ذلك، عدداً كبيراً من المسلمين الآخرين ولاسيما من النساء ينشطون في الاتجاه المعاكس. نحو تسوية مع الغرب، دون أن يتخلوا عن معتقداتهم وقيمهم الروحية الإسلامية. وبعبارات أخرى. الإسلام ليس ديناً جامداً في كل مكان، وهو ليس جامداً حتى ضمن الجيل نفسه.

ولكن من الصعب فيما يتعلق بالماضي، ألا تحظى بالقبول حجج «كوك» الدامغة في كتابه «فقه الجهاد»، ناهيك عن ذكر أعمال أخرى مشابهة، بعضها أعدّه خبراء لجمهور أكاديمي، كالدكتور «رودولف بيترز - Rodolf Piters» و «روبين فايرستون - Ruben Firestone»... يمكن أن تكمن وراء ما يقوله هؤلاء الكتاب أهداف سياسية، ولكن إذا كان الأمر فعلاً كذلك فإني لم أكتشفه ما يبرهن عليه «كوك» بشكل حاسم هو أن التمييز بين الجهادين الأكبر والأصغر مفارقة تاريخية عفا عليها الدهر. ومما لا شك فيه أن التفريق الشائع في أيامنا هذه. بين صيغ سلمية وأخرى عدوانية، هو تقسيم حديث



تماماً. الجهاد كما فهم ومورس طوال مئات السنين من تاريخ الإسلام، كان دائماً وفي المقام الأول تعبيراً ذا صلة بالحرب، ومظهر جهاد النفس، لأنه حقيقي فعلاً فهو بصورة عامة مرتبط بتحضير داخلي لعمل عسكري خارجي.

كان الجهاد إذن، جزءاً من عقيدة الإسلام منذ البداية المبكرة، على الرغم من أنَّ المذاهب المعاصرة التي تمتّ إلى الحرب المقدسة بصلة، قد تأخر نشوؤها زمناً طويلاً كما يقول «فيرستون». إن الإسلام السني كما يؤكد مؤلفون كثيرون، أوصد في القرن العاشر الأبواب في وجه أي تأويل جديد وشخصي، أو اجتهاد، كما أن إعادة التأويل كانت في الواقع قد استبعدت فعلاً حوالي العام ٩٠٠. لذلك فإن معظم الشروح الإسلامية للجهاد، حتى وإن وجدت كتابات بعد تلك الحقبة، مثل كتابات الفيلسوف المسلم الشهير ابن رشد فهي غالباً ما تتعلق بالتفاصيل. لقد أكد ابن رشد بوضوح تام مثلاً، أنَّ الإسلام لا يقرّ قتل النساء والأطفال، وذلك أمرٌ قام عدد لا يحصى من المسلمين بتذكير العالم به. بعد فظائع ٩/١١.

الإسلام كما آمل أن أثبت هو عقيدة الدين والدولة» فيها مندمجان دائماً، بحكم التعريف، دونما فصل بين المقدس والدنيوي بينما امتازت المسيحية بالفصل بينهما، بدءاً من نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ناهيك عن ذكر الثلاثمئة سنة الأولى للمسيحية، عندما كانت ديانة محظورة، غير مشروعة، وسرية ومطاردة. إن أحد الأسباب التي حملت أقلية من المسلمين الذين يعيشون في الغرب على أن تتحول إلى العنف المتطرف، بينما تلتزم الأكثرية بالتعايش السلمي، يعود إلى أنه يتعين عليهم، لأول مرة. أن يعيشوا كمسلمين في مجتمع غير مسلم.

إلا أن الأمر في الماضي لم يكن كذلك، وهذا السبب جعلني أجرؤ على القول: إن المعنى المهيمن للجهاد قد تغير في العالم الإسلامي.



كان كل من الدين والدولة في الماضي مترابطين بشدة وثبات، كما يذكرنا «أندرو ويتكرافت - Andrew Wheatcroft» في كتابه الممتاز «الكفار» فقد كانت الإمبراطورية العثمانية تؤمن بالتوسع الدائم. وبالتالي، استطاعت توسيع حدود الإسلام باستمرار.

واليوم، تُظهر استطلاعات رأي المسلمين وكتابات مسلمين ناشطين مسالمين كبار مثل أكبر أحمد»، أن الصوفية، أو التقشف الإسلامي، حركة سلمية رفيعة، وتأملية وفكرية، ولا تمتّ إلى العنف بصلة، إلا أن «كوك» يرى، بدءاً من كتاباتهم وأفعالهم أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى القادة الصوفيين الكبار في الماضي، مثل «النويري» في القرون الوسطى، الذي شارك في معارك إلى جانب حكام مسلمين ذوي نزعات حربية بارزة كما كان الصوفيون في القرون الماضية ذوي نزعات عسكرية في تأويلاتهم للجهاد، مثلهم مثل الآخرين، على الرغم من أنَّ بعضهم، كالفيلسوف الكبير، الغزالي، شدد على الجهاد الأصغر، جهاد النفس وليس العنف.

إذاً، بينما كانت أكثرية الطوائف الصوفية، بدءاً من البلقان وحتى شمال إفريقيا، تمارس جهاد النفس الذاتي. كان المسلمون من جميع الطوائف منخرطين كجنود في الصيغة العسكرية للجهاد. كان الإسلام في الواقع في حالة هجوم دائم. يحتل أراض جديدة منذ عام ٦٣٢ حتى عام ١٦٨٣ وهي حقبة تنوف على ألف عام. أما سيطرة الغرب فهي. في الواقع، حديثة جداً. وإذا كانت شعوب كالصين أو الهند لحقت بنا خلال القرن الحادي والعشرين، فإن هيمنة الغرب ستعتبر مرحلة انتقالية لم تدم أكثر من ٤٠٠ عام. أي أقل من نصف مدة السيادة الإسلامية. وفي غضون مئة سنة بدءاً من الآن، ستعدّ السيطرة الغربية كما السيطرة الإسلامية كلاهما ظاهرة من الماضي، إذا ما واصلنا التقدم فيما يمكن أن نسميه بـ«الألفية الآسيوية».





حروب الفتح الإسلامية

الإمبراطورية الإسلامية ٦٣٢ - ٧٥١

«من الذي بدأها ...؟»

كم من مرة دخل أستاذ أو أب غاضباً غرفة فيها طفلان يتشاجران لا لشيء إلا لكي يلقي كل منهما اللوم على الآخر، لأنه كان البادئ بالمشاجرة.

شيء من هذا القبيل تقريباً، يحدث في «سيناريو» النزاع قديم العهد بين المسيحية والإسلام بعد مضي ألف عام على بداية أولى الحملات الصليبية، قطع فريق من الحجاج المسيحيين، في عام ١٩٩٨ المسافة من فرنسا إلى القدس، وقد ساروا على المسار الأصلي للحملات الصليبية كمبادرة اعتذار عن الحملات الصليبية التي حدثت منذ ألف عام وحتى اليوم حين يجري نقاش بين مسيحيين ومسلمين، يكون أول ما يبادر إليه المسلمون مطالبة المسيحيين بالاعتذار عن الحروب الصليبية.

ذلك كله لا يؤدي إلا إلى استمرار أمر غير صحيح في الواقع، وهو أن الغرب مسؤول عن العدوان على العالم الإسلامي، وأن المسلمين كانوا على مدى التاريخ المساكين وضحايا العدوان الإمبريالي الغربي المستوحى من المسيحية.

هذه الفكرة الخاطئة تنطوي بدورها على نمطين من التفكير الأول، احتقار ذاتي لكثير من زملائي المثقفين في الغرب، ولاسيما أولئك الذين يحركهم دافع قوي لرفض جميع أشكال التدين أياً كانت والثاني. ازدراء تكلّه مجموعات من المتطرفين الإسلاميين الذين يرحبون بكل محاولة أو فرصة تُضرُّ بالغرب ولاسيما بإمبرياليته. حين كنتُ أعدّ هذا الكتاب، أصدر الظواهري، القائد الثاني لتنظيم القاعدة، تصريحاً يدين فيه بشدة ما يعتبره تحالف صليبيين



وصهاينة ضدّ العالم الإسلامي، يعني ضدّ الذين يعيشون في لبنان، ويتعرضون للهجوم الإسرائيلي.

ما له أهمية في هذه المعتقدات هو أنَّ ثمة ملايين من الناس تلتزم اليوم بها، يفوق عددهم عدد الذين يتكلمون عنها أو يكتبون من كلا الفريقين اللذين أتينا على ذكرهما آنفاً مثقفو الغرب العلمانيون. ومتدينو الإسلام المتطرفون. أعتقد أنّ «فيكتور دافيس هانسون ت Victor Davis Hanson» كان على صواب حين قال في كتابه «بين الحرب والسلام»: إنَّ مثل هذه الأمور ببساطة، غالباً لا يتعلمها الناس في المدرسة وإذا شعر القراء الذين ليسوا من الولايات المتحدة بأنهم راضين عن أنفسهم، يجب أن أقول إنني اختبرت هذا الجهل لدى طلاب من كلتا ضفتي الأطلسي.

إنَّ إحدى المهام الرئيسة التي أودّ إنجازها في هذا الكتاب، هي أن أبين أن تلك كانت في الواقع مجرد وجهة نظر خاطئة كلياً، ففي حوالي الأربعمئة وألف عام التي تعايش فيها المسيحيون والمسلمون، ثمة في الواقع قليل جداً من التمايز بينهما، حين يتعلق الأمر بالحروب العدوانية أو النوايا الإمبراطورية، ليس هذا فحسب، بل خلال الألف سنة الأولى ما بين العام ٦٣٢ الذي توفي فيه النبي محمدم (ص) وحتى محاولة الأتراك العثمانيين الثانية احتلال مدينة فيينا عام ١٦٨٣، كان الإسلام مستعداً تمام الاستعداد، وكانت قواته في حالة هجوم بينما كانت القوات المسيحية تلوذ بالدفاع.

وعلى الرغم من أن دوافع الحملات الصليبية غالباً ما كانت استعمارية فإن أفعالها كانت تتناقض والمبادئ المؤسسة للديانة المسيحية. (وهذا ما يشبه ملاحظه الشيخ بدوي بعد ٩/١١) ولذلك فإنَّ مهاجمة المسيحيين بسبب الحملات الصليبية، يُعدّ خطأ تاريخياً ودينياً، حتى بمعيار نظرية الحرب



العادلة» التي تطورت في الكنيسة بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الرابع.

هذا الجدل كله، الذي يشكّل فعلاً، وإلى حدّ بعيد موضوع هذا الكتاب، هو مع الأسف جزء من الحروب الثقافية الداخلية في الولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الحاضر أيضاً - وذلك أمر مألوف جداً لكثير من القراء الأمريكيين - وهو أيضاً موضوع نقاش غالباً ما يكون مريكا للذين يعيشون خارج أمريكا، ومحيراً للزوار البريطانيين أمثالي، الذين يترددون عليها باستمرار.

ولأنني أحظى بأصدقاء حميمين في أوساط كلا فريقي النزاع الثقافي في الولايات المتحدة فإنه لمن الأهمية بمكان بالنسبة إلي. أن أعلن هنا أنني سأحاول أن أكون حيادياً فيما يتعلق بالمناقشات الأمريكية الداخلية، وما أكتبه يجب أن يُقرأ دون انحياز.

غالباً ما يُوصف المسلمون بأنهم عشاق سلام رائعون وضحايا اضطهاد الغرب، أو أنهم على الضد من ذلك، أشرار لا خير فيهم. وأعداء الغرب وما يمثله من قيم (إنني أبالغ ولكن في ضوء بعض ما قرأت من كتابات أتباع كلا الطرفين يؤسفني أن أقول إنني لم أجد فيما قلته أي مبالغة). ولحسن الحظ ثمة أيضاً عدد كبير من المؤرخين العدول المتوازنين جداً حيال مختلف وجهات النظر، على الرغم من نوازعهم الشخصية القوية. وسأبذل كل ما بوسعي للاقتداء بهم.

لننتقل إلى القرن السابع إذن كي نرى ما حدث آنذاك، بصرف النظر عن أي اعتبار يتعلق بمسلمي القرن الحادي والعشرين إن كانوا مسالمين يحبوننا، أو متعصبين يتمنون اندثار الحضارة الغربية.



مهما كان رأينا في نصيحة أستاذ جامعة برينستون» العالم «برنارد لويس - Bernard Lews» الإدارة بوش بغزو عراق صدام حسين في العام ٢٠٠٣، فإني أعتقد أنَّ آراءه حول التباين بين المسيحية المبكرة وفجر الإسلام، لا جدال فيها. فهو يدلل في كتبه الكثيرة على أن المسيحية كانت في السنين الثلاثمئة الأولى ديانة سرية ومطاردة. أما الإسلام فكان منذ البدء ديانة لديها قوة عسكرية وسياسية ومؤسسها النبي محمد (ص) لم يكن زعيماً روحياً فحسب بل كان رئيس دولة وقائد جيش أيضاً، كل ذلك اجتمع في شخص واحد فقط.

إن هذا الفارق، كما يرى لويس استمر حتى وقتنا الحاضر وهو يتجلى في تصورنا للحياة في الغرب، وفي تصرفاتنا على نحو مختلف تماماً عن أولئك الذين يستلهمون تعاليم الإسلام. وهذا أمر سيكون بالغ الأهمية في سياق فهمنا للفصل الأخير من هذا الكتاب، حين سندرس الإرهاب المستوحى من تعاليم الإسلام وإن كان يبدو من البدهي أنه ينطبق على موضوعنا الحالي، أي تاريخ حروب الفتح الإسلامي.

كان الإسلام دائماً ولايزال دين سلطة. ومما لا شك فيه أن القرون المبكرة في التاريخ الإسلامي. كانت حافلة بالغزو السياسي والعسكري، وهي ما يدعوها الأكاديمي البريطاني الإسرائيلي، المثير للجدل «إفرائيم كارش - Ephraim Karsh» في كتابه الأخير: قرون الإمبريالية الإسلامية.

بينما شهد القرن الأول للمسيحية استشهاد معتنقي الدين الجديد، بإلقائهم طعاماً للأسود في المدارج الرومانية، أو استخدامهم مشاعل بشرية من قبل الإمبراطور نيرون» كان الجيل الأول من أتباع النبي محمد (ص) منخرطاً في إقامة إحدى أكبر الإمبراطوريات في العالم. مضى قرن واحد تماماً، ما بين وفاة النبي محمد (ص) عام ٦٣٢ ثم انتخاب أبي بكر خلفاً له أو خليفة، وغزو



المسلمين لفرنسا في عام ٧٣٢، وقام جيش «شارل مارتل» بردهم على أعقابهم في معركة بواتيه في غضون ذلك القرن استولت القوات العسكرية الإسلامية على إمبراطورية أصبحت أكبر من الإمبراطورية الرومانية عندما كانت في أوج تألقها. فمن شواطئ الأطلسي الإسبانية في أوروبا وشمال إفريقيا والشرق الأوسط كله، ومن أراضي فارس حتى الحدود الهندية في دولة الهند الحالية تلك الأراضي كلها كانت تخضع لسيطرة الخلفاء، تحت راية النبي محمد (ص) وشريعته.

انتشرت المسيحية أيضاً في قرنها الأول، إنما ببطء وبسرية، لأن اكتشاف أمرها، أو ممارستها في ذلك الحين، كان يمكن أن يؤدي إلى الموت، ونتيجة لذلك الوضع كان انتشارها يتم عبر الحوار والإقناع. ومواجهة براثن معارضة السلطات الحاكمة لها.

والإسلام أيضاً، لكي نكون منصفين، انتشر فيما بعد عبر المفاوضات والمحادثات، ولاسيما في المنطقة التي تضم أكبر أمة إسلامية في العالم. أي إندونيسيا. ويجب ألا ننسى أبداً أن معظم المسلمين ليسوا عرباً، ولغة القرآن بالنسبة إليهم لغة غريبة، مثلما هي غريبة بالنسبة إلينا. يقرأ الآن ملايين النيجيريين مثلاً الكتاب المقدس بلغتهم، بينما لغة نسخة القرآن الوحيدة المعتمدة هي اللغة العربية الأصل، على الرغم من أن الإسلام كما المسيحية دين عالمي توحيدي، وتبشيري إلا أنه ما زال متمسكاً بجذوره في الشرق الأوسط، بينما المسيحية ليست كذلك.

وإلى ذلك يعود جزئياً. كما يذكرنا العالمان «بيتر كوتريل - peter Cotterel» و«بيتر ريديل - peter riddell» الانتصار العسكري للإسلام المبكر، حين مثل عقيدة الإمبريالية العربية، وأداتها، دين يسير والسيف جنباً إلى جنب.



يحتدم النقاش حول سلوك الجند المسلمين الأوائل، أكان سلوكاً يتسم بالصواب سياسياً، أم لم يكن كذلك؟ وهل ارتكبت مجازر، أدت إلى قتل أبرياء؟ أم كان سلوكاً حضارياً أسفر عن سقوط عدد محدود من الضحايا بين من كانوا في ميدان المعركة؟

والمعضلة هي أنه يستحيل الآن التوصل إلى إجابة، لأن ما لدينا من وثائق مكتوبة عن تلك الحقبة قليل، ولا يقدم لنا الكثير، فضلاً عن أن الروايات المعاصرة تنحاز دائماً إلى هذا الطرف أو ذاك، ومن الصعب إقامة الدليل موضوعياً على الحقيقة.

ولكن ما تعرفه حقاً، هو أنَّ الأراضي المسيحية الحيوية، قد احتلت في غضون عقود من الغزوات التي شُنّ كثير منها في عهد الخليفة عمر (٦٣٤- ٦٤٤).

وفي عهده عانت الإمبراطورية البيزنطية في عام ٦٣٦ من هزيمة كبرى في معركة اليرموك، وفي سنة ٦٣٨ احتلت القدس، وفي عام ٦٤١ سرعان ما رأت مصر نفسها خاضعة للحكم الإسلامي.

ان مازق عراق القرن الحادي والعشرين المربع، ومئات آلاف مواطنيه الآشوريين الأرثوذكس، والكلدان الكاثوليك المسيحيين الذين يطاردهم المتطرفون بسبب معتقداتهم. يمكن أن يساعدنا على أن تتذكر أن معظم سكان الشرق الأوسط كانوا مسيحيين لا مسلمين.

بعض السكان المحليين احتفوا باستقبال الفاتحين المسلمين. وعندما أصبحت المسيحية عام ٣٨١ الديانة الرسمية للإمبراطورية الشرقية - أو البيزنطية - كانت البدع الدينية تُعدّ لاهوتياً، من أعمال التمرد السياسي والديني، ولهذا قمعت تلك الأشكال من المعارضة، أو في حالات أخرى أحبطت على نحو لم يكل دون استمرارها في المسيحية حتى القرن السابع



عشر عندما عاد بعض مؤيدي تلك المعارضة، لا إلى مسيحية الدولة، وإنما إلى أصول مسيحية المؤسسين، نتيجة لانقسام كنيسة الغرب مذهبياً في أعقاب الإصلاح الديني، ولذلك أدرك عدد كبير من الفرق المسيحية الصغيرة في القرن السابع، أنَّ الإسلام لم يميز بين مذهب مسيحي أو آخر، وهكذا شعر المؤمنون ممن غدهم البيزنطيون هراطقة بأنهم لن يكونوا بعدئذٍ مطاردين. وبذلك مثلت الحماقة البيزنطية المصيبة التي حلّت بالكنيسة الأرثوذوكسية، لأن مساحات واسعة من الأراضي التي كانت تخضع لها من قبل خسرتها، وأصبحت في أيدي المسلمين.

قرر البيزنطيون، بدلاً من محاولة السيطرة على الشرق الأوسط كله. حماية موقع القلب من أراضيهم في الأناضول وممتلكاتهم في أوروبا وفي أجزاء أخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان من الأمور ذات الأهمية البالغة، التي تتعلق بآخر الحملات الصليبية، عدم محاولة الاستيلاء على بعض المناطق كسوريا وفلسطين ومصر وترتب على ذلك أن شكلت تلك المناطق ما أطلق عليه المسلمون من قبل، ومن بعد، اسم «دار الإسلام» أو «مملكة الإسلام»، وهي أراضٍ، ما إن تصبح إسلامية من وجهة النظر العقائدية، حتى تبقى إسلامية مدى الدهر، وإلى الأبد.

نحن الذين كنا خارج الإسلام. نعيش في دار الحرب، أو مملكة الحرب.. وأجاز بعض المسلمين تاريخياً وجود دار الصلح، أو مملكة الهدنة، حيث يعيش حكام ليسوا مسلمين بسلام مع جيرانهم المسلمين، طالما بقي هذا الوضع ملائماً للجانب الإسلامي. وفي أيامنا هذه يود الناشطون المسالمون في الحركة الإسلامية إقامة دار السلام التي تعني مملكة السلام.

كانت إمبراطورية إيران الكبرى في الشرق، إمبراطورية الفرس الساسانيين. قد احتلت بسرعة أيضاً. وخضعت في أواخر العقد الخامس من عام ٦٥٠ للحكم



الإسلامي. كما قُضي على الزرادشتية، الديانة الفارسية القديمة، التي تكاد تكون الآن أثراً بعد عين ولا يمارسها سوى مجموعة صغيرة من الفرس تعيش في الهند، وبعض المريدين الآخرين المبعثرين في أنحاء شتى.

بعد مدة من الزمن ليست طويلة جداً، بدأت تظهر للعيان اختلافات ضمن مجتمع المؤمنين المسلمين، الأمة.

يرى بعض المتخصصين مثل «ميشيل كوك - Michael Cook» مؤلف كتاب القرآن: مدخل وجيز جداً». و«باتريسيا كورن - Patricia Corne». أنه يصعب بعد مضي زمن طويل أن نعرف تماماً، بماذا كان يؤمن الناس ومتى ولماذا. إنه لمن الممكن ألا تكون العقيدة الإسلامية قد ترسخت في زمن مبكر جداً، مثلما يريدنا الفقهاء المسلمون أن تصدق. وكما ذلك في كتبي الأخرى حول هذا الموضوع، فإنه ليس هناك من سبب حقيقي للريبة في الرواية الرسمية لتطور الإسلام في تلك العقود المبكرة طالما أن كل شيء لا يفحص عبر عدسات ملونة تنكر الإخفاقات مثلما تنكر الإنجازات.

ولكن أياً كانت الحقيقة، سرعان ما وجد الدين الجديد أنه يخوض وجها لوجه نزاعاً مسلحاً ضد ما يسميه المسلمون الآن «الردة» يعني التخلي عن الإيمان أو الارتداد عنه. مات أبو بكر (٥٧٣-٦٣٤)، وحده من بين الخلفاء الراشدين الأربعة ميتة طبيعية على فراشه، أما الباقون فلاقوا جميعاً، واحدهم تلو الآخر نهاية مأساوية.

أدت عملية اختيار من يجب أن يكون الخليفة الشرعي للنبي محمد (ص) في قيادة الدين والأمة إلى إراقة دماء غزيرة كان النبي محمد (ص) المؤسس والنبي حامل آخر رسالة إلهية وبصفته هذه، لا يمكن أن يحل محله أحد. إلا أنه كان أيضاً قائداً سياسياً وعسكرياً، لأن الإسلام آنذاك لم يكن يفصل - كما أنه لم



يفصل بعد ذلك - بين الروحي والدنيوي، مثلما فعلت المسيحية المبكرة ومثلما عدنا نحن الغربيين لنفعل، بدءاً من القرن السابع عشر وما بعده.

لم يتمكّن الخليفة علي بن أبي طالب، ابن عم محمد الرسول وزوج ابنته فاطمة، من أن يكون منتخباً خليفة في ثلاث مناسبات، وقد لا يفاجئنا ذلك. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الفترة التي أصبح فيها خليفة. في نهاية المطاف.. وكان لعلي وفاطمة ابنان هما الحسن والحسين. وكلاهما من نسل النبي. لذلك وجدت أقلية قوية أن علي يتمتع بكامل الحقوق والجدارة الروحية لوراثة النبي شكّل أنصار علي حزبه أو شيعته. ومن هنا أتت تسميهم بشيعة المسلمين. يشكل أتباع الشيعة اليوم ١٠٪ من المسلمين في العالم.

ولما كانت السياسة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقيادة العسكرية، حلت المشكلة بحرب نشبت بين فريق من المسلمين ضد فريق آخر. وفي سنة ٦٥٧، وافق عليّ على هدنة تلبية لطلب معاوية، وهو ابن أخ لعثمان وواليه على دمشق، وكان معاوية كعقه عثمان من بني قبيلة مكة الأرستقراطية التي ناصبت النبي محمد(ص) العداء في أمية. البدء.

لم يقبل تلك الهدنة فريق من المسلمين المتشددين الذين يطلق عليهم اليوم اسم الخوارج، والخوارج لم يكونوا تياراً ذا تأثير كبير ضمن الإسلام السائد. إلا أنهم بنظرتهم الصفائية إلى ما ينبغي أن يكون عليه العالم الإسلامي، ظلوا باستمرار موضع تقدير مجموعة صغيرة حافظت على تطرفها طوال قرون. ويمكن للمرء أن يرى فيهم بذرة «قاعدة» المستقبل، ورؤيتها الصفائية لإقامة خلافة إسلامية مثالية أيضاً. كان الذي اغتال عليّ عام ٦٦١ خارجياً، ويدل هذا الحدث بذاته على درجة العنف الداخلي الذي ابتلي به العالم الإسلامي في ذلك الحين.



استمرت الحرب في العالم الإسلامي: ولم يترك الأمويون بعد اغتيال على أي أمر للمصادفات نصب معاوية نفسه خليفة، واتخذ من دمشق عاصمة له.

لا ضرورة للقول إن تسنم أحد أرستقراطيي مكة مقاليد السلطة لم يكن خياراً قبله الجميع، فالحرب استمرت بين جماعات مختلفة تطمح كلها إلى الاستيلاء على السلطة، وقد أصبح حينذاك إمبراطورية شاسعة، تتوسع باستمرار وتمتد مقا يُدعى الآن إيران في الشرق، حتى مساحات واسعة في شمال إفريقيا في الغرب.

لم يكن لدى الخشن الابن الأكبر لعلي من زوجته فاطمة، نوازع حربية، فترك النظام الجديد يمسك بزمام السلطة، ولكن شقيقه الحسين كان أصلب عوداً. وحين أصبح يزيد بن معاوية خليفة سنة ٦٨٠ اعتبر كثيرون آنذاك أن ذلك كان باستثناء الاسم فقط، ملكية وراثية بكل ما للكلمة من معنى، وهو يخالف المعتاد، لأن الأمويين لم يكونوا من آل النبي. لذلك طالب الحسين بالسلطة، لكنه هُزم في تلك السنة. هزيمة ساحقة في معركة كربلاء، وكزّ رأسه وأرسل إلى الخليفة الجديد في دمشق.

استمر معظم المسلمين في تأييد الأمويين المنتصرين، بما في ذلك تيار الإسلام السني السائد الذي مازال على هذا الموقف حتى الآن.

ولكن أنصار الحسين المخلصين اعتبروا مقتله استشهاداً، وظل الأمر كذلك حتى اليوم بالنسبة إلى المسلمين الشيعة المعاصرين. إن إحياء الذكرى السنوية لعاشوراء، حيث يقوم المسلمون الشيعة بجلد أجسادهم بالسلاسل، لاتزال المناسبة الكبرى التي يحييها الإسلام الشيعي في أيامنا هذه. ليس هذا وحسب، بل إن المسلمين الشيعة يشعرون بأنهم شهداء وبأنهم ينتمون إلى أقلية ضمن الإسلام، وهذا يمدهم برؤية خاصة لأنفسهم تختلف كثيراً عن رؤية أكثرية المسلمين السنة.



بينما كان المسلمون في القرن الثامن يقاتل بعضهم بعضاً، كانوا في الوقت ذاته يوسعون حدود دار الإسلام، ووصلوا في ذلك الحين إلى حدود الهند في الشرق، وحوالي عام ٧١١ كاد شمال إفريقيا كله يكون في أيديهم.

ومن الأهمية بمكان أن نذكر الآن، أن معظم الشعوب التي غزوها لم تكن مكرهة على اعتناق الإسلام. وقد بقي العرب أقلية صغيرة في الأراضي التي احتلوها وغالباً ما كانوا يقطنون في مناطق اتخذوها حاميات يمكن أن يسيطروا منها على الأراضي الجديدة.

اعتنقت بعض الشعوب المغلوبة الإسلام ولكن في ظل هيمنة الأمويين الذين احتفظوا بالسلطة حتى عام ٧٥٠ (وقد تعرض معظمهم للقتل)، كانت النخبة العربية هي صاحبة السلطة الحقيقية وتتمتع بالنفوذ والجاه ما يشبه إلى حد بعيد ومن مختلف الوجوه الطبقة المحدودة من النخبة البريطانية التي حكمت الهند في أيام المهراجات. أما الذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب فكان يطلق عليهم اسم الموالي. وكان جلهم ولاسيما الفرس منهم يشعرون بالامتعاض بسبب وضعهم كطبقة من الدرجة الثانية.

كان المسيحيون واليهود وأقليات أخرى ممن يؤمنون بوحدانية الإله. ولم يعتنقوا الإسلام. يعرفون باسم الذميين، أو أهل الكتاب. وقد ضمن القرآن لهم وضعاً خاصاً، إلا أنه وضع ثانوي ولكن وضع الذميين المحدد في ظل السيطرة الإسلامية عاد في السنوات الأخيرة، ليصبح موضوع جدال حاد ليس في الأوساط الأكاديمية وحسب، وإنما على نحو أصبح فيه الإسلام أيضاً طرفاً في



المعارك الثقافية في الولايات المتحدة منذ عام ٢٠٠١ وترجع إثارته أساساً إلى كاتبة تعرف باسم «بات يعور* - Bat Yeor» المستعار.

ونتيجة لذلك فإنه من الصعب أن تعرف من المحق. وكيف كان الذميون يُعاملون في الواقع إني أميل إلى التفكير بأن معاملتهم كانت تختلف من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر أيضاً كان ثمة حكام متنورون كالأمويين حكام الأندلس في إسبانيا، في حين كان هناك آخرون طغاة قساة لم يترددوا في قتل رعاياهم الذين رفضوا الخنوع. وبعبارات أخرى، يكاد التعميم يكون مستحيلاً، لأن الأوضاع المحلية تتفاوت.

إن أحد أسباب عدم إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام، يعود إلى أنه كانت تفرض عليهم ضريبة خاصة تسمى ضريبة الرأس. ما يعني أن عدم تحول الذميين عن ديانتهم كان يؤدي اقتصادياً إلى فائدة مالية للمجتمع، لأن تحولهم إلى الإسلام يترتب عليه إعفاؤهم من دفع تلك الضريبة. ولذلك مضت عدة قرون قبل أن تكون المنطقة، التي تعتبر نحن أنها بحكم الضرورة مسلمة، تحولت فعلاً إلى الدين الإسلامي. وحتى اليوم مازال الشرق الأوسط يضمّ أقليات مسيحية كبيرة. ولاسيما الأقباط في مصر.

كانت الجيوش الإسلامية في العام ٧١١ تقف على أهبة الاستعداد لمهاجمة تخوم أوروبا، وقد أتاح نشوب نزاع محلي بين حكام إسبانيا «الفندال». وهم قبيلة جرمانية غزت شبه جزيرة إيبيريا بعد سقوط روما - لطارق، القائد المسلم الطموح الفرصة التي كان الفاتحون بانتظارها للتوغل في أوروبا، والبدء فيما سيصبح تاريخياً الاجتياح الخاطف والنصر الإسلامي.

---

* - بات ياعور كاتبه مصرية الأصل، غادرت مع والديها مصر في سنة ١٩٥٦، بعد العدوان الثلاثي ألفت مجموعة كتب منها: «الذميون: اليهود والمسيحيون تحت الحكم الإسلامي»، و«انهيار المسيحية الشرقية تحت حكم الإسلام»، و«الإسلام والذمية: عندما تتصادم الحضارات» (المترجم)



استغرق اجتياح شبه الجزيرة مدة قصيرة. وفي عقد عام ٧٣٠، وصلت جيوش المسلمين إلى جنوب فرنسا التي لم تكن بعيدة عن باريس. وكان يبدو أن أوروبا الغربية ستكون الضحية القادمة للحرب المقدسة.

إلا أن قوات الإسلام وجدت في فرنسا أخيراً من يوقف تقدمها، بعد مئة عام من الغزوات الهيئة. كان «شارل مارتل» مدير شؤون بلاط ملوك فرنسا من السلالة «الكارولنجية»، الذين لم تكن لهم سوى سلطة اسمية. وفي سنة ٧٣٢، بعد مضي قرن على وفاة النبي محمد (ص) هزمت القوات الفرنسية المسلمين في معركة جرت في ناحية تقع بين مدينتي تور وبواتييه ونجت فرنسا كما نجت بقية أوروبا

الغربية أيضاً من الغزو.

يتساءل المؤرخ البريطاني الكبير إدوارد غيبون (١٧٣٧-١٦٩٤) مندهشاً. كم كانت الحياة ستختلف يا ترى لو أن تلك المعركة اتخذت منحى آخر؟ أكان فقهاء أوكسفورد المسلمون سيدرسون القرآن بدلاً من أن يدرس رجال الكهنوت المسيحي كتابهم المقدس؟ إنه سؤال مثير للاهتمام وكما قال غيبون بإيجاز في الفقرة نفسها التي ترينا كم كان الغرب قريباً من أن يكون محتلاً، لأن أنهار أوروبا الغربية لم تكن تمثل عائقاً طبيعياً كبيراً أمام الجيوش الاسلامية، كما لم تكن عائقاً كذلك أنهار

الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

لم تتوقف الفتوح الإسلامية، ففي عام ٧٥١ هزم جند الإسلام قوات سلالة «آل تانغ» في معركة نهر طالاس المهمة في آسيا الوسطى. ووسعوا غزواتهم الإسلامية في تلك المنطقة مع ما ترتب على ذلك من نتائج سنتحدث عنها في الفصل التالي وقد استولت الجيوش الإسلامية في عام ٨٣١ أيضاً على صقلية



التي لم تتحرر كلياً قبل حلول عام ١٠٩١ ولما كان هذا التاريخ قريباً جداً من تاريخ أولى الحملات الصليبية فى عام ١٠٩٥ فإنه لم يكن مجرد مصادفة وحسب.

كانت صقلية منطقة متعددة الثقافات طوال قرون بعد تحررها، ولاسيما أثناء خضوعها لاحقاً لحكم أسرة «هوهنشتاوفين - Hohenstaufen» الألمانية. وهكذا كانت خلال ذلك قناة مهمة لنقل المعارف الإسلامية في ميدان الطب والعلوم وميادين مشابهة أخرى. في القرن الثاني عشر، ويجب ألا يغرب عن بالنا أن بعض الغزوات الإسلامية، كانت لها فائدة كلية في ميدان تقدم العلوم.

كانت تنطلق من صقلية أحياناً غارات إسلامية تمكنت من الاستيلاء. ولو مؤقتاً، على أجزاء من جنوب إيطاليا، وغارات أخرى من شمال إفريقيا - أطلق عليها لاحقاً اسم غارات «قراصنة البربر»، الذين تمكنوا من إشاعة حالة من الهلع، بحملاتهم الناجحة، بحثاً عن الرقيق، في أنحاء أوروبا الغربية ،كلها، بما في ذلك بريطانيا، إلى أن قضى الأمريكيون في نهاية المطاف عليهم اثناء رئاسة «توماس جيفرسون»، منذ عهد قريب، في القرن التاسع عشر.

أما إسبانيا، فقد تحررت شبه الجزيرة في العام ١٤٩٢ بعد أكثر من سبعمئة عام من استيلاء غزاة شمال إفريقيا عليها. وعلى الرغم من أنه كان بوسع المسيحيين التقدم في عام ١٠٨٥ جنوباً حتى طليطلة، إلا أن عملية استردادها كانت بطيئة جداً.

تعرض الإسلام في عام ٧٥٠ إلى انقلاب دموي عندما أطيح بالأمويين. وقد هرب أحدهم إلى إسبانيا ليؤسس سلالته هناك، في الأندلس. واستولى العباسيون أقرباء النبي محمد (ص) على السلطة، وتعين عليهم أن يتولوا الحكم في بغداد على الأقل بالاسم فحسب، حتى عام ١٢٨٥ . وكان ذلك عصر الحضارة الإسلامية الذهبي، إذ أتاحت الخلافة العباسية للعالم الإسلامي



الفرصة لأن يتحول إلى أعظم قوة ثقافة على وجه الأرض باكتشافات في ميادين العلوم والطب، والفلسفة. التي كان من شأنها أن غيرت مسار التاريخ وأسهمت على المدى الطويل في خير البشرية. ويمكن أن نقول إن إسبانيا شهدت ولاسيما في عهد الحكم الأموي. تسامحاً دينياً حقيقياً، إلا أن شبه جزيرة إيبيريا خلافاً لـ«مصر» وما يسمى «العراق» اليوم، البلدان اللذان أصبح معظم سكانهما في نهاية المطاف مسلمين ظلّ مواطنوها أسلاف الإسبان والبرتغاليين اليوم على ولائهم لمسيحيتهم بحزم.

ومع ذلك، ليس بوسعنا أن نتجاهل حقيقة أن جميع تلك الأجزاء من دار الإسلام. استولي عليها بالغزو، وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة إكراه على اعتناق الإسلام قسراً، إلا أن القيادة السياسية والدينية للخلفاء المسلمين. أنت بقوة الغزو العسكري. لا بمباركة الشعوب التي حكمتها.

يساهم ذلك كله، كما أظن في إثبات حجج مؤرخين أمريكيين مثل «توماس مادين - Tomas Madden». و«فيكتور دافيس هانسون - Victor Davis Hanson» اللذين يعتقدان أننا يجب أن نعيد النظر في رؤيتنا التقليدية للحرب بين المسيحية والإسلام. لأن الغرب كان متقدماً جداً. طوال القرنين الماضيين أو أكثر كما كان بلا أدنى شك القوة الاستعمارية الغازية، ونحن ننسى أن الأمر في الواقع، كان في معظم مراحل التاريخ على الضد من ذلك المسلمون كانوا هم الغزاة، والغرب المسيحي كان باستمرار في موقع الدفاع.

وعلى الرغم من أنني لا أتفق والرأي القائل بأن الحملات الصليبية، لم تختلف، ولنقل مثلاً، عن غزو النورماندي لتحرير فرنسا في عام ١٩٤٤، إلا أن دراسة الأمر من منظور واقعي تؤكد بلا شك أن العالم الإسلامي منذ العام ٦٣٢ وحتى العام ١٦٨٣ كان القوة الوحيدة، وأن البلدان الأوروبية، من إسبانيا حتى اليونان كانت من ضحايا استعماره.



وحيث إني أختلف مع مؤرخين أمثال «أفرائيم كارش - Afraim Karsh» مؤلف كتاب «إمبريالية الإسلام» في اعتبار إن تلك الإمبريالية وطيدة في الإسلام، في جميع الأماكن وفي مختلف الأوقات. بينما يتمسك بعض المتطرفين في تنظيم القاعدة في أيامنا هذه فعلاً وبمختلف الأشكال بهذا الرأي، إلا أنني أعتقد أنه من الإنصاف القول إن الحال ليس كذلك، لأن ملايين كثيرة من المسلمين لا يعيشون، لأول مرة. ومنذ زمن طويل، في ظل حكومة إسلامية بل يعيشون في الغرب، ولا شك أن كثيرين منهم ليسوا عرباً. ومهما كانت سلبية الماضي والحاضر في بعض النواحي أيضاً، فإنني أعتقد أن القرن الحادي والعشرين يمكن أن يكون شاهد تغيير بارز في الإسلام ويمكن أن نثق بأن التغيير سيكون نحو الأحسن.

وأما فيما يتعلق بعصر الفتح الإسلامي، ولاسيما حين بذل من أجله جهد يكاد لا يذكر، بين العام ٦٣١ والعام ٨٣١ أي منذ وفاة الرسول محمد (ص) وحتى الاستيلاء على صقلية، فإنه لمما لا شك فيه، أن الغزو والصيغة العسكرية للجهاد، انتشرا على نطاق واسع. ويجب علينا الآن أن تنطلق من ذلك السياق ونمضي قدماً إلى الحملات الصليبية. وإلى محاولات مسيحيي الغرب استرداد الأراضي التي انتزعها المسلمون منهم في القرن السابع.





٢

الحملات الصلبة

«تلك مشيئة الله.. صيحة جماعية أطلقها جمهور مجلس «كليرمونت» الكنسي في جنوب فرنسا، تأييداً لطلب البابا أوربان الثاني شن حرب على قوى الشر التي تحتل الأرض المقدسة. هكذا بدأت الحروب الصليبية في عام ١٠٩٥

أكانت بهذه البساطة...؟

لقد رأينا فيما سبق. حين تحدثنا عن الحرب المقدسة، أو الجهاد، أن الحرب بين المسلمين والمسيحيين بدأت في الواقع بالغزوات الإسلامية في عام ٦٣٢ وباجتياح جيوش الخلفاء الجدد للشرق الأوسط الحالي وشمال إفريقيا وإسبانيا. ولكن كانت ثمة قرون من النزاع المسلح بين المسيحيين والمسلمين بدأت قبل قرون ولكن لم يبدأ بها المسيحيون، وإنما بدأ بها المسلمون باجتياحهم ما كان حتى ذلك الحين أراضي مسيحية تقطنها أغلبية ساحقة مسيحية.

ومن الأهمية بمكان أن نتذكر أيضاً أن مسيحيي شبه جزيرة إيبريا - لم تكن إسبانيا موجودة رسمياً كدولة قبل العام ١٤٣٩ كانوا يخوضون منذ الاجتياح الإسلامي الناجح عام ٧١١ حرباً مستمرة مع جيوش «المورو»*

المختلفة لتحرير أراضيهم من الحكم الأجنبي. وحين أطلق البابا أوربان الثاني حملته الصليبية عام ١٠٩٥ كان الإسبان يخوضون، منذ أربعمئة عام حرباً طويلة الأمد ضد مسلمي الأندلس. (عندما طلب البابا إلى المسيحيين الذهاب

* - الـ مورو. والجمع موروس ومورروش بالإنكليزية: اسم يطلق على مواطني شمال غرب إفريقيا المسلمين، ثم أصبح يطلق على مسلمي الأندلس. (المترجم)



إلى فلسطين، استثنى منهم جنود ما نطلق عليه الآن، الأراضي الإسبانية والبرتغالية، لأنهم كانوا في الواقع منخرطين في الحرب مع العدو)

وبالتالي، لم تكن فكرة تشكيل الفرسان الفرنجة في الأرض المقدسة فكرة البابا أوربان في الأصل. جاء الطلب الأولي من الإمبراطور البيزنطي الكسوس كومينوس، إذ هُزم جيش بيزنطي كبير هزيمة ساحقة، في معركة حاسمة عند مدينة «ملاذ كرد» في الأناضول في عام ١٠٧١ وهُزمت قوات رومانوس الرابع تماماً حين واجهت جيش الغزاة بقيادة سلطان الأتراك السلجوقيين «ألب أرسلان» وبذلك أصبحت شبه جزيرة الأناضول، التي كانت حتى ذلك الحين جزءاً من إمبراطورية بيزنطة المسيحية منذ تأسيسها قبل أكثر من ٤٠٠ عام. بأيدي المسلمين الأتراك. أدت تلك المعركة إلى قلب ميزان القوى بكامله رأساً على عقب في آسيا الصغرى والشرق الأوسط، وعلى نحو لا محيد عنه، وهكذا أصبحت الأناضول تركية وإسلامية حتى يومنا هذا.

ولذلك فإن الفكرة القائلة بأن الحروب الصليبية كانت جزءاً من مؤامرة شريرة للرأسمالية الغربية غايتها اجتياح أراضي الإسلام المسالم البريء هي فكرة لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة.

كما أن الفكرة القائلة بأن المسيحية لا تعارض الحرب المقدسة هي أيضاً فكرة لا تمت إلى الحقيقة بصلة، فللمسيحيين، وفق الكتاب المقدس ونظرية الحرب العادلة الأخيرة حق الدفاع عن النفس. أما حروب العدوان فهي أمر مختلف تماماً، وعلى الرغم من أن المفتين لجأوا في ذلك الحين إلى مختلف أنواع المبررات الاجتياح الأرض المقدسة، إلا أنه من المؤكد أن تلك ليست الطريقة المناسبة التي ستفسر بها مثل هذه القضايا الأخلاقية اليوم فالحملات الصليبية إذن لم تكن مسألة بهذه البساطة، كما يريد أن تحملنا على الاعتقاد، المدافعون عنها أو معارضوها. لم يكن أحد بريئاً تماماً.



ومن المثير للاهتمام أنه حتى في سلسلة مفيدة جداً للسوق الشعبي مثل الدليل الأبله الكامل للبلهاء» لا تذكر، في مجلدها الخاص بالحروب الصليبية أي شيء مما حدث قبل العام ١٠٩٥، ومن المؤكد أن السبب يعود إلى الرغبة بعدم تحطيم الصورة السائدة لتلك الحروب. وهنا سأتفق ثانية وكتاب مثل «فيكتور دافيز هانسون». على أننا لا نستطيع بالفعل فهم تاريخ الحروب الصليبية، ما لم ندرس السياق التاريخي كله الذي حدثت فيه.

وقعت في عام ٧٥١ في أحد أطراف العالم النائية، في آسيا الوسطى أول أهم معركتين أثرتا في مجرى التاريخ، ولا يعرف عنها الغرب سوى القليل أولاهما معركة «طالاس - Talas» التي قاتل فيها جيش غزو إسلامي، قرب مدينة «فيرغانا - Ferhana» الصينية، قوات أسرة «تانغ» تقع «طالاس» في أقصى حدود إمبراطورية تانغ، ولم تكن المفاجأة أن يخسر الصينيون المعركة ولكن كان لهزيمتهم وقع الصدمة، إذ كان من شأنها أن تغير بعد ثلاثمئة عام تاريخ أوروبا والشرق الأوسط إلى الأبد.

ومع أن سيطرة آل تانغ على آسيا الوسطى كانت ضعيفة، إلا أنها كانت في جميع الأحوال موجودة، وقد كان بوسعهم، حين كانوا يسيطرون على المنطقة عسكرياً، مراقبة قبائل البدو الرحل التي كانت تثير الاضطرابات، وتحرّض عليها باستمرار في منطقة شاسعة الأبعاد في أحد الأيام، حملت الاضطرابات العنيفة بين سلطات السكان الرحل في تلك السهوب الواسعة جنكيز خان إلى عرش إمبراطورية المغول المترامية الأطراف. وهكذا غيرت هزيمة طالاس مصير كثير من القبائل التركية التي قطنت المنطقة.

أدى النصر الإسلامي وهزيمة الصين في طالاس، إلى اتصال مباشر بين المجموعات التركية التي كانت لاتزال غير متحضرة، وبين إمبراطورية العباسيين الكبرى التي كانت في أوج قوتها ونفوذها. حمل الدعاة المسلمون معهم رسالة



الإسلام، واعتنقت القبائل التركية المختلفة بمرور الزمن الدين الجديد. وهذا بذاته أمر مهم ينبغي أن نتذكره لأن جزءاً كبيراً جداً من العالم كانت قد احتلته الجيوش الإسلامية، ونحن نميل دائماً إلى أن ننسى أن شعوباً كثيرة من آسيا وحتى غرب إفريقيا وإندونيسيا اعتنقت الإسلام طوعاً بإرادتها الحرة. دون تدخل أي جيش من الجيوش والشعوب التركية مثال حي على ذلك.

شهدت نهاية القرن العاشر تغييرين مهمين: الأول، قيام قبائل الأتراك الرحل بالتنقل في حركة تُعدّ من أكبر الهجرات البشرية في التاريخ والثاني، قيام قبائل كبيرة ذات أهمية باعتناق الإسلام ومن ثم الاتحاد مع المسلمين حول قضية مشتركة. كان سلجوق» واحداً من أبرز القادة الأتراك وأكثرهم أهمية أعطى اسمه، لا لقبيلته وحسب. وإنما أعطاه أيضاً، في غضون سنوات قليلة، لإمبراطورية شاسعة الأبعاد ومن الأمور المهمة أيضاً أن الأتراك السلجوقيين كانوا من السنة أتباع التيار الأكبر في الإسلام، وبالتالي لم يكونوا أصدقاء للخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر ومعظم الأراضي المقدسة.

لم تكن الخلافة العباسية في عام ١٠٥٥ هي وحدها التي وجدت نفسها في وضع العاجز نسبياً ولكن آل بويه»، الأسرة الشيعية التي تولت الحكم فيما يعرف بإيران الآن كانت ضعيفة أيضاً، عندما غزا السلاجقة العراق ونجحوا في احتلال بغداد أطاحوا بالهراطقة البويهيين وحلوا محلهم كسلاطين الإمبراطورية العباسية الشرعيين.

وفي عام ١٠٧١، بعد مضي ستة عشر عاماً فقط، أصبح قائد السلاجقة ألب أرسلان ابن حفيد سلجوق، وكان قد خلفه حاكماً على جزء من إيران الحديث في عام ١٠٥٩ كما خلف عمه في عام ١٠٦٣ واستحق لقب «السلطان» وكان هذا هو الاسم التركي الذي منح للقائد الذي سيطر حينذاك على الخلافة



العباسية. أما ألب أرسلان» ويعني أسد شجاع ... سرعان ما أثبت أنه قائد جسور وناجح.

وكانت أمامه مهمتان: الأولى استرداد سورية من أيدي الفاطميين الذين كان المسلمون السنة يعتبرونهم من الهراطقة. فالفاطميون حكموا القدس منذ عام ٩٧٩، وذلك أمر مثل تحدياً للمتدينين السنة، أما المهمة الثانية، فكانت التوسع في شمال تلك المنطقة، شبه جزيرة الأناضول التي كانت طوال قرون وبقيت حتى ذلك الحين، خاضعة الإمبراطورية بيزنطة المسيحية (وسالفتها الإمبراطورية الرومانية لسنوات عديدة قبل ذلك).

شهد عام ١٠٧١ حدثين اتسما بأهمية بالغة، أحدهما كان استيلاء السلجوقيين السريع على القدس وطرد الفاطميين الذين تمكنوا بعد ذلك من استرداد المدينة في عام ١٠٩٨ وتعود أهمية تلك الواقعة إلى أن النزاع الحقيقي في سورية وفلسطين طوال تلك الفترة، لم يكن. كما يذكرنا عميد مؤرخي الشرق الأوسط برنارد لويس». بين المسلمين والمسيحيين، بقدر ما نشأ من رغبة المسلمين السنة بإقصاء خصومهم المسلمين الشيعة عن السلطة، والإطاحة بحكم الفاطميين في الشرق الأوسط.

ولكن كان ثمة حدث آخر اتسم بالأهمية أيضاً، شهده عام ١٠٧١ وكان من شأنه تغيير كل شيء. ويمكن أن أقول إنه أدى إلى نشوب الحروب الصليبية. ذلك كان معركتنا الثانية غير المعروفة ولكنها حاسمة تاريخياً، أعني معركة ملاذ كرد بين السلجوقيين بقيادة «ألب ارسلان »، وبين البيزنطيين بقيادة إمبراطورهم «رومانوس الرابع» (رومانوس الرابع ديوجينس - Diogenes).

بدأ ألب أرسلان هجماته محاولاً احتلال الأناضول في عام ١٠٦٨ وكانت إمبراطورية بيزنطة قبل ذلك قوية، وتبدو أنها لا تقهر، لكنها في الواقع كانت قد تمزقت تعصف بها حروب داخلية، وصراعات رجال البلاط - وقد كان



الإمبراطور رومانوس نفسه، يُعدّ مغتصباً للسلطة. ليس هذا وحسب، لكن فرع النورمانديين الجنوبيين - الفريق نفسه الذي احتل إنكلترا في عام ١٠٦٦- كان قد انتزع جنوب إيطاليا، من حكم بيزنطة، وبمباركة تامة من البابا حرر صقلية بعد مئتي عام من سيطرة المسلمين عليها. لهذا السبب وجد البيزنطينيون أنفسهم مرغمين على أن يحاربوا في جبهتين: ضد رعاياهم المسيحيين في أوروبا، على الرغم من أنهم كانوا من الكاثوليك وضد المسلمين السلجوقيين في آسيا الصغرى.

هكذا قرّر رومانوس في عام ١٠٧١ أنه حان الوقت لمواجهة السلجوقيين الغزاة الآتين من الشرق مرة واحدة وإلى الأبد. فانطلق بجيش كبير، لم يكن جميع من فيه من القوات الإمبراطورية النظامية. كان بعضهم جنوداً من الفرنجة من أوروبا الغربية، وكان آخرون متعاقدين من العرق التركي وهذا أمر سيكون قاتلاً - والأسوأ من ذلك هو أن أحد القادة البيزنطيين الكبار، «أندريونيكاس دوكاس - Andrionicas Doucas» كان أحد خصوم رومانوس في الصراع على السلطة في القسطنطينية.

التقى الجيشان البيزنطي والسلجوقي وجهاً لوجه في آب أغسطس، قرب بحيرة «فان - VAN» ولا يتفق المؤرخون على التاريخ الذي حدثت فيه المواجهة النهائية في «ملاذ كرد». ولكن مما لا شك فيه أن النتيجة كانت كارثة كبرى لحقت بالبيزنطيين، ولا سيما رومانوس» الذي وقع في الأسر. ثم خلعه أعداؤه في الداخل بعدئذ من العرش، والتحق المرتزقة الأتراك بأبناء جلدتهم وتمردت قوات دوكاس» على الأوامر صراحة وانتصر أرسلان والأتراك السلجوقيون.

عاش أرسلان بعد ذلك عاماً واحداً فقط، وخلفه مالك شاه، الذي توفي في عام ١٠٩٢ ذلك الحدث غير المتوقع هو الذي منح الغرب الفرصة المناسبة التي كان بحاجة إليها لكي يسترد الأرض المقدسة.



بعد وفاة مالك شاه، بدأت الإمبراطورية السلجوقية، التي كانت لاتزال خاضعة، بالاسم فقط للخلافة العباسية، تتلاشى. لأن مالك بدلاً من أن يورث الإمبراطورية إلى وارث واحد، وزّع مملكته على مختلف أفراد أسرته، وهؤلاء بدلاً من إرساء دعائم إمبراطورية واحدة قوية، عبثت بهم أهواء الطبيعة الإنسانية، وانقسموا إلى إمارات متعددة متنافسة ومتناحرة، يقاتل أحدهم الآخر، دون أن يمتلك أحد منهم القوة الكافية لصد أي غزو واسع النطاق قادم في غفلة منهم جميعاً، لو كان الوضع مختلفاً، لكان من المحتمل ألا تتمكن الحملات الصليبية من التقدم أكثر من بضعة أميال، ولما تمكنت من الوصول إلى القدس، ومن ثم إقامة مملكة جديدة هناك.

سننظر لاحقاً. هذا الفصل في بعض القضايا الرئيسة ذات الصلة في «بأوروبا» في تلك الحقبة، إن إحدى النقاط التي لم تحظ بالتأكيد الكافي، هي أن الحروب الصليبية، كانت في جوهرها، رغبة بابوية لإحكام سيطرتها على شعوب ضمن حدود مناطق نفوذها، بقدر ما كانت أيضاً، رغبة في شنّ هجمات على شعوب خارجها. كما كانت حرباً ضد الوثنيين الأوروبيين «اللتوانيين - Lithuanians»، وحرباً لاسترداد الأراضي المسيحية التي خسرتها إسبانيا، ومحاولة لغزو العالم الإسلامي في عقر داره بالاستيلاء على القدس إن قصص ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين مهما اكتسبت من شعبية عبر القرون، ففيها تضليل كبير بكل ما للكلمة من معنى.

يمكن للمرء في الواقع أن يقول إن القوة الدافعة الكبرى إلى الحملات الصليبية، كانت تحرير طليطلة من «المورو» في عام ١٠٨٥ ويرى «أندرو هويتكرافت - Andrew Wheatcraft» في كتابه «الكفار» الذي كان شديد التأثير، أن تحرير المسيحية لطليطلة بقوات «الفونسو الخامس» كان من نواح عدة، البدء الحقيقي للممالك المسيحية لاسترداد إسبانيا، الذي أدى في نهاية المطاف إلى الاستيلاء على غرناطة في عام ١٤٩٢ وبينما كنت أود وضع تاريخ



أسبق للاسترداد. فإني على الرغم من ذلك أرى أن رأي «هويتكرافت» يشكل نقطة مهمة كان الشعب في أوروبا قد استيقظ على حقيقة أن الجيوش الإسلامية ليست قوة لا تقهر وأنه يمكن تحقيق تقدم حقيقي لطردها من الأراضي المسيحية.

إن أحد الأسباب التي جعلت ألفونسو قادراً على تحقيق الانتصار جزئياً، يعود إلى وضع مشابه في الشرق الأوسط: القوة الجبارة التي تمتعت بها من قبل الخلافة الأموية في الأندلس، كانت قد اضمحلت في مطلع القرن الحادي عشر ولم تكن أي من ممالك «المورو» التي توالت على الحكم، تمتلك القوة الكافية لصد هجوم يأتي من الخارج.

وفي الواقع، سرعان ما أدى انتصار ألفونسو في طليطلة إلى ازدياد وضع الجيوش المسيحية سوءاً، لأن حكام «المورو» المحليين استغاثوا بحكام إمبراطورية المرابطين الجديدة الأقوياء في مراكش لتقديم المساعدة. فاجتاحت قوات المرابطين بسرعة وفي زمن قصير أراضي إسبانيا التي يحكمها «المورو»، وسرعان ما أصبح معظمها يدار، ليس من داخل الأندلس، بل من مراكش، منذ انتصار المرابطين في «الزلاقة» في سنة ١٠٨٦ لم يدم حكم المرابطين طويلاً. إذ قام الموحدون حوالي عام ١١٢٠ وهم فريق إسلامي آخر من شمال إفريقيا، باحتلال أراض من إفريقيا أولاً، ومن إسبانيا بعد ذلك، ولكن طليطلة بقيت في قبضة المسيحيين القوية.

كان هناك خبر سار آخر لمسيحيي الغرب. فبقدر ما كان احتلال النورمانديين لجنوب إيطاليا أمراً محبطاً للبيزنطيين كان استيلاء النورماندين أنفسهم على صقلية ما بين عامي ١٠٦١ و١٠٩١ وطرد العرب منها مشجعاً معنوياً كبيراً للكاثوليك المسيحيين وكما يذكر «ماركوس بول - Mrcus Pull» في كتابه «تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية». كان البابوات يصمون استرداد إسبانيا،



وصقلية كذلك. ولم يكن أمراً مفاجئاً أنهم بعد ذلك وجهوا اهتمامهم نحو أهداف أخرى.

أحد الأهداف الرئيسة للبابوية كان لكسب سلطة أكبر في أوروبا. ولاسيما على الحكام المسيحيين الذين أرادوا تقليص سلطة البابا لأسباب سياسية داخلية. وكان هذا دافعاً مهماً للحروب الصليبية وللرغبة في استرداد الأراضي المسيحية ولكننا سنركز اهتمامنا الآن على الدافع الأخير، وهو: رغبة مسيحيي غرب أوروبا في استعادة الأراضي التي كانت تخضع في الماضي لسيطرة المسيحيين، كإسبانيا والأراضي المقدسة، وكذلك احتلال ممالك وثنية متاخمة للأراضي المسيحية، في مناطق البلطيق ووسط أوروبا.

هذا كله إذن كان بالتأكيد في ذهن البابا أوربان الثاني حين أعلن في «كليرمونت» في عام ١٠٩٥ ما تسميه الآن بالحملة الصليبية الأولى.

نميل غالباً بسبب رؤيتنا الرومانسية، والصورة المشوهة للحملات الصليبية في أذهاننا، إلى تصديق القول بأن أوروبا كلها استجابت بحماسة للمطالبة بشن الهجوم على المسلمين الأشرار، «Saracens». كما كان حكام الشرق الأوسط المسلمين يسمون آنذاك، إلا أن البحث التاريخي الدقيق يدلّ على غير ذلك، لأن عدداً قليلاً نسبياً من الملوك. و«اللوردات» الكبار والفرسان والناس العاديين حمل الصليب وانضم إلى المسيرة نحو فلسطين ومما لا شك فيه أن الحملات الصليبية كانت تلبي مصلحة أقلية وأنها لم تمثل فرصة للأبناء الأصغر سناً المحرومين من وراثة الأرض في وطنهم ويفترض أنهم انضموا إلى الحملة لأسباب روحية واقتصادية، بحثاً عن الثروة في أماكن نائية تثبت الأبحاث الحديثة أن الانضمام إلى حملة صليبية كان مكلفاً جداً، ويشكل عبئاً ثقيلاً على الدولة وكان الأبناء الكبار في الواقع، هم الذين يستطيعون المغامرة لأن لديهم ريع أراضيهم الذي يستطيعون به تمويل الرحلة.



برهنت أعمال «جوناثان ريلي - سميث - Jonathan Rily-Smith» وكذلك أعمال المؤرخين الذين يتفقون وإياه بالرأي، على أن الحافز الروحي كان يُعدّ أولوية لدى معظم الصليبيين، تتصدر قائمة أسباب شن الحرب. وذلك يعود جزئياً، إلى أن القرار البابوي بمنح صكوك الغفران أو الصفح عن الخطايا - إلى جميع أولئك الذين يذهبون إلى الحرب. ولكن بما أننا اليوم في أكثر العصور سخرية، قد تميل إلى عدم إيلاء هذه المسألة أهمية تذكر، بينما كانت تُعدّ في القرون الوسطى المبكرة، نعمة روحية كبرى أثرت جداً في وجدان العديد من الفرسان الذين كانوا يعتقدون حقاً أن الله سوف يغفر بوساطة البابا ذنوب الذين يضحون من أجل استرداد القدس. في مجتمع غالباً ما تسوده الأمية. لم تكن الروحانية تتعلق بما يقرأ المرء، وإنما بما يرى وما يفعل. وهكذا كان للأفعال الجديرة بالتقدير في تلك الأيام قيمة أكبر مما لها الآن. وبالنسبة إلى الصليبي العادي، كانت تلك الحرب، بلا شك، حرباً مقدسة.

أطلق على الحملة الصليبية الأولى التي انطلقت نحو الشرق، اسم مضلل هو «صليبية الفقراء». كما خلّفت انطباعاً خاطئاً بأنها جيش قوامه مزيـج من الناس العاديين. وفي الحقيقة لم يكن عدد قليل من الجنود أرستقراطياً، كما لم يكن بطرس الناسك قائدها شخصاً جاهلاً ولو لم يتوفر الدعم التام من دولة كبرى لكان الفشل مؤكداً، ولكانت «صليبية الفقراء» تحطمت بعد وقت من وصولها إلى الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون.

بدأت الحملة الصليبية الأولى فعلاً في عام ١٠٩٦ ولم تكن في البدء. كما يذكرنا «جون فرانس - John France» جيشاً واحداً، وإنما عدة جيوش انطلقت من أماكن مختلفة، ولكن المكان المقصود منذ البدء، هو القسطنطينية. كان بين القادة الأوائل منذ الساعات الأولى: «ريمون كونت تولوز - Raymon, of Toulouse».. حاكم معظم أنحاء جنوب فرنسا، و «غودفري دوق بوايون - Godfrey of Bouillon»، الذي يملك دوقية في بويون، أي بلجيكا الآن،



وشقيقه «بوهيموند كونت بولوني - Bohemond of Boulogne» و «بوهيموند دوق تارانتو - Bohemond of Taranto» وهو نورماندي من صقيلية، وابن أخيه «تانكرد - Tanceed» و «روبرت دوق نورماندي - Robert». وابن عمه «روبرت دوق فلاندرز - Robert of Flanders». تلك كانت مجموعة مثيرة من قيادات القرون الوسطى. وقد اعتاد كل فرد منها، في الواقع على القيادة منفرداً، لا يشاركه فيها نظراؤه. وذلك أمر لم يسهّل اتخاذ القرار عندما بدأت المواجهات.

قتل الذين عبروا ألمانيا في طريقهم أعداداً كبيرة من اليهود، وتلك واقعة نتذكرها اليوم لأنها كانت بمنزلة مقدمة قديمة للمحرقة. عارض البابوات هذا العمل، وأدانوه بشدة. وفيما بعد أدائه الراهب «برنارد واعظ كليرفو - Clairvanix». ويُعدّ وصمة كبرى في سجل الحملات الصليبية. عندما استقر الصليبيون في فلسطين، من كثيرٌ منهم، فيما بعد علاقاتهم مع اليهود في بلدانهم الأصلية في أوروبا.

ينبغي ألا ننسى أن أوربان الثاني، هو الذي دعا إلى الحرب الصليبية. إلا أن تلك الدعوة كانت نظرياً بمنزلة نداء استغاثة لمساعدة الإمبراطور الكسيوس، في مواجهة تهديد الجيوش الإسلامية لأراضيه. ولكن، بعد انقضاء ثلاث سنوات فقط، طوى النسيان ذلك الهدف تماماً وأنشأ الصليبيون سلسلة من الدوقيات والإمارات والممالك الخاصة بهم. ويعود سبب ذلك جزئياً، إلى العلاقات السيئة التي نشأت بين الصليبيين والبيزنطيين. ولكن مهما كان السياق الذي تطورت فيه الأحداث. فإنها بدأت كلها في القسطنطينية.

كتب كثير من التفاصيل الدقيقة عن الحروب الصليبية، ولسنا بحاجة إلى الدخول في بحث جزئياتها هنا، بل سنكتفي بالقول إن القوى المتحالفة كانت مستعدة في عام ١٠٩٧ لبدء الهجوم، وفي حزيران يونيو كانت قد حققت أول



انتصار لها في مدينة «إسكي شهر» القديمة في الأناضول. (كان لتلك الواقعة أهمية كبيرة، لأن الطريق البرية التي اختارها المهاجمون تبدأ من القسطنطينية وتتجه نحو القدس، بدلاً من محاولة شنّ هجوم مباشر من البحر على فلسطين. وسوف يصبح هذا ممكناً، فيما بعد، عندما تم الاستيلاء فعلاً على المنافذ الرئيسة، مثل مرفا عكا).

واجه الصليبيون أول اختبار فهم في تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٠٩٧، وهو: الاستيلاء على مدينة أنطاكية في شمال سوريا. لم تكن تلك مهمة سهلة، ولكن المدينة، على الرغم من الصعوبات الهائلة لم تحتل في نهاية المطاف، إلا في حزيران/ يونيو من عام ١٠٩٨

وقد مضت سنة واحدة أخرى تماماً قبل أن تحقق الحملة الصليبية الهدف الفعلي: الاستيلاء على القدس، المدينة المقدسة.

وكما هو معروف على نطاق واسع اليوم، ومسجل في واحدة من دوريات القرون الوسطى كان الصليبيون يغوصون في الدماء حتى كواحلهم عندما تمكنوا في نهاية المطاف من الاستيلاء على المدينة. ذُبح الجميع. وطالت المذبحة سكان المدينة المحليين من اليهود والمسيحيين والمسلمين، جميعهم على السواء.

وبما أن الصليبيين لم يتلقوا المساعدة العسكرية التي كانوا ينتظرونها من البيزنطيين شرعوا بعد وقت قصير يقيمون دويلاتهم المستقلة الخاصة بهم. كانت الرها» هي الأولى كما كانت الأولى أيضاً التي استولي عليها في عقد عام ١١٤٠). وتلتها طرابلس، وإمارة انطاكية. أما القدس الهدف الرئيس، فنودي بها مملكة، بعد احتلالها في عام ١٠٩٩.



طُلب في البداية من «غودفري بوايون- Godfry of Bouillon» أن يكون ملكاً على القدس. ولكنه رفض، وسُمي مدافعاً عن الأماكن المقدسة أو حامياً لها. وحين توفي في عام ١١٠٠ لم يكن أخوه «بالدوين» عفيفاً مثله، فأصبح أول ملك على القدس.

وفي حين بقي فيها بعض الصليبيين- ومنهم قسم من الذين وصلوا مع الحملة الصليبية الثانية في عام ١١٠١- إلا أن معظم النبلاء والفرسان عادوا إلى أوروبا بعد أن قاموا بواجب خدمة الصليب.

وقد استطاعت الدويلات الصليبية الصغيرة الأربعة، التي عُرفت باسم «ما وراء البحار»، الصمود وسط الأخطار، وتمكنت من ذلك، على الرغم من عدم توفر أسباب الدعم العسكري الكبير الذي كانت بحاجة إليه للمحافظة على مواقع حماية فعالة ودائمة، في بيئة بقيت معادية لها أما الحملات الصليبية في منطقة البلطيق، فقد استقر كثير من الناس الذين انضموا إليها في الأراضي التي احتلتها، وفي إسبانيا، استعادت حرب الاسترداد أراضٍ يقطنها سكان ينتمون إلى العرق نفسه والدين نفسه، أما في مناطق ما وراء البحار، فلم تكن المسألة كذلك، ولذا فإنه لمن الصعب أن نفهم كيف يمكن أن توصف بأنها مشروع استعماري، وليس ممارسة روحية غرضها بقاء الأماكن المقدسة في أيادٍ مسيحية.

حدث في عام ١١٤٤ أمر كان من شأنه أن يؤدي، في نهاية المطاف، إلى هزيمة الصليبيين بينما كان الخلفاء العباسيون يحكمون بغداد بالاسم، رأينا في الواقع، أن السلطة الفعلية كان يمارسها آخرون، وأنه كان بوسع الصليبيين أن ينتصروا في عام ١٠٩٩ لأن أعداءهم كانوا منقسمين. ولكن بقدوم القائد المسلم القوي «زنكي» الحاكم العسكري الأتابكي إلى الموصل، أصبحت أيام الصليبيين معدودةً. أعاد «الرها»، في عام ١١٤٤ إلى حظيرة الإسلام، وقد كانت أكثر



الدويلات الصليبية ضعفاً. وعلى الرغم من أنه لم يعمّر طويلاً ليشهد ثمرة غزواته، إلا أنه بدأ عملية تعزيز القوة الإسلامية، التي وفرت للمسلمين زخم الاندفاعة التي كانوا بحاجة إليها.

أدى انتصار زنكي إلى شنّ الحملة الصليبية الثانية، وقد فشلت كغيرها، باستثناء الأولى، في مد يد العون إلى مناطق ما وراء البحار وصلت جيوش أجنبية عديدة - كان أحدها بقيادة ملك فرنسا نفسه - ولكنها لم تحرز أي تقدم حقيقي وبقيت الرها في قبضة المسلمين أما مملكة القدس، والدويلتان الصغيرتان الأخيرتان، فكانت تعيش في حالة من عدم الأمان كما كانت دائماً وفضلاً عن ذلك، لم يوفق الملوك في إحراز النجاح في تداول وراثة السلطة، لأن النساء نافسن أزواجهن، وأصيب العرش بالجذام. ففي مجتمع إقطاعي تكون الحاجة فيه ماسة إلى ابن ذكر قوي يتمكن بجدارة من الإمساك بالسلطة، ولم تكن مملكة القدس تحظى بالقيادة التي تحتاج إليها مملكة مثلها من ممالك القرون الوسطى، محفوفة بالمخاطر.

(كان «جوناثان ريلي- سميث» محقاً حين أشار في تقرير كتبه لإحدى الصحف البريطانية حول فيلم «ريدلي سكوت -Ridly Scott» مملكة النعيم، إلى أن ذلك الفيلم انطوى على كثير من المغالطات التاريخية، وأن كثيراً من الوقائع التي تتزامن فيه، يفصل بينها في الواقع سنوات عديدة).

كان نور الدين، خليفة زنكي أشد صلابة من سلفه. وبقدر ما كان قائداً عسكرياً فذاً، كان مسلماً تقياً أيضاً. إن أحد الأمور التي يدلل عليها «إفرائيم كارش Ephraim Karsh»، على نحو لا يمكن دحضه، في كتابه المثير للجدل «الإمبريالية الإسلامية»، هو أن الدول الإسلامية التي تحيط بمناطق ما وراء البحار عاشت، حتى عهد زنكي ونور الدين، ردحاً من الزمن يهاجم بعضها بعضاً، في محاولة للانتصار في نزاعات داخلية، وهوزمن يساوي الزمن الذي



حاولت فيه التخلص من الغزاة الأوربيين. وحين شرع نور الدين بمهمة تعزيز قواته وشنّ هجماته، بدأت الجيوش الإسلامية مرة أخرى تعتبر الجهاد حرباً ضد الكفار الذين يعيشون بجوارها يمكن أن يكون كتّاب مثل كارش على صواب حين يفسرون تلك الوقائع بشيء من السخرية، وحين يعتبرون أن مصالح الأسر الحاكمة هي التي كان لها الأولوية ومما لا شك فيه أن نور الدين وكثيراً من القادة المسلمين المحللين الآخرين وضعوا مصالح أسرهم في مقدمة مطامعهم. إلا أنني أرى أنه ليس هناك من سبب يدعو ألا تكون لهم تطلعات إسلامية أصيلة أيضاً، وليس هناك من سبب يدعو إلى أنه يجب أن يكون ثمة تناقض بين مصالح الأسرة والإيمان.

كان نور الدين وأسرته أتراكاً، مثل معظم الأقطاب الآخرين من السنة الأقوياء في ذلك الحين ولكن قوات النخبة لديه كانت تعتمد على رجال من أصول عرقية أخرى، وكان أحدهم رجل عرفته أجيال الغرب باسم صلاح الدين، وقد استطاع أن يشغل أن يشغل مركزاً مرموقاً. كان صلاح الدين شخصية بارزة، لا لأنه يعود بأصوله إلى تكريت، التي ستكون بعد قرون مسقط رأس صدام حسين وقاعدة سلطته.

ولكن لأن ملايين العرب منحوا صلاح الدين صفة البطل، ولاسيما في القرن العشرن، لأنه الرجل الذي هزم الغربيين الأشرار كان صلاح الدين، في الواقع، كردياً، وكان الرجل الذي تمتع بأوسع شهرة نالها فرد من بني قومه في مختلف العصور (ولما كان الأكراد قد عانوا طوال قرون من الاضطهاد على أيدي المسلمين السنة، فإن المكانة التي تبوأها صلاح الدين بين العرب تُعَدّ، لذلك، مثيرة للسخرية).

لم يخطئ ناقدون مثل كارش، حين أكدوا أن صلاح الدين لم يسارع إلى القضاء على الدويلات المسيحية، بل قضى مزيداً من الوقت - لا يهاجم



مناطق ما وراء البحار - وإنما يرسي دعائم أسرة حاكمة من بني قومه الأيوبيين، تكون بديلاً من أسرة نور الدين في عام ١١٩٦ قام نظرياً، بقيادة نور الدين (الذي كان بدوره يخضعنظرياً لسلطة الخليفة أيضاً) بالقضاء، في نهاية المطاف، على الخلافة الفاطمية. وهكذا كانت خاتمة قرنين من سيطرة بدعة شيعية على مصر وعلى جزء من العالم الإسلامي. وهنا فإنني أتفق، في هذه النقطة تماماً، مع ما كتبه«برنارد لويس» الذي أكد على نحو مقنع، أن تلك كانت هي المعركة الحقيقية: ليس تحرير فلسطين من المسيحيين المزعجين، بل القضاء على خلافة إسلامية تعدّ بدعة في قلب العالم الإسلامي.

ليس بذي أهمية سواء كانت أولوية أهداف صلاح الدين أسروية أو دينية، أو الأمرين معاً، كما أود أن أقول، الأمر الأساسي هو أن الصليبيين كانوا آنذاك محاصرين إستراتيجياً من ناحيتين، قوة جبارة جديدة مُشكّلة من ائتلاف قوى إسلامية سنية تحاصرهم من ناحية، ومن ناحية ثانية، لم تكن العودة إلى لعبة المواجهة بين الأتراك السنة والفاطميين الشيعة أمراً ممكناً. (لنتذكر أن الفاطميين أسفوا جداً حين رأوا السلجوقيين يخسرون الأراضي ما بين عامي ١٠٩٧ و١٠٩٩).

لذلك فإنني أعتقد أنه لمن الطبيعي القول، سواء من الناحية العسكرية، أو الروحانية الدينية أيضاً، إن صلاح الدين حسناً فعل حين وضع الاستيلاء على مصر في المقام الأول، لأنها كانت العقبة الكبرى وسواء أكان من المناسب أن نقول أم لم يكن مناسباً، فإنه لمن الصواب أن نؤكد، أن صلاح الدين، لولا بلاهة بعض النبلاء الذين هاجموا قوافل المسلمين، لما هاجم مملكة الصليبيين أعتقد أن دوافع صلاح الدين كانت مزيجاً من أطماع أسروية تتعلق بتأسيس سلالة حاكمة، ومن رغبة أصيلة لتحرير المنطقة من الكفار، ولذلك فإنه، عاجلاً أو آجلاً، كان لابد له من أن يهاجم الصليبيين.



تمكّن صلاح الدين، بفضل غباء الملك «غوي لويسينان - Guy Lusignan» من هزيمة الجيش الصليبي في معركة حطين في عام ١١٨٧. وكانت القدس قد احتلت بعد ذلك بقليل، ولكنها عادت لتقع في أيدي المسيحيين لفترة قصيرة، في القرن الثالث عشر، وذلك - كما سنرى لاحقاً -لم يكن بفضل مأثرة عسكرية، وإنما نتيجة مفاوضات سلمية. وقد بقيت المدينة على المدى الطويل، من منظور واسع ووجهة نظر شاملة، وفي جميع الأحوال، تحت الحكم الإسلامي حتى عام ١٩١٧.

كان ريتشارد قلب الأسد، ملك إنكلترا نظرياً، يُعدّ أحد أشد الصليبيين رومانسية. وعندما بلغ مسامع السلطة البابوية نبأ اجتياح القدس، أطلِقت الحملة الصليبية الثالثة. فحمل ريتشارد بحماسة صليبه وشارك فيها، لذلك ترتبت على ممتلكاته نفقات مالية باهظة في إنكلترا، وفي فرنسا أيضاً التي كانت ممتلكاته فيها أوسع من ممتلكات زميله الصليبي الملك «فيليب». (كان الملك ريتشارد الأول نظرياً ملك إنكلترا، ولكنه فعلياً لم يزرْ قطّ الأراضي التي تخضع لسلطانه طوال حياته كملك، على الرغم من رواية فيلم هوليود).

ربما كان «ريتشارد» راعياً عظيماً للفنون، لكنه في الواقع، كان ممقوتاً وأحد أقل ملوك إنكلترا قبولاً، فضلاً عن أنه كان ينطوي على مزاج نفسي مريض أعتقد أن ما كان يتمتع به من شعبية في إنكلترا يعود إلى الكراهية العميقة التي كان الشعب يكنها لأخيه الأصغر ووارثه الملك جون، وإلى الهالة الرومانسية التي أخذت تحيط بالصليبيين بعد قرون من وفاته. ولكن الصراع بين صلاح الدين من جهة، وريتشارد من جهة أخرى، كان يعد تجسيداً لتقاليد الفروسية. إلا أن هذه المفاهيم -كما يبدو بوضوح ودقة، في كتاب «موريس كين - Maurice Keen»، «الفروسية»- تعود إلى زمن لاحق، تلي أواخر القرون الوسطى. وقد ترسخت، على كل حال، أكثر في الحقبة «الفيكتوريانية». وعلى الرغم من أن ريتشارد وصلاح الدين يمكن أن يكونا قد تصرفا على نحو اتسم



بالمجاملة البالغة كخصمين نبيلين، إلا أنه من الصعب، ونحن على مسافة زمنية بعيدة، أن نعرف في الواقع، ما كان حقيقة، وما كان أسطورة إلا أن ثمة أمراً مؤكدا، وهو أن الحملة الصليبية الثالثة كانت، كسابقتيها، كارثة عسكرية. القدس لم تُسترد، والسيطرة على المدينة المقدسة، كانت، كما رأينا، السبب الحقيقي لجميع الغزوات التي شنتها القوى الآتية من الغرب على فلسطين.

وما يمكن أن نؤكده هو أن ريتشارد كسب وقتاً من أجل البقاء في الأراضي التي كانت لاتزال بأيدي المسيحيين، وقد بقيت بأيديهم مدة قرن آخر بفضله ليس هذا وحسب، بل إنه حين احتل قبرص، عندما كان في طريقه إلى القدس، قدم للصليبيين موقعاً بمنزلة ثكنة عسكرية لمدة الخمسمئة عام التالية.

ومن المؤسف أنه حين قام بذلك، انتزع الجزيرة من حكامها البيزنطيين، وأخضع أكثرية سكانها اليونانيين الأرثوذوكس، الذين قطنوها طوال قرون، للسيطرة الكاثوليكية.

وسبق أن رأينا أن العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين لم تكن ودية، وبعدئذٍ بفترة قصيرة، كان من شأن ذلك العداء أن يستفحل على نحو ألحق ضرراً بالمسيحيين في المشرق وفي جنوب شرق أوروبا.

عندما أعلن البابا ذائع الصيت في القرون الوسطى «إنوسنت الثالث - Innocent III» عن إطلاق حملة صليبية في عام ١٢٠٢، عرفت رسمياً بالصليبية الرابعة، لم يكن يعي ما ستستدعيه من آثار مدمرة بعيدة المدى، ومن ارتدادات مريعة وصلت إلى القرن الحادي والعشرين، وأودت بحياة مئات الآلاف في البوسنة في عقد عام ١٩٩٠.

يُفترض أن الحملات الصليبة كانت موجهة ضد الكفار أو الهراطقة، ولكن الحملة الرابعة لم تصل قطّ إلى الأرض المقدسة.



وبالمقابل، أدى طمع البندقية بقيادة دوقها العجوز «دونالد» شبه الأعمى، إلى سلسلة من النزاعات مع البيزنطيين، وأدت في نهاية المطاف إلى الاستيلاء على الإمبراطورية البيزنطية. واستمرت ما سُميت بالامبراطورية اللاتينية حتى عام ١٢٦١ فقط، ولكن العواقب الوخيمة التي خلّفتها دامت زمناً طويلاً.

لم تتمكن بيزنطة، المعقل الحصين، طوال قرون، ضد الغزوات الإسلامية في جنوب شرق أوروبا، من استعادة عافيتها قط. وعندما استولت قوات الإمبراطورية العثمانية على القسطنطينية في عام ١٤٥٣، أصبحت الإمبراطورية البيزنطية مجرد هيكل باهت لما كانت تتمتع به من ماض عظيم. وبقيت أراضٍ بيزنطية أخرى خاضعة للسيطرة الغربية لمدة أطول، مثل الجزر الأيونية، التي خضعت للبندقية حتى عام ١٧٩٨، وخضعت بعد ذلك لبريطانيا حتى عقد سنة ١٨٦٠. أما شمال اليونان فلم يعد للحظيرة اليونانية حتى عام ١٩١٣.

أخفقت الحملات الصليبية التالية، التي حدد المؤرخون عددها بتسع، في استعادة السيطرة على الأراضي المقدسة. ومما يثير السخرية أن الشخص الوحيد القادر على استعادة القدس إلى حكم المسيحيين كان عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة «فريدريك الأول»، وقد قام بذلك خارج إطار حرب صليبية رسمية، لأنه كان محروماً كنسياً، ولم يعترف بنجاحه حتى البابا نفسه. وبعد انتهاء أجل الهدنة التي تمكن من التوصل إلى عقدها لدى زيارته للقدس، خسر المدينة مجدداً ونهائياً هذه المرة، إلى أن حررها الاستراليون والبريطانيون بقيادة الجنرال اللنبي في عام ١٩١٧.

سعت عدة حملات صليبية - لسبب معقول - إلى تحطيم سلطة المماليك حكام مصر. وشارك في حملتين منها ملك فرنسا «سان لويس أو لويس



التاسع». يمكن أن نقول إن الصليبيين أضاعوا فرصة استغلال تقدمهم المبكر في المحاولة الأولى، ولم يتمكنوا في المحاولة الثانية من استعادتها.

باختصار، أعتقد أن المعضلة تكمن في أمر سبق أن أتينا على ذكره آنفاً: لم تكن ثمة قوة مسيحية كافية تعيش بشكل دائم في الأرض المقدسة، وكانت الحاجة ماسة إلى أن تأتي جيوش من الغرب للنجدة باستمرار. والملوك والنبلاء والحكام الأجانب الأقوياء كانت لهم دائماً برامجهم الخاصة، التي لا تتفق، بالضرورة، وبرامج ملك القدس ورعاياه.

يمكن للمرء أن يقول، في الواقع، إن الحروب الصليبية فشلت لأنها لم تكن مغامرة استعمارية، بل دينية، ولأن أي دولة غربية لم تكن تنفرد في ملكية الإمارات الضعيفة التي أرسى الصليبيون دعائمها في أولى حملاتهم بعد عام ١٠٩٩.

كانت الدويلات الجديدة ثمرة للحماسة البابوية، بكل ما للكلمة من معنى، ولذلك لم تكن، في الواقع، أي دولة غربية مهتمة في أن ترى، في نهاية المطاف، تلك الدويلات محمية بشكل دائم وكان يتعين على البابوات المتعاقبين أن يستأنفوا المغامرة بحملات صليبية جديدة، والعودة إلى تأجيج الحماسة القديمة، وإقناع أجيال جديدة من الحكام الأوربيين وفرسانهم بأن الأراضي التي عاش فيها المسيح تستحق أن تبقى بأيدٍ مسيحية.

هذا يفسر، كما أعتقد، نجاح حملات صليبة أخرى، ولاسيما في فرنسا، وإسبانيا، ومنطقة البلطيق إذ إن تلك الحملات كانت مشبعة بروح دينية - أو ربما كانت مشبعة بما هو أقوى من الروح الدينية- ساعدت على أن يكون الاستيلاء على الأراضي مستمراً. وكان من الطبيعي أن يرغب المسيحيون الذين يتكلمون اللغة الإسبانية بالمحافظة على أراضيهم، وبتحرير أبناء جلدتهم من سيطرة الغرباء وساء ملوك فرنسا أن يكون جزء كبير من سلطاتهم الصورية في



جنوب البلاد -«لانغدوك - Languedoc»- في حال من الفوضى، وخارج سيطرتهم. وكان الفرسان الألمان يريدون توسيع الحدود (العرقية) لأراضيهم.

لا أريد أن أقول بهذا إن الإسبان والفرنسيين والتيوتون، يفتقرون إلى الدرجة نفسها من الحوافز الدينية التي حملت شعوباً أخرى على الذهاب إلى فلسطين. وبعيداً عن هذا، وقد أضاف كون الذين احتلوا جزءاً كبيراً من إسبانيا مسلمين. بلا شك، حافزاً قوياً، لأن التحرير الذي كانت تصبو إليه تلك الشعوب كان يتسم بطبيعة دينية، بقدر ما كان مرتبطاً بتحرير الأرض والأمة.

كان وجود الكاثاريين في «لانغدوك» يهدد الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، كما كان في الوقت ذاته، يهدد نزعة الحكم المركزي لدى الملوك الفرنسيين الذين كانوا متورطين في محاولة طرد إخوانهم الكاثوليك خارج حدود فرنسا، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

لم يكن للغرب، منذ العام ١٢٩١ حتى العام ١٩١٧ حضور في فلسطين. ويرى بعض المؤرخين أمثال «دافيد فرومكين - David Fromkin» و «إفرائيم كارش - Epraim Karsh» اللذان استخلصا، كل منهما على حدة، أن حضور الغرب أتى بعد ذلك، بسبب غباء الإمبراطورية العثمانية التي اختارت الوقوف في صف الألمان وليس الإنكليز، في الحرب العالمية الأولى كانت إسبانيا بالمقابل قد استردت نهائياً. وتلاشى الكاثاريون من جنوب فرنسا بفضل أعمال التبشير بالإنجيل، ولاسيما جهود مؤسسة الآباء الدومنيكان الجديدة، وكذلك بفضل الأساليب بالغة القسوة التي أرست دعائمها مؤسسة جديدة أيضاً هي محاكم التفتيش، وليس بفضل الأعمال العسكرية الأشد وحشية التي ارتكبها «سيمون دي مونتفورت - Simon de Montfort» الصليبيون الألبيجيون قد تكون دول البلطيق وبولونيا شهدت أعمال تطهير عرقي للسكان اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية، والألمان بعد سنة ١٩٤٥. ولكن المنطقة الآن



مسيحية كاثوليكية، وعضو في منظمة معاهدة شمال الأطلسي الناتو وفي الاتحاد الأوربي. قد يكون فرسان التيوتون من وجهة النظر العسكرية خسروا المعارك الحربية في القرن الخامس عشر، ولكن من وجهة نظر دينية، كان صليبيو الشمال هم الذين انتصروا على المدى الطويل.

ذلك كله يجب أن يكون حاضراً في أذهاننا عندما تتناول الحروب الصليبية كحركة جماعية لأوروبا الكاثوليكية، بدلاً من أن تركز اهتمامنا فقط على الغزوات التي شُنت على الشرق الأوسط، وانتهت كما هو معروف في عام ١٢٩١ بالترحيل والهزيمة النهائية. درس بعض الكتاب الحروب الصليبية، ولاسيما «جوهان فرانس - Johan France» و «جوناثان ريلي-سميث - Jonathan Riley-Smith» اللذان درساها كظاهرة تمتد إلى ما بعد نهاية القرن الثالث عشر، وتصل حتى إلى عام ١٧٩٨ حين احتلت مالطا، الجزيرة التي سُلّمت في القرن السادس عشر إلى فرسان مالطا الذين رعاهم الإمبراطور تشارلز الخامس لتعويض خسارته جزيرة رودوس على أيدي الأتراك.

هذه الفكرة بمعنى ما بلا شك صائبة إذ يرغب المرء، على سبيل المثال، في أن يكون عدد أكبر من الدول الأوروبية تداعى لمساعدة هنغاريا في أواخر عقد عام ١٣٩٠. وقد قاتل جيش مسيحي كبير في عام ١٣٩٦ الغزاة العثمانيين في موقع يُدعى «نيكوبوليس»، وكانت النتيجة كارثة حلت بالقوات المسيحية، لأن العثمانيين الحقوا بها هزيمة ساحقة مهدت الطريق أمام الأتراك العثمانيين للسيطرة على البلقان. ويمكن أن أقول إنها كانت أهم من معركة كوسوفو بين العثمانيين والصرب التي جرت قبل تسع سنوات. كانت معركة «نيكوبوليس» مثل معركة «ملاذكرد»، وهي كما يبدو، كانت واحدة من المعارك التي أنهت ثلاثمئة عام من حروب الغرب الصليبية التقليدية. هذا لا يعني أن المناوشات البسيطة على الأرض قد توقفت، ولكن الغرب، بعد معركة «نيكوبوليس» التزم موقف الدفاع. احتلت هنغاريا في عام ١٥٢٦،



وكانت فيينا على وشك السقوط في عام ١٥٢٩ وكما يتذكر «برنارد لويس» ذلك جيداً، تمكن الغرب أخيراً في عام ١٦٨٣ من استعادة زمام المبادرة. إن كوارث البلقان كلها، كما أرى يمكن أن تعزى مباشرة إلى احتلال جيوش الهمج المرتزقة الغربيين للقسطنطينية في عام ١٢٠٤، ما يعني أنه كان يتعين على مسيحيي جنوب شرق أوروبا الأرثوذوكس أن يتحملوا معاناة حوالي خمسمئة أو ستمئة عام من الخضوع للسيطرة الأجنبية، وما ترتب عليها من نتائج أشرنا إليها آنفاً.

إن إحدى القضايا المهمة التي تضمنها هذا الفصل، هي أن الحملات الصليبية حاربت كلّ من كان يحسبه البابا عدوه، وليس الإسلام وحده. عندما نستمع إلى مسلم متعصب يعيش في القرن الحادي والعشرين يطلق تعبير «صليبي» حين الإشارة حصراً إلى النزاع المسيحي الإسلامي، فإنه يرتكب خطأ تاريخياً إن عدداً كبيراً من «الكاثاريين» ذُبحوا بأمر من سيمون دي مونتفورد وكان كثير من سكان منطقة البلطيق يخضع لسيطرة الألمان الأجانب حتى عام ١٩٤٥.

وأما فيما يتعلق بالسكان اليهود في كثير من تلك الأراضي، فإننا نتذكر «غيتو ريغا. ولكننا ننسى حضارة يهود الأندلس «اللادينو» الرائعة، وذلك الازدهار الفريد في التعليم والثقافة الذي أنجب عملاقاً مثل «ابن ميمون» إذ تعين عليهم أن يواجهوا نهايتين تعيستين: الطرد في عهد الملك الكاثوليكي فيرديناند» وزوجته «إيزابيلا» في القرن الخامس عشر، وبعد ذلك حين هرب اليهود الذين يتكلمون لغة «اللادينو» إلى اليونان وإلى مناطق عثمانية أخرى لم يكونوا مطاردين فيها، أتاهم الموت ثانية في المحرقة عندما كان الأمين العام السابق للأمم المتحدة «كورت فالدهيم» في ذلك الحين ضابطاً شاباً بين أولئك المسؤولين عن الإبادة الجماعية لجماعات اليهود «اللادينو» التي كان قد مضى على استقرارها قرون في مكان مثل سالونيك.



لنلقِ الآن نظرة على حملات صليبية أخرى مهمة وذات مكانة لاهوتية أيضاً، في أنحاء أخرى من العالم، خارج الشرق الأوسط، كالحملات الصليبية في شمال أوروبا ضد ممالك السلاف الوثنيين، وفي لانغدوك ضد الهراطقة الكاثاريين ومن ثم في إسبانيا ضد الغزاة «المورو» لاسترداد الأراضي الإسبانية.

كتب أستاذ التاريخ في جامعة أكسفورد «إريك كريستينسين - Eric Christensen» في كتابه «حملات الشمال الصليبية» يقول إن الكل سمع بالحروب الصليبية التي وقعت في فلسطين ولكن معظم الناس الذين لا يعرفون شيئاً عن تاريخ القرون الوسطى لم يصل إلى مسامعهم شيء عن حملات الـ «ألبيجيين - Albigensian» الصليبية ضد الـ «كاثاريين - Cathars» في جنوب فرنسا، كما أنه يشير إلى الحروب الصليبية التي شُنت في شمال أوروبا على «الواندال - Wends» والـ«ليفونيان - Livonians» والقبائل الأخرى في منطقة البلطيق وهي غالباً حملات لا نعرف عنها شيئاً.

ومع ذلك، كان بطل الحملة الصلبية الثانية «برنارد دي كلارافال - Bernardo laraval» أيضاً قوة الدفع الرئيسة للحملة الصليبية الأولى في البلطيق ضد قبائل الواندال، التي انطلقت عام ١١٤٧.

في جميع الأحوال، فإن حقيقة ما كان يُعتبر حتى ذلك الحين تنصيراً سلمياً للشعوب السلافية والفنلندية البعيدة عن الحدود الدانماركية/ الجرمانية، كان في الواقع، ومن نواح كثيرة مأساة حقيقية، وتحول إلى صليبية عسكرية بكل ما ترتب عليها من نتائج امتدت حتى طرد الألمان بالقوة بعد الحرب العالمية الثانية من معظم أنحاء بولونيا ومنطقة البلطيق. وكان كثير من السلاف والفنلنديين/الاستوانيين قد خضعوا، طوال قرون، للسلطة الأجنبية، وحتى عام ١٩١٩ كانت مدينة مثل «ميميل» (الليتوانية) التي أنشأها



صليبيون ألمان في القرون الوسطى، قريبة جداً من أن تصبح إحدى مشكلات الحرب العالمية الثانية، إن ما تخلّفه حروب الغزو يستمر تأثيره زمناً طويلاً.

ولكن في الوقت ذاته اعتنق الليتوان ومجموعات عرقية أخرى المسيحية بشكل دائم فعل الليتوان ذلك في عام ١٣٨٧ دون أي تدخل عسكري. وهكذا فإن حملات الشمال الصليبية نجحت. بمعنى ما، مثلما نجحت عملية استرداد إسبانيا، ولكن على الضد من مثيلاتها الأكثر شهرة من الحملات الصليبية في الشرق الأوسط.

بدأت حملة الشمال الصليبية الأولى ضد الواندال عام ١١٤٧، والتقى «برنارد دي كلارافال» المتحمس الأكبر للحملة الصليبية الثانية على فلسطين، بكثير من القادة الجرمان، ووجد أن القبائل الوثنية فيما وراء الحدود، لم تكن قد اعتنقت المسيحية بعد، وهي تقاوم كل نفوذ مسيحي. لذلك أقنع البابا بإطلاق حملة صليبية ضد الوثنيين في أطراف أوروبا البعيدة، ومباركة الذين حملوا الصليب إلى تلك الأصقاع، بمنحهم صكوك الغفران كالتي يمنحها للذين يتوجهون إلى القدس.

قبل أن نقوم بدراسة تلك الحملات الصليبية ذاتها، ينبغي أن نُذكّر أنفسنا بأن جزءاً كبيراً من أوروبا في القرن الثاني عشر كان مايزال وثنياً. على الرغم من أن معظم سكان أوروبا الغربية تنصّر في العصر الروماني، فإن تاريخ غزوات السكسون لبريطانيا يجب أن يذكّرنا بأن قسماً كبيراً من سكان أوروبا بعد القرن الخامس كانوا بحاجة إلى أن يتنصروا ثانية. كما يتبين بوضوح مثلاً من قراءة كتاب المؤرخ اللاهوتي الكبير «بيد - Bed»، «تاريخ إنكلترا الكنسي». كان أكثر سكان دول إسكاندنافيا، في القرن العاشر، كالدانمارك والسويد، مسيحيون، ولكن مناطق واسعة من أوروبا الشمالية والوسطى بقيت كلها وثنية. ويتمسك سكانها بممارسة دياناتهم القديمة المتأصلة بشدة.



فشلت الحملة الصليبية ضد الواندال في البدء كما يشير «كريستينسين». وذلك ما حدث فعلاً في حياة «برنارد» الذي مات محبطاً. ولكن تولى الاندفاعة من بعده حاكمان مسيحيان مهمان من الشمال، هما «هنري ليون - Henrythe Lion» من سكسونيا، و «فالديمار الأكبر Valdemar The Great» من الدانمارك. وقد بقي الصليب الدانماركي إلى أيامنا هذه يحتل مكان الصدارة في راية ذلك البلد. حقق «هنري وفالديمار« نجاحاً مرموقاً في غزواتهما، وفي عقد عام ١١٨٠ غنما مساحات واسعة من الأرض للمسيحية.

وهنا كعادتي دائماً أشاطر «جوناثان ريلي - سميث» آراءه التي تضمنتها أعماله الكثيرة عن الحروب الصليبية كان «برنارد» والبابا في عام ١١٤٧، وكثير من الأساقفة أيضاً وسواهم من رؤساء الكنيسة الذين شاركوا في الحروب الصليبية، يتصورون أن أولئك الذين حاربوهم يجب إما أن يقتلوا، أو أن يجبروا بالقوة على اعتناق المسيحية. وهذا كما يذكرنا ريلي - سميث، لاهوت رديء، يتعارض كلياً مع التعليم المتبع في الكنيسة المسيحية طوال قرون. فغزو الأمم شيء، والتبشير بالإنجيل بقوة السلاح شيء آخر مختلف تماماً، لم يتصوره الصليبيون في فلسطين أثناء حربهم ضد المسلمين قط.

اتخذت الحملات الصليبية في الشمال منحى مثيراً للاهتمام؛ ففي حين كان حكام بلدان مثل حاكمي الدانمارك والسويد - وقد اتحدا لفترة قصيرة في إطار دولة اسكندنافية كبيرة- يواصلان تقدمهما، أتت قوة الدفع الحقيقية حينذاك من تنظيم صليبي انتهى به المطاف، بعد أن لم تكن لديه مهمة أخرى يقوم بها، إلى محاربة قبائل الشمال الوثنية. ذلك كان تنظيم «الفرسان التيتانيين - Teutonic Knight» الذي تأسس في عام ١١٩٠ في عكا بعد سقوط القدس، ليتولى، في البداية، حماية الحجاج والمرضى الصليبيين، ثم تحول بعد بضع سنوات إلى التنظيم الصليبي المعروف.



(كان الفرسان الـ تيتانيون قد أصبحوا حينذاك تنظيماً مغلقاً، وهو الفرع الكاثوليكي الذي لايزال موجوداً، ولكنه «كتنظيم ديني - Religios Order» كان مقره العام في النمسا، ويمكن أن ينضم إليه علمانيون أي «من عامة الناس»، كأعضاء فخريين فحسب).

ولما كان تنظيمهم يشبه إلى حد بعيد، تنظيم «حراس الهيكل - The Tempirs» وتنظيم «The Hospitallers». أيضاً، فقد كان منفتحاً، ونظرياً، على جميع الشعوب، وكان معظم أعضائه عملياً من الألمان. وعلينا أن نتذكّر أنه لم تكن ثمة دولة تسمى ألمانيا في ذلك الحين.

بسقوط القدس، أخذ التنظيم يتقلص يوماً بعد يوم ما كان يترتب عليه القيام به من مهمات في الأراضي المقدسة، وقد كانت تلك المهمات مبرر وجودهم فيها أصلاً، ومبرر وجود تنظيمات الصليبيين المشابهة أيضاً. قاتلوا في عقد عام ١٢٢٠ الوثنيين في هنغاريا. ولكن الملك كان يخشى أن تكون لديهم نيات لإقامة دولة لهم في تلك البلاد. ولذلك شئلوا في عام ١٢٢٥ ما إن كانوا يرغبون في شنّ حرب صليبية على الوثنيين في بروسيا وفي منطقة البلطيق. وإلى ذلك يعود سبب وجودهم طوال الثلاثمئة عام التالية، حتى علمتة تنظيمهم. ومصادرة أراضيهم من قبل الحكومات العلمانية المتعاقبة.

طلب منهم «كونراد مازونيا - Conrador Masonia»، حاكم إحدى الإمارات البولونية، حماية أراضيه من الغزاة الوثنيين البروسيين الذين كانوا قد اجتاحوا مناطق خاضعة للحكم المسيحي. وكانت هناك تننظيمات صليبية محلية- «orders» ومنها تنظيم «فرسان أخوة السيف - Knights of the Sword» الذين انضموا لاحقاً إلى الفرسان الـ تيتانيين. بيد أنهم كانوا يفتقرون إلى البسالة العسكرية التي تتفق وحماستهم. (كما لم يكن لديهم ما يكفي من الفضائل المسيحية أيضاً).



حقق الفرسان الـ تيتانيون خلافاً للجيوش المسيحية المحلية، نجاحاً باهراً باستيلائهم. في أواخر القرن الثالث عشر على معظم أراضي الجزء الشرقي من بروسيا، وعلى معظم منطقة البلطيق أيضاً.

وأخيراً، كانت الحملة الصليبية الرئيسة موجهة ضد الـ ليتوانيين، وهم شعب صلب، لم يكن حتى ذلك الحين قد غُزي أو تَنَصّر. وهنا انتصر الفرسان ثانية، لكن ذلك النصر جرّهم حتماً إلى مواجهة مع البولونيين الذين يُفترض نظرياً أنهم حلفاؤهم، فشعر هؤلاء بدورهم أنهم مهددون فعلاً، لأن الفرسان التيتانيين كانوا يعملون بشكل لا لبس فيه على إقامة دولة قوية خاضعة لسلطانهم، ولا تدين بالولاء المملكة بولونيا اعتبرت تلك الحرب في شمال أوروبا ووسطها حرباً صليبية أبدية أو دائمة يقوم بها الفرسان الـ تيتانيون، سادة الأراضي التي استولوا عليها خلافاً لما جرى في فلسطين، فقد شهدت الأراضي المقدسة عدداً محدداً رسمياً من الحملات الصليبية.

وصل في أواخر القرن الرابع عشر محاربون من مختلف أنحاء أوروبا لمساندة الفرسان الـ تيتانيين في حملتهم كان أحدهم الإنكليزي «هنري بوليتغيروك - Henry of Bolingbroken» الذي سيصبح بعد ذلك الملك هنري الرابع سليل أسرة لانكستر.

أخيراً انتهى صراعهم مع الـ ليتوانيين في عام ١٣٨٧. واعتنق الزعيم الليتواني «جاغليو - Jagelio» المسيحية حين تزوج أميرة بولونية. وقد أصبح أعداؤه حينذاك أمة مسيحية. وتضامن الـ ليتوانيون والبولونيون والفرسان الـ تيتانيون في سنة ١٣٩٩ لمحاربة آخر قبيلة ليتوانية بقيت وثنية. ولكن التوتر بين الفرسان وبين زملائهم الكاثوليك في بولونيا استفحل. وكان الفرسان قد هزموا هزيمة ساحقة في عام ١٤١٠ في معركة أطلق عليها اسم معركة «غرانولد - Granwala»، أو معركة «تانينبرغ Tannenberg»... في حين استمر وجود



التنظيم حتى القرن السادس عشر، على الرغم من أن أيام مجده بقيت من الماضي.

قضت حركة الإصلاح الديني عليهم جميعاً، لأن لاهوت لوثر لم يكن ودياً مع تنظيم الفرسان الصليبين وغيره من التنظيمات الأخرى التي تعلمنت في عام ١٥٢٥ عندما أصبح «ألبرت هوهينزولرن - Alrert Hohenzollern» بروتستانتياً، وحين تحول فرع الـ ليفونيان في تنظيم الفرسان الـ تيتان إلى العلمانية عام ١٥٦٢. كانت حملات الشمال الصليبية في نهاية المطاف قد انتهت.

إلا أن العلمنة واكبت اتحاد البروسيين مع إمارة «براندنبورج - Brandenburg» الجرمانية (التي ينتمي «ألبرت هوهينزولرن» إلى أسرتها المالكة)، وتحولت بروسيا، في نهاية المطاف إلى الدولة الجرمانية الأشد بأساً في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والعضو الأكبر أهمية في الإمبراطورية الجرمانية بعد توحيدها في عام ١٨٧١ ومنذ عهد قريب، في عام ١٩٤٥ تمكن البولونيون أخيراً، بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية من المطالبة بجميع الأراضي التي تعود إليهم. وهكذا فإن تراث الفرسان الـ تيتانيين، وما ترتب على غزوات الرهبان المحاربين الألمان ضد الشعوب السلافية من نتائج، استمر إلى أيامنا هذه.

لنتذكر أن جميع الـ ليتوانيين والـ إستوانيين وال لاتفيين، والشعوب الأخرى التي اعتدى عليها الفرسان الـ تيتانيون كانت شعوباً أوروبية. كما كانت حملات الشمال الصليبية حروباً إمبريالية تمت باسم المسيحية، إذ غزا فريق من الأوروبيين فريقاً آخر. ووصلت تداعيات ذلك حتى القرن العشرين.

الحملة الصليبية التالية من حيث الأهمية تسمى الحملة الـ البيجية. وهنا أعتقد أن المعيار الذي اتخذه رائد دراسات الحروب الصليبية «جوناثان ريلي



- سميث» مناسب تماماً. حين يرى أن البابا هو الذي كان يقرر ما إن كانت الحملة صليبية أم لا فلم يكن ثمة أدنى شك في الدعم البابوي للحملات الصليبية التي شنت لتحرير «لونغدوك - Languedoc» من الهراطقة الـ كاثاريين على الرغم من أن الحرب في تلك الحالة لم تكن حرب ألمان ضد ليتوانيين أو إسبان ضد مورو، أو فرسان فرنجة ضد أتراك سلجوقيين، وإنما كان هناك جيش من فرنسيي الشمال، يحارب مواطنين من فرنسيي الجنوب.

أعتقد أن «ريلي - سميث» يصدر حكماً صحيحاً عندما يؤكد أن الحملة الصليبية ضد الـ كاثاريين بدأت بسبب فشل السبل الروحية التقليدية في التنصير عبر التبشير السلمي بالإنجيل فقد أكدت الكنيسة أن «كونت تولوز» تهاون في القضاء على الهراطقة في المناطق الخاضعة لسلطانه، وكانت الحاجة ماسة إلى أن تتولى قوات من الخارج تحرير المنطقة من وباء الهراطقة.

ولذلك أقول بكل بدقة، إن معتقدات الـ كاثارين كما أرى، تنطوي على قدر كبير من الهرطقة يفوق هرطقة «واندال» وديان الألب الذين كانت معتقداتهم اللاهوتية شديدة الشبه بأفكار الإصلاح البروتستانتي الذي انضموا إليه في نهاية المطاف.

الـ كاثارية. في عصر الكلام الفارغ، لديها صحافة ضخمة، كرواية «شيفرة دافينشي» والكتب والمسلسلات التلفزيونية التي تستلهمها، وقد أولت اهتماماً بالغاً لتلك الهرطقة السوداء الشبيهة بممارسات طائفة الـ«بوغوميل - Bogomil» في منطقة البلقان. يجب ألا ننظر إلى الـ كاثارية في ضوء من المحاباة البالغة، (ونستأذن في ذلك من دان براون). لم يقبل المثاليون ورجال النخبة من الـ كاثاريين قطّ شيئاً من قبيل العلاقة الجسدية.

كانوا متطرفين في زهدهم، يحتقرون الجسد وأفعاله، ويصرون على العيش معاً في مستوى يسمو على المستوى السوقي، ومع ذلك. كانوا يقرون بضعف



عامة الناس الذين يحبّون ويتزوجون ويأكلون ويشربون، وينجزون وراء غير ذلك من الأشياء التي تحفل بها الحياة، إذا ما أصبحوا مؤمنين بالحقائق الأبدية. كانت الكاثارية ديانة ثنوية، تؤمن بالهين إله الخير وإله الشر ومدينة كثيراً للديانة الزرادشتية الفارسية التي تعود إلى ما قبل الإسلام.

ولكن يحتمل أيضاً أن تكون الكنيسة الكاثوليكية قد انغمست حقاً في الفساد الفاحش والمحاباة، كما حدث في زمن الإصلاح، وبعد حوالي ثلاثمئة عام. وذلك ما نال من سمعتها بين الأشخاص الذين يتمتعون بحساسية روحية أصيلة، واستعداد للعمل. ولحسن حظ مسيحية القرون الوسطى أن يأتي ما بين حين وآخر، قديسون كبار يتمتعون بقدرة فائقة على الإقناع، لتطهير الأجواء وتجديد القلوب. فالقديس «فرنسيس الأسيزي - Francis of essisi» مثلاً هو الشخصية المرموقة الأبرز في القرون الوسطى، ويمكنني أن أقول، إذا ما أتيح لي، إن ناسكاً متديناً تسمو قيمته عشرات المرات على قيمة أفواج من الفرسان، حين تكون المهمة استعادة الروحانية المفقودة إلى حظيرة الإيمان.

ولكن عمالقة آخرين من عمالقة الإيمان مثل

«برنارد أوف كليرفو - Bernard of Clairvaux».

وبابوات مجددين شجعان مثل «إنوسنت الثالث- Innocent III»، لم يتحلوا بالقدرة على الصبر التي نتمنى، في أيامنا هذه، لو أنهم تحلوا بها.

وهنا نتساءل هل كان شنّ الحروب الصليبية فكرة صائبة...؟ لقد كان الاتجاه السائد، بدءاً من عصر الأنوار في القرن الثامن عشر، يميل إلى الاستخفاف بها فالمؤرخ الأكثر شهرة «سير ستيفن رونسيمان - Sir Steven Runciman» الذي كتب الكثير عن تفاصيلها، لم يتردد في أن يقول في عمله متعدد الأجزاء،



في عقد عام ١٩٥٠ وعلى نحو بالغ الوضوح، إن سائر الناس العاقلين عليهم أن يعتبروا أن الحروب الصليبية كانت خطأً كارثياً.

لذلك فإن مجرد طرح مسألة احتمال أن يكون ثمة من مبرر للحملات الصليبية، يمكن أن يبدو في القرن الحادي والعشرين أمراً غريباً، لأن الجواب الواضح سيكون: لا لا مبرر لها ولكن الأمر الغريب حقاً هو أن كتاباً جادين يدافعون اليوم عن رأي مفاده إن الحروب الصليبية، مع ذلك، كانت فكرة حسنة. من هؤلاء، الكاتب «روبرت سبنسر - Robert Spencer» مؤلف: «الإسلام بلا قناع Islam Unveid» و «الدليل إلى الإسلام غير الصحيح سياسياً - and the Crusadesh politically IncorrectGui to Islam». وكذلك مدير موقع الإنترنت الإلكتروني «JihadWatch» والكاتب البريطاني «دانييل جونسون - Daniel Johnson» في مقال له في مجلة «Commentary».

وما بين حين وآخر يظهر كتاب جدد يؤيدون هذه الفكرة أيضاً، فقد كتب الأكاديمي والكاتب المرموق وأحد المحافظين الجدد «فيكتور دافيس هانسون - Victor Davis Hanson» عن الحروب الصليبية من منظور أشدّ تأييداً، وكذلك فعل المؤرخ «توماس مادن - Thomas Madden» في كتابه تاريخ موجز للحروب الصليبية، وفي مقالات نشرها في صحف مثل «ناشونال رفيو». أما روبرت سبنسر» في كتابه الإسلام بلا قناع، فيرى أن موقفه لا يضاهيه سوى موقف «برنارد لويس».

تُعدّ رغبة الناس بالدفاع عن الغرب أمراً طبيعياً، ولاسيما في زمن انتشار الإرهاب. ويمكن وضع المدافعين عن الحملات الصليبية ضمن تلك الفئة من الناس. ليس هذا وحسب، بل يضاف إلى ذلك أن الحروب الصليبية. كما يذكرنا «دانييل جونسون»، اتخذت مكاناً لها في سياق خلفية الفتوحات



الإسلامية وكما رأينا في الفصل الأخير كانت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع، وليس الحملات الصليبية هي التي بدأت حروباً دينية امتدت قروناً وكان «برنارد لويس»، بلا شك. مصيباً في قوله: إنه حتى سنة ١٦٨٣، حين فشلت المحاولة الثانية للإمبراطورية العثمانية في الاستيلاء على فيينا، كانت الجيوش الإسلامية تمتلك زمام المبادرة العسكرية، بينما كانت البلدان المسيحية تلوذ بالدفاع.

ومع ذلك فإن «روبرت سبنسر» عندما نقل عن «برنارد لويس» قوله: إن الحروب الصليبية كانت رداً، وإن أتى متأخراً، على احتلال القدس فإنه لا ينقل إلينا، كما أعتقد، الصورة الكاملة للحجج التي أوردها «لويس».

(حتى إن أكاديمياً مؤرخاً مثل «توماس مادن - Thomas Madden» قال شيئاً مشابهاً حين اعتبر أن الحروب الصليبية لا تختلف عن حدث تحرير الحلفاء للنورماندي في عام ١٩٤٤ بوسعي أن أفهم رأيه، ولكن موضوع النورماندي حدث بعد أربع سنوات من سقوط فرنسا سنة ١٩٤٠، في حين كان الصليبيون قد استولوا على القدس بعد مدة لا تقل عن ٤٦١ عاماً من استيلاء الغزاة المسلمين عليها).

أما النقطة الحقيقية التي يذكرها «برنارد لويس» ومؤرخون آخرون ويغفلها «روبرت سبنسر» فهي أن الحقيقة الفعلية لفترة الحروب الصليبية ذات شقين.

الأول، إن المعركة الحقيقية آنذاك، لم تكن بين مسلمين ومسيحيين. بقدر ما كانت بين فئتين من المسلمين السنة والشيعة. ففي زمن «صلاح الدين» مثلاً، كانت المعركة بين «صلاح الدين» المؤمن المسلم السني وبين الخلافة الشيعية الإسلامية الفاطمية في القاهرة، وكما رأينا بشكل واضح، فإن صلاح الدين احتل القاهرة أولاً في عام ١٠٦٩ ثم أصبح سلطاناً في عام ١٠٧١ وبعد



ذلك فقط أخذ يهاجم الصليبيين. فاحتل القدس في عام ١٠٨٧ أي بعد ما يقارب ثمانية عشر عاماً. والثاني، إن «برنارد لويس» يشير في كتبه ومقالاته بعد ١١/٩ إلى نقطة مهمة، ألا وهي أن القوة الإسلامية انتصرت في الحروب الصليبية، وأن ما كان يعرف بالأرض المقدسة أصبح، بدءاً من القرن الثالث عشر وحتى القرن العشرين، تحت حكم إسلامي، بشكل متواصل أي طوال ما يزيد على ستة قرون.

إن ما غيّر وجهات النظر الإسلامية، ولاسيما في العالم العربي، كان الغارات الغربية على دار الإسلام طوال ما يتوف على قرنين بدءاً من احتلال نابليون الوجيز لمصر عام ١٧٩٨، واستيلاء فرنسا على الجزائر في عام ١٨٣٠ وما تلى ذلك من خسائر بعض الأراضي، إلى أن انتصر الحلفاء على الإمبراطورية العثمانية في عام ١٩١٨ وكما عرض «دافيد فرومكين - David Fromkirt» في كتابه: «السلام لإنهاء السلام - Peaceto End All Peace»، وعرضت أنا أيضاً في كتابي: «حماقة تشرشل: كيف أنشأ ونستون تشرشل العراق الحديث - Churchill's Folly: How Churchill Created Moder Iran Winston» فنحن في الغرب تقاسمنا الشرق الأوسط بعمل إمبريالي فظ. هكذا كانت أحداث القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وليست أحداث القرن الحادي عشر هي التي شكلت فعلاً، رؤيتنا للحروب الصليبية، نحن جميعاً، غربيين ومسلمين.

وهذا أيضاً كان رأي المؤرخة «كارول هيلينبراند Carole Hillenbrana» الذي تضمنه كتابها: «الحروب الصليبية من منظور إسلامي - The Crusades: Islamic Prespectives»، ورأي مؤرخة القرون الوسطى «هيلين نيكولسون Helen Nicholson» في كتابها: «الحروب الصليبية - The Crusaders» إذ تشير كلتاهما إلى أن أول تاريخ إسلامي للحروب



الصليبية، كتب في القرن التاسع عشر، وكان ترجمة لعمل فرنسي، وأن أول تاريخ إسلامي أصلي لهذه الحروب لم يظهر حتى سنة ١٨٩٩.

إذاً، حين يقول أمين معلوف في كتابه: «الحروب الصليبية كما يراها العرب»: «إن العداء بين المسيحية والإسلام يعود إلى الحروب الصليبية...». فهو - كما تشير «نيكولسون Nicholson» بوضوح مخطئ تماماً. كما سبق وناقشنا في الفصل الأخير، فإن النزاع نشأ فعلاً، في القرن السابع عندما هاجمت الجيوش الإسلامية أراضٍ مسيحية.

ويذكرنا «أندرو هويتكرافت - Andrew Wheatcroft». أيضاً بأن عبارة «صليبي - Crusade» لم تكن موجودة قبل زمن متأخر من القرن السادس عشر، عندما ذكرت عبارة «Croisade» باللغة الفرنسية، وعندما دخلت عبارة «Crusade» كمصطلح في اللغة الإنكليزية أوائل القرن الثامن عشر. ولذلك لم يكن أي صليبي في زمانه يفكر بأنه صليبي، كما يقول «أندرو هويتكروفت» أيضاً، والعبارة التي كانت تستخدم هي «حمل الصليب»، مثلما تترجم إلى اللغة العربية الآن.

ومع ذلك، فإن أحداث القرن العشرين شَوهت تماماً، كما تُذكرنا الحوارات الأكاديمية أيضاً، التاريخ الحقيقي لحقبة الحروب الصليبية، حيث يوجد كثير من الناس في العالم الإسلامي اليوم يرون أن الغرب يتصرف بطريقة صليبية ضد دار الإسلام. وستحلل هذا الوضع بالتفصيل عندما ندرس تفشي الإرهاب الإسلامي ضد الغرب، والطريقة التي يتلاعب فيها أشخاص مثل أسامة بن لادن بالحروب الصليبية من أجل أهداف تعود إلى القرن الحادي والعشرين.

وبما أنني أستطيع أن أدرك ما مصدر آراء أناس مثل: «روبرت سبنسر» و «دانييل جونسون»، وآخرين، أعتقد أنه لمن السخرية أن تكون نظرتهم إلى الحروب الصليبية التي عفا عليها الزمن مثل نظرة المسلمين حالياً، التي تلقى



استياء شديداً. جميعهم يحللون الأحداث التي توالت في القرون الوسطى، في ضوء تاريخ الإرهاب الإسلامي الحالي، والنزاعات الراهنة في الشرق الأوسط.

ومن الأهمية بمكان هنا أن نقول إن أساتذة الجامعات المحافظين. أمثال «مادين» و«هانسون» هم بلا شك على حق من الناحية التاريخية، حين يؤكدون أن الحروب الصليبية لم تكن إمبريالية غربية. لأن مسلمي تلك الحقبة وليس الأوروبيون كما يذكرنا المؤرخ المثير للجدل «أفرائيم كارش» في كتابه: «الإمبريالية الإسلامية»، هم الذين أرادوا إقامة إمبراطوريات، أمثال نور الدين زنكي وصلاح الدين أيضاً.

ولكنني أودّ أن أضيف هنا، إن المسألة لم تكن سهلة أبداً. لم تكن أسباب رغبة الإسلام بالتوسع هي مجرد المنفعة الاقتصادية أو السلطة السياسية - مثلما كانت فعلاً دوافع أوروبيي القرن التاسع عشر بل كانت بالأحرى طموحاً دينياً للتوسع باسم عقيدة يؤمن المسلمون بأنها هي الوحيدة الصحيحة إلا أنني أرى أن إمبريالية القرن الحادي عشر كانت مختلفة جداً عن تلك التي نعرفها اليوم فإذا كنا، كما أعتقد، ينبغي أن تنسب إلى الصليبيين بشكل أساسي دوافع دينية، فيجب علينا أن نعزو إلى الغزاة المسلمين المقاصد نفسها، مهما بلغت درجة اختلافنا مع كلا الطرفين في الوقت الراهن.

لذلك فإننا بحاجة إلى أن تبحث حقبة الحروب الصليبية في ضوء ما كان الناس رجالاً ونساءً. يعتقدون في ذلك الحين، وأن نتذكر أن القرون الوسطى، كما يسميها مسلسل تلفزيوني شعبي مشاهد غريبة». كان الناس فيها مثلنا من نواح عديدة، ولكنهم كانوا أيضاً يفكرون على نحو مختلف تماماً عما يفكر معظمنا اليوم. ما سنكتشفه هو أن الصليبيين أنفسهم، في ضوء ما يرون ليسوا مذنبين بكثير مما يتهمهم به المعاصرون ولكنهم وفق معايير إيمانهم المسيحي والتعاليم المسيحية لتلك الحقبة، كانوا أيضاً بعيدين جداً عن أن يكونوا أبرياء.



باختصار، كلاهما مذنب بما هو متهم به، وكلاهما بريء تماماً، في الوقت ذاته..!

شيء واحد يقوم به المدافعون عن الحروب الصليبية هو تقديم صورة كاملة للحياة في الشرق الأوسط في تلك الحقبة، ولكننا نحتاج أيضاً إلى أن نعرف كيف كان أوروبيو الغرب يفكرون وكيف كانوا يتصرفون لأن ذلك يضع بين أيدينا مفاتيح مهمة تساعدنا على أن نفهم لماذا حدثت الحروب الصليبية. إن أي رواية تاريخية للأحداث جديرة بالاحترام، وينبغي أن نفهم ما الذي كان يجري في الكنيسة الكاثوليكية، ذلك لأن البابا «أوربان الثاني» هو الذي أطلق الدعوة إلى الحروب الصليبية.

يمكنني أن أؤكد في هذا السياق، كما فعل أستاذ التاريخ المرموق في كامبريدج «جوناثان ريلي - سميث»، أن جانباً من دافع «أوربان الثاني» لم يكن له أي علاقة بالإسلام وإنما كانت له صلة وثيقة بالسياسات الداخلية الأوروبية للسلطة البابوية وعلاقتها مع حكام أوروبا العلمانيين في القرن الحادي عشر. نحن بحاجة إلى أن نتذكر. بصورة خاصة الجدال الذي حدث حول «حفل التنصيب» الذي قد يكون. بالنسبة إلينا، غامضاً، إلا أنه كان مصدر نزاعات بين البابوات والأمراء طوال قرون كما كان سبباً رئيساً للإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر.

هذه النظرة للحروب الصليبية التي أتبناها أنا، ويُسميها الآن، بعضُ المؤرخين، مثل «كريستوفر تيرمان- Cristopher Tyerman»، في كتابه: «اختراع الحملات الصليبية- The Invention of the Crusades»، بـ وجهة نظرة «تعددية». (إني لا أتفق، كما سيتضح قريباً، ووجهة النظر «التقليدية» التي تقول إن الحروب الصليبية هي تلك التي شُنت على فلسطين فحسب. يصر «ريلي-سميث»، و«جون فرانس»، وآخرون على أن الحملات الصليبية



جميعها، سواء تلك التي شنت على فلسطين، أو على الألبيجيين، أو على منطقة البلطيق، يجب أن تدرس في سياق التاريخ الأوروبي الذي نشأت في كنفه، وأن تُؤخذ علاقتها بالسلطة البابوية، بعين الاعتبار دائماً).

كانت المشكلة باستمرار تكمن أساساً في تحديد من كان يملك سلطة تعيين أصحاب المراتب الكنسية العليا: الأساقفة، والمطارنة، ورؤساء أديرة الرهبان، والمناصب الأخرى المشابهة. لأن قادة الكنيسة الروحيين، كانوا أيضاً من مُلاك الأراضي الكبار ويتمتعون بسلطة سياسية مرموقة في معظم أنحاء أوروبا الغربية وفي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وغالباً ما كانوا سادة عدد كبير من الدوقيات والإمارات الصغيرة أيضاً.

ولذلك كان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كما كان قادة علمانيون آخرون، كملوك فرنسا وإنكلترا يودون أن يكون بوسعهم تعيين من يريدون في تلك المناصب الكنسية إلا أن دوافعهم، لأنهم علمانيون، غالباً ما كانت أبعد ما تكون عن الغايات الروحية، وكثيراً ما كانوا يمنحون منصباً مهماً في الكنيسة للابن غير الشرعي لملكٍ أو إمبراطور، وفي كثير من الأحيان يكون صِغَرُ سنّ الشخص المعين مثيراً للسخرية وعلى الرغم من أن بعض بابوات القرون الوسطى، مثل البابوات من آل «بورجيا-Borgias»، كانوا منغمسين في الفساد، وكان كثير من البابوات الآخرين أتقياء وإصلاحيين ينشدون كنيسة جديرة بالاحترام تلتزم مبادئ المسيحية، كما وقد وجِد بعض هؤلاء الأتقياء في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكان البابا أوربان الثاني وأسلافه في عداد هؤلاء الذين أرادوا أيضاً أن تكون لهم سلطة تعيين أصحاب المراتب الكنسية، وكذلك اختيارهم من أناس متدينين مرموقين تسمو نوازعهم الدينية على اهتماماتهم السياسية وغني عن القول إن ذلك كان مصدراً كبيراً للنزاع فالاختلاف في إنكلترا بين الملك والبابا حول التنصيب استمر إلى أن تم التوصل إلى اتفاق في عام ١١٧٠، أي بعد اثني عشر عاماً من قيام «أوربان الثاني»



بالدعوة إلى أول حملة صليبية، ما ينطوي على معنى كبير لأن البابا هو الذي دعا إلى عقد مجلس كليرمونت في عام ١٠٩٥ الذي بدأ من خلاله يعد للحملات الصليبية، مهد ذلك الحدث السبيل أمام إمكانية أن يجادل كتاب مرموقون من القرون الوسطى، بأن الحروب الصليبية ليس لها علاقة بالشرق الأوسط، أو بقيام المسيحيين بشنّ حرب على الإسلام، وإنما كانت مجرد وسيلة وجد فيها البابوات سبباً ليمارسوا السلطة، وليس الحكام العلمانيين.

كما لاحظنا، لم تكن كثير من الحملات الصليبية موجهة ضد المسلمين إطلاقاً. فالحملة الألبيجية كانت ضد الهراطقة الكاثاريين في جنوب فرنسا. وهنا نجد أن رغبة البابوية بالقضاء على الهراطقة، ورغبة الملوك بمزيد من السلطة، متماسكتان بشكل محكم: فالبابا كان قادراً بمساعدة تنظيم الرهبان الدومنيكان الجديد، على تخليص أوروبا من بدعة تهدد الكنيسة الكاثوليكية، وكان ملك فرنسا قادراً باختياره قيادات الحملة الصليبية، على استعادة إحكام قبضته على أملاكه، التي أصبحت مستقلة سياسياً لمصلحته.

وفي الواقع، كان ميدان الحملة الصليبية الوحيدة التي يمكن أن تسمى حملة إمبريالية، بالمعنى الحديث للكلمة، في أوربا أيضاً، عندما قاتل ملوكُ ألمان الوثنيين البولنديين، والليتوانيين والليفونيان (ليتولنيا ولاتفيا) في وسط أوروبا، وفي هذه العملية سعوا إلى كسب مزيد من الأراضي لأنفسهم التي استولت عليها مملكة بروسيا الوليدة بعد قرون، ما إن انتصر الإصلاح الديني حتى استقر الألمان هناك، في أراضي الفرسان التوتان، وفرسان أخوة السيف، وعاشوا بأعداد كبيرة، حتى أواسط القرن العشرين، وهزيمة النازيين في الحرب العالمية الثانية.

إن بعض الكتاب محقون في قولهم إننا كثيراً ما نرى الحملات الصليبية في ضوء البروتستانتية ولأنني بروتستانتي، ومؤلف كتبت عن الإصلاح الديني،



يمكنني أن أعي الخطر، لأن تصرفاً كهذا يُعَدّ خطأً تاريخياً عفا عليه الزمن فتعاليم لوثر والذين خلفوه تقول إنه يمكن أن تكون للمسيحيين علاقة مباشرة مع الله، دون وساطة أي إنسان إلا أن العقيدة الكاثوليكية ترى أن الصفح عن الخطايا لا يمكن أن يتم مباشرة، وإنما يحتاج إلى وساطة كاهن كان البابا هو الوسيط الأعلى، ويتمتع بسلطة الصفح عن الخطايا، وبالتالي إلغاء العقاب الإلهي. لهذا اغتنم «أوربان الثاني» وخلفاؤه فرصة الحروب الصليبية للصفح عن خطايا كل من حمل الصليب وانضمّ إلى الحملة الصليبة حيثما كانت الحرب التي تضطلع بها.

تتسم هذه السلطلة التي يتمتع بها البابا الكاثوليكي بالأهمية. إذ لم يكن الذين ذهبوا إلى الأرض المقدسة وحدهم من كانوا ينشدون المغفرة، وإنما الذين حاربوا لتحرير إسبانيا من المورو أيضاً، وكذلك الفرسان الجرمان الذين قاتلوا الوثنيين في ليتوانيا، والنبلاء الفرنسيون الذين ارتكبوا مجازر ذبح الكاثاريين في لانغدوك.

يدلل «أندرو هوايتكروفت» أيضاً في كتابه: «الكفار» على أن مؤمني القرون الوسطى كانت طريقتهم للتعبير عن إيمانهم بطريقة بصرية وليست كتابية. ومحو الأمية الجماعي كان، فضلاً عن إنجازات أخرى، ثمرة الإصلاح الديني. لأن العقيدة البروتستانتية، وفقاً للكتاب المقدس، تعني أن كثيراً من الناس ينبغي أن يتمكنوا من قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم. إن مفهومنا للمسيحية، كدين محوره كتاب، كان لهذا السبب أحدث من الحروب الصليبية، وأتى تاريخياً بعدها. ولعل عامة الناس في القرون الوسطى، كانوا يشعرون -كما يشير «هوايت كروفت» - أنهم يعرفون مدينة القدس أفضل من معرفتهم المدن المجاورة لهم، لذلك فإن كل ما حدث في الأرض المقدسة، كان له صدى عميق في أنفسهم   إن الأعمال الوحشية، والمجازر التي اقترفت ضد الألبيجيين - وجميعهم أوروبيون من ذوي البشرة البيضاء- تدلل بوضوح على



أن الهمجية التي أبداها الغزاة في القدس عام ١٠٩٩ لم تكن موجهة ضد الإسلام بصورة خاصة، تلك كانت أزمنة دموية؛ فالفلاحون الساخون المتمردون، والكاثاريون، والليفونيان، واليهود، غالباً ما كانوا جميعاً، طوال حقبة القرون الوسطى، يُذبحون دون تمييز، بأيدي فرسان الغرب وجنوده, ودون أن تكون ثمة حاجة إلى أي حرب صليبية ومما لا شك فيه أن كثيراً من المسلمين الأبرياء ذُبحوا أيضاً كما كانت أحياناً جيوش المسلمين- كما يُذكّرنا «سبنسر»- تَذبح مسيحيين أبرياء أيضاً وببساطة، كان أي عابر سبيل يمكن أن يلقى حتفه، وليس الأشخاص الذين يدينون بالإسلام فحسب وكما يعلم بعضنا الآن، فإن عدداً كبيراً جداً من حراس الهيكل في ذلك الحين لاقوا حتفهم حرقاً بالنار في الأفران، بأمر من ملك فرنسا لم يكن أحد بمنأى عن أخطار العنف وكان أمراً مفهوماً، كما يبين «ريلي-سميث»، أن الكنيسة الكاثوليكية القلقة من جراء العنف الذي يمارسه الذين يمسكون بالسلطة الزمنية (العلمانيون)، أرادت أن تبحث عن صيغة لتجنب إلحاق الأذى بالأبرياء من السكان، بشن هجمات مشروعة على أعداء الدين المسيحي.

تثير فكرة الحرب المقدسة المسيحية الاشمئزاز في أيامنا هذه، حتى وإن كانت مجرد فكرة. ويذكرنا «برنارد لويس» في كتابه: «الشرق الأوسط»، بأن واحداً من الاختلافات الأساسية بين يسوع ومحمد هو أن المسيح كان قائداً روحانياً خالصاً، وأن مملكته ليست في هذا العالم، إنه أمير السلام؛ في حين كان محمد قائداً عسكرياً وسياسياً، يقود قواته في معارك ضد أعداء دنيويين، كما كان المؤسس الروحي لأحد الأديان التوحيدية الثلاثة في العالم. ليس ذلك وحسب، بل إن نظرية «الحرب العادلة» المسيحية، بدءاً من القديس أغوسطين فصاعداً، تشترط بوضوح، أن الحرب لكي تكون عادلة حقاً، ينبغي أن تكون دفاعية، وأن يكون محرماً بجلاء أن يسقط فيها ضحايا مدنيين أبرياء وأن الهجوم على الأرض المقدسة، أو على الكاثاريين الهراطقة، كان عدواناً،



وقد دُمر في «لانغدوك»، أكثر مما دُمر في فلسطين أيضاً، دُمرت مدن بأسرها بكل ما فيها من نساء وأطفال.

الكنيسة في ذلك الحين، والمدافعون عنها، جادلوا بأن المسيحية كانت تواجه هجوم الإسلام، ولذلك كانت الحملات الصليبية على الأرض المقدسة مشروعة تماماً (ولا يفاجئنا أن المتطرفين المسلمين، أمثال «ابن لادن»، يستخدمون حجة مماثلة، حين يقولون إن الغرب يهاجم الإسلام، سواء حين يساند إسرائيل، أو حين يهاجم بلداً مثل العراق، حتى وإن كانت أسباب الغرب الداعية إلى ذلك علمانية خالصة) ولكن هذا أيضاً لا يمكن الدفاع عنه استناداً إلى عقيدة «الحرب العادلة» لأن العمل وفق هذه العقلية ينطوي على الإصرار على أنه لا يمكن أن يدعو إلى الحرب إلا سلطة شرعية فحسب. فمن كان ذلك الشخص المخول لذلك...؟ الغرب لم يكن حكم فلسطين قط، لأنها حتى سنة ٦٣٠ كانت جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية. والإمبراطور «الكسيوس» هو الذي يملك سلطة شن حرب لتحرير القدس. وهو عندما طلب مساعد الغرب في عام ١٠٩٠، ومن ثم كرر طلب ذلك رسمياً في عام ١٠٩٥، لم يكن قادراً حينذاك، بالتأكيد، على أن يتنبأ بالعواقب: قيام فرسان غرب أوروبا باجتياح أراضٍ بيزنطة، واحتفاظهم بتلك الأراضي بدلاً من إعادة تسليمها إلى أصحابها المسيحيين في القسطنطينية. كان «الكسيوس» قد طلب من البابا مساعدة بيزنطة، وليس إقامة سلسلة من الممالك والإمارات والمقاطعات الخاضعة لسيطرة الفرنجة لو كان «الكسوس» قادراً على القيام بحملة كبيرة بنفسه، لكان صاحب سلطة شرعية حقيقية، له حق التصرف وفق حق الدفاع المشروع، لأن الأتراك السلجوقيين كانوا قد غزوا الأراضي البيزنطية في عام ١٠٦٨ ولكن البابا لم يكن مثل هذا الحق، ولا الصليبيين أيضاً حدث ما يشبه ذلك في أوروبا، ففي زمن مبكر تم كسب وثنيين، حين اعتنقوا المسيحية سلمياً، على أيدي رهبان مدنيين، وراهبات، وآخرين من الناس العاديين غير العدوانيين الذين كانوا يبشرون برسالة المسيحية على النحو الذي بشرت به



الكنيسة المبكرة: ببطء وحرص، وغالباً ما كان ذلك يتم بتكلفة إنسانية باهظة، ومن دون اللجوء إلى أي شكل من أشكال الحرب تم التبشير بهذه الطريقة بنجاح في كثير من أنحاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة -ألمانيا اليوم- بوساطة رهبان بعضهم من إنكلترا، مثل «سانت ويليبرورد - Saint Willibrord»، فلماذا إذن يحتاج المبشرون بعد ذلك إلى الفرسان التوتون، والسيف في متناول اليد، لتحقيق هدف اعتناق المسيحية نفسه، الذي كان أسلافهم توصلوا إليه بوسائل سلمية؟

ألم يتمكن الرهبان الدومينيكان من الاعتماد على قوة الصلاة والإقناع كثيراً، كما فعل الفرنسي سكانيون الذين اتبعوا سبيل اللاعنف اقتداءً بمؤسس الفرنسي سكانية «سان فرانسيسكو»؟ إذ إن الناس في القرن الحادي عشر لم يكونوا على دراية بالبدائل غير العسكرية، فتلك البدائل استخدمت على نحو فعال، من زمن غير بعيد، كما ترسخ في ذاكرتنا ولكن على الرغم من أن «مارتن لوثر» مؤسس البروتستانتية استنكر الحملات الصليبية، واعتبرها خطأ؛ كما أن مسيحيي ما بعد الإصلاح المتأخرين، وعلمانيي القرن الحادي والعشرين، وغربيي ما بعد عصر الأنوار، (وكذلك كثير من المبشرين الورعين الكاثوليك في القرنين السابع والثامن)، توافقوا متحدين جميعاً، على استنكار الحملات الصليبية، وطبيعتها غير المسيحية. ولكن كثيرين من مسيحيي القرن الحادي عشر آمن، في الواقع بالحاجة إلى الحملات الصليبية، وبالطريقة التي جرت فيها.

وبعبارات أخرى، كما يوضح «جوناثان ريلي- سميث» في كتبه المفيدة عن الحروب الصليبية، كان دافع المسيحيين في تلك الحقبة صادقاً، وأصيلاً، وعميقاً دينياً، على الرغم من أنه قد يبدو لنا ذلك عصياً على الفهم في عصرنا اليوم. وإذا أخذنا منظورهم بعين الاعتبار، لكان بوسعنا، على الأقل، أن نفهم لماذا فعل الصليبيون ما فعلوه. فهم لم يتصرفوا وفق أسباب حديثة، وإنما



وفق أسباب دينية، وليس لكسب أراضٍ جديدة وإنما لاستعادة أراضٍ مفقودة من القوات الإسلامية التي شكلت أكبر خطر على الغرب المسيحي، وكانت الشبح الذي أثار هواجس أوروبا، إلى أن أخذ المد ينقلب، في نهاية المطاف، إلى جزر بعد قرون، في فيينا سنة ١٦٨٣، وفي تحرير البلقان البطيء، منذ ذلك الحين وحتى عام ١٩١٣، وهو تاريخ ليس ببعيد جداً، عن أيامنا.

هذا ليس اعتذاراً عن الحروب الصليبية، فهو بعيد جداً عن أن يكون كذلك..! لم يفهم الصليبيون مبادئ دينهم الأساسية، فالمسيحية تستبعد كلياً استخدام القوة المسلحة والسلطة العسكرية للدفاع عن الإنجيل.

لقد رفض المسيح الانقياد إلى السيف الذي احتضنه الصليبيون بشغف. لعل مفارقة الصليبيين الكبرى تكمن في أن خطأهم كان في استخدام الوسائل نفسها التي استخدمها أعداؤهم المسلمون، والانخراط في صيغة مسيحية للجهاد، أو فيما يسمى الحرب المقدسة.

أي في حرب مقدسة ضد الإسلام، الفريق الديني الذي ابتدعها إن الحقيقة غير المريحة في عصرنا بعد ٩/١١، في قرننا الحادي والعشرين الذي يتسم سياسياً بالكياسة، هي أن الحروب الصليبية إذا كانت خطأً- وأنا أقول، كما يقول «لوثر» إنها فعلاً كانت خطأً - فإن جميع الغزوات الإسلامية طوال قرون، التي بدأت سنة ٦٣٢ واستمرت، كما رأينا، ضد أعداء جدد في البلقان وفي أماكن أخرى، كانت خطأً أيضاً إن الحرب المقدسة خطأٌ، سواء أشنها صليبيون أم عثمانيون، وسواء أكانت في القرن الثامن في إسبانيا، أم في القرن الحادي عشر في فلسطين وإذا كنا نتفق مع مسلمي اليوم على أن الحملات الصليبية كانت خطأً مريعاً، فيجب إذن أن نطلب منهم أن يكفّروا عن ذنوبهم المرتكبة في هذا المجال، مثلما أخذ بعض المسلمين المعتدلين يدركون أن ذلك أمر يجب القيام به. ولكننا يمكن أن نقوم بذلك فحسب، إذا ما فهمنا



أنفسنا، وفهمنا كل ما كانت عليه الحروب الصليبية فعلاً، كذلك يجب أن نفهم دوافعها، وأن ندين حماقتها في الوقت ذاته.





٣

القوة الإسلامية العظمى

صعود الإمبراطورية العثمانية وسقوطها

١٣٥٤ - ١٩٢٢

أدى انحطاط الإمبراطورية العثمانية البطيء، وسقوطها في نهاية المطاف، إلى نتائج مباشرة، وأخرى غير مباشرة، هي التالية:

* الحرب العالمية الأولى، ومن ثم، الحرب العالمية الثانية بشكل غير مباشر.

* إنشاء العراق، وبالتالي فوضى المنطقة في القرن الحادي والعشرين.

* إنشاء وطن لليهود في فلسطين، وبالتالي قيام إسرائيل، والنزاع الفلسطيني المستمر .

* إنشاء يوغوسلافيا، ومن ثم ما حدث من مذابح لدى تفككها في العقد الأخير من عام ١٩٩٠.

* إذلال العالم الإسلامي العربي، وما نجم عن ذلك في السنوات الأخيرة، القاعدة، و٩/١١، والحرب على الإرهاب.

الجواب عن هذه الأسئلة كلها هو نفسه: الإمبراطورية العثمانية.

كان للحرب العالمية الأولى أيضاً، بالمعنى الدقيق للكلمة، علاقة بتطلعات الشعوب السلافية للاستقلال، وبانحطاط إمبراطورية النمسا- هنغاريا، التي أحدث سقوطها في عام ١٩٠٨ مباشرة بعد ذلك، فراغاً في وسط أوروبا أدى



بدوره إلى الحرب العالمية الثانية ولكن، لو لم تكن الإمبراطورية العثمانية في حالة انحطاط طوال ما يزيد على قرن، ولو لم تخسر القسم الأكبر من منطقة البلقان في أواخر عام ١٩١٣، لما كان استيلاء إمبراطورية النمسا-هنغاريا على البوسنة والهرسك في عام ١٨٧٨، ولما ضمت تلك المقاطعة رسمياً في عام ١٩٠٨، ولما كانت بالتالي الحرب العالمية الأولى التي بدأت في «ساراجيفو» عاصمة البوسنة فيعام ١٩١٤مع اغتيال ولي عهد التاج النمساوي-المجري الأرشدوق «فرانز فرديناند - Franz Ferdinand» وريث عرش إمبراطورية النمسا-هنغاريا. ولذلك أعتقد أن تحليلي الشامل ما زال سليماً..!

ثمة نزوع في أوساط أوربيي الغرب، إلى الاعتقاد بأن الحرب الدينية ضد الإسلام انتهت بالحروب الصليبية، أما الأوربيون الذين يعيشون في شرق أوروبا وجنوب شرقها، سرعان ما تخلوا عن الوقوع في خطأ كهذا. وهم يعتقدون أن القرون الخمسة الأولى، وأكثر، من معاناة أسلافهم، كانت مجرد بداية معاناة، امتدت منذ توغل العثمانيين الأول في البلقان في عام ١٣٥٤، وحتى التحرير النهائي لشبه الجزيرة من السيطرة الأجنبية في عام ١٩١٣، أي بعد ما لا يقل عن ٥٥٩ عاماً.

ولتبسيط الأمور في هذا الكتاب من الناحية الجغرافية، سوف ألقي نظرة على الإمبراطورية العثمانية من ناحيتين:

أولاً، أقوم هنا في هذا الفصل، بإلقاء نظرة عامة، وثانياً، أبحث في «شعر الإبادة الجماعية»، حين سأفرد فصلاً لتاريخ البلقان، من القرن الثامن عشر فصاعداً، لأن القتال هناك، على الرغم من ارتباطه بالإطار الأوسع للإمبراطورية العثمانية، كانت له، في العقد الأخير من عام ١٩٩٠على يوغوسلافيا السابقة تداعيات يجب معالجتها، تبسيطاً للبحث، بمعزل عن النتائج الأخرى الحالية الناجمة عن سقوط الإمبراطورية العثمانية: إسرائيل، وفلسطين، والحرب



الناجمة عن سقوط الإمبراطورية العثمانية: إسرائيل، وفلسطين، والحرب الراهنة على الإرهاب. ومما لا شك فيه أنه سيكون هناك قدر ضئيل من التداخل، ولكنني أعتقد أن وجود فصلين يتضمنان موضوعات مختلفة هي طريقة أسهل للتعامل مع الموضوع من اتّباع التسلسل الزمني الذي يمكن أن يكون مربكاً وطويلاً.

رأينا في تاريخ الحروب الصليبية المحزن أن «ملاذكرد» كانت إحدى أهم المعارك التاريخية التي هَزَمَ فيها القائد التركي السلجوقي «ألب أرسلان» جيشاً بيزنطاً هزيمة ساحقة في عام ١٠٧١. ولذلك تلقت الإمبراطورية البيزنطية ضربة لم تبرأ منها قط. كما أدت هزيمتها إلى نشوء فراغ في السلطة في الشرق الأوسط، كان من شأنه أن وفّر إمكانية قيام الحملات الصليبية.

انقسمت الإمبراطورية التركية السلجوقية إلى أجزاء متفرقة، وكانت شبه جزيرة الأناضول، في مطلع القرن الرابع عشر، قد جُزّئت إلى عدد كبير من الإمارات التركية الصغيرة التي ينافس بعضها بعضاً على التفوق، وتقاتل أيضاً ضد البقايا المنهكة والمتداعية للإمبراطورية البيزنطية وفي الواقع فإنها لم تسترد عافيتها قط، ولم تنجُ من إلغائها المؤقت على أيدي قوات الحملة الصليبية الرابعة، ومن إنشاء الإمبراطورية اللاتينية التي أقامتها تلك الحملة. وكما حدث بعد سقوط بغداد بأيدي المغول في عام ١٢٥٨، حيث لم تكن هناك أيضاً سلطة إسلامية حاكمة شاملة. كان المماليك حكّام مصر أقوياء أيضاً، ولكن لم تكن تخضع لسلطانهم مساحات شاسعة من الأرض، كالتي كانت تخضع لسلطان العباسيين أو السلجوقيين كانت دويلات الأناضول الصغيرة تُسمى غالباً «بلاد غزو»، وهي مناطق حدود زاخرة بمحاربين أو غزاة طامعين يواصلون حرب الإسلام ضد الآخرين أعداء دينهم وقد احتل أحدهم مكانة مرموقة، وأنشأ إمبراطورية إسلامية قيض لها الاستمرار حتى القرن



العشرين، وأدى تقويضها خلال الحرب العالمية الأولى إلى نتائج ضخمة، انعكست تداعياتها، التي استمرت حتى أيامنا هذه، على حياتنا.

تلك كانت الدولة التي أقامهاالقائد التركي عثمان (١٢٥٨ -١٣٢٦) وخلفاؤه العثمانيون الذين كانوا سلاطين، وغالباً ما أصبحوا بعدئذٍ، منذ عام ١٣٨٩ خلفاء، على الرغم من أنهم لم يكونوا عرباً، بل كانوا أتراكاً لا يتمتعون بامتياز الانتساب إلى سلالة النبي محمد (ص).

يمكن تقسيم تاريخ العثمانيين إلى مرحلتين: الأولى، حين كانوا هم وسلاطينهم في حالة صعود مطّرد، بدءاً من عثمان حتى السلطان سليمان الكبير (أو القانوني) الذي توفي في عام ١٥٦٦ والمرحلة الثانية تأتي بعد ذلك، على الرغم من أن الإمبراطورية نفسها واصلت ازدهارها، كما يقول «جارسون غودوين - Jarson Goodwin» في كتابه الذي لا يقدر بثمن: «أمراء الآفاق - Lords of horizons»، وكما يجادل آخرون، إذ كانت لاتزال هناك إمبراطورية عثمانية قوية، لكنها لم تكن تحظَى بسلطان ذي مستوى مرموق فعلاً يمتاز بالقدرة أو الجدارة، كسلاطين أعضاء السلالة الحاكمة الأوائل.

هذا تاريخ حرب دينية وليس تاريخاً مباشراً للإمبراطورية العثمانية. ولذلك يمكننا أن ننحي جانباً عدداً كبيراً من تفاصيل كتب «برنارد لويس» (ولاسيما كتابه: الشرق الأوسط)، وكتب «آرثر غولد شميث - Arthur Golds chmidt» (بما فيها الطبعة الثامنة الجديدة من كتابه: مختصر تاريخ الشرق الأوسط)، وكتابي الأكثر تواضعاً: موجز تاريخ الشرق الأوسط. فهذه الكتب كلها تقدم تاريخاً دقيقاً لمسيرة تلكالإمبراطورية العظيمة التي كانت، كما يشهد لها هؤلاء الكتاب وكثيرون آخرون، من أعظم الإمبراطوريات وأكثرها نجاحاً في جميع العصور، منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن العشرين.



وكما يذكرنا «جاسون غودوين Jason Goodwin»، فإن «الإمبراطورية العثمانية عاشت من أجل الحرب» وكان للعثمانيين، خلافاً للدول الأوروبية التي كانوا يحتلونها، جيوش دائمة، معظم أفرادها كانوا في الواقع، أطفالاً مختطفين من أسر مسيحية، اعتنقوا الإسلام، وأجبروا على القتال، طوال حياتهم، من أجل أسيادهم الجدد السلاطين. (كانت قوات سلاح الفرسان «سباهي- Spahis»، مختلفة، فهي تتألف من أتراك، رواتبهم أرض تمنح لهم وتسمى «تيمار-Tima»، وتصبح ملكية وراثية).

وكان هؤلاء الجنود يسمون «الإنكشارية-Janissaries». ولم يكن يسمح لهم في القرون الأولى بالزواج ضماناً لولائهم المطلق للسطان وأسرته.

كان الأمر في أوروبا على الضد من ذلك، إذ لم يكن فيها، في تلك الحقبة، ولفترة طويلة قادمة، جيوش دائمة، وكان الملك أو الحاكم غالباً ما يعتمد على زعماء إقطاعيين أغنياء محليين، ولا يستطيع دائماً إكراههم على تقديم أي جيش لمحاربة أعداء الأمة كما كان يصعب التحكم دائماً بمثل ذلك الحشد الإقطاعي، وفي بعض المعارك المعارك الحاسمة، مثل معركة «نيكوبوليس» في عام ١٣٦٩، ومعركة «كوسوفو» في عام ١٣٨٩، ومعركة «فارنا» في عام ١٤٤٤، ومعركة «موهاكس» في عام ١٥٢٦، كان من السهل على الجيوش العثمانية الانضباطية التغلب على قوات الإقطاع والمرتزقة الأوروبيين، حيث الانضباط في أحسن الأحوالكان مزعزعاً، والفرسان الأرستقراطيون اعتادوا أن يتخذوا قرارات كارثية، وفق معايير مستقلة خاصة بهم عندما بدأ العثمانيون سيرتهم كأمة صغيرة «غازية - nationGhazi» كانت بعض أجزاء شبة جزيرة الأناضول لاتزال بأيدي المسيحيين أو البيزنطيين إلا أنهم بدأوا يخسرونها ببطء لكن بالتأكيد، حين أخذ الجنود الأتراك يتقدمون من عدة بلدان مجاورة ويضيقون الخناق على البيزنطيين أكثر فأكثر، تمكن العثمانيون في عام ١٣٢٦



من احتلال مدينة «بورصة - Bursa» التي اتخذوا منها، في ذلك الحين، عاصمة لهم لمدة قصيرة.

كان البيزنطيون في ذلك الحين يحارب بعضهم بعضاً للسيطرة على بقية أجزاء إمبراطوريتهم، وفي الوقت ذاته يشنون الحرب على أعدائهم الخارجيين ليس هذا فحسب، بل إن بعض الشعوب المسيحية الأقوى في البلقان كانت تحلم أيضاً بأن تكون لها إمبراطورياتها، كما كان حال القائد الصربي «ستيفان دوشان - Stephn Dushan»، الذي كان يطمح إلى الاستيلاء على القسطنطينية ذاتها. (سنبحث موضوع الصرب وأقربائهم عرقياً شعب الجبل الأسود في فصل لاحق).

بعد أن استولى «دوشان» (١٣٠٧-١٣٥٥) على القسم الأكبر من البلقان، نصّب نفسه في عام ١٣٤٦ إمبراطوراً على الصرب واليونانين، وتوسعت إمبراطوريته حتى اليونان المعاصرة، ولو عاش مدة أطول، لكان من المحتمل أن يقوم بغزو القسطنطينية. كان تدخله في الشؤون الداخلية للإمبراطورية البيزنطية، كأحد الطامعين في ذلك التاج الآيل للسقوط، سبباً في ارتكابه الخطأ القاتل، حين طلب مساعدة العثمانيين للتخلص من مؤيدي خصمه الصربي. اغتنم القائد العثماني الجديد «أورهان - Orhan»، الفرصة التي وضعها بين يديه ذلك الأحمق، فعبرت قواته التركية في عام ١٣٥٤ مضيق الدردنيل، ووصلت إلى أوروبا وهكذا أسس العثمانيون إمبراطورية استمرت حتى عام ١٩٢٢، كما عززوا وجوداً تركياً في القارة الأوروبية، لايزال قائماً حتى اليوم كان الأتراك بعد ذلك يواصلون صعدوهم، في حين كانت القوى الأخرى في البلقان تتصدع أكثر فأكثر. كان العثمانيون الأوائل مشبعين جميعاً بروح الجهاد والحرب المقدسة، وكانوا من أكثر المحاربين المسلمين نجاحاً في جميع العصور.



احتل العثمانيون في عام ١٣٦١ مدينة «أدرنة - Adrianople» التي تقع على الجانب الأوروبي للبوسفور، وبعد عشر سنوات هزموا إمبراطورية بلغاريا التي كانت تتمتع بالقوة. أتى البلغاريون القدماء من المنطقة الآسيوية نفسها التي أتى منها الأتراك، ولكنهم منذ زمن طويل اندمجوا بالسكان السلاف واعتنقوا المسيحية. ولكن هذه الجماعة القديمة الغازية، غزتها في وقت لاحق جماعة أقوى منها وأشد بأساً.

انهارت إمبراطورية «دوشان» الصربية القوية وتجزأت في عقد عام ١٣٨٠ وما بقي منها كان خاضعاً لحكم الأمير «لازار- Lazar» الذي لم يكن سوى ظل باهت لما كان فيما مضى إمبراطورية هُزم «لازار» وقُتل في معركة «بولجي - Polje» في كوسوفو في عام ١٣٨٩، وكان عزاء المهزومين أن قائد المسلمين مات مقتولاً أيضاً بعد وقت من انتصاره في المعركة بدا أن العثمانيين كانوا على استعداد لمغامرة دخول الأراضي الأوروبية أوقفتهم لاحقاً قوة بدت أشد قسوة، هي قوة تيمورلنك الساحقة، أو أو تيمور الأعرج المعروف باسم تيمورلان يحظى تيمورلنك الذي امتد حكمه ما بين عامي ١٣٦٩ و١٤٠٥ بالتقدير الآن في آسيا الوسطى، بصفته آخر قادتها الفاتحين الكبار، الذي قهر الملايين من الناس واستبدّ بهم وامتد تأثير إمبراطوريته، في مرحلة من المراحل، من مصر إلى شمال الهند، وكانت مدينة مثل سمرقد تُعد نُصُباً تذكارية لنرجسيته وعلى الرغم من أن تيمورلنك ينتمي جزئياً إلى العرق التركي، إلا أن أصوله منغولية ويمكن اعتبار غزواته آخر موجات الغزو المغولي الوحشي الذي أدى إلى قتل عدد لا يحصى من الناس بشكل جماعي، وإلى تدمير مدن بكاملها، ونشر الرعب الذي امتد على نطاق واسع إلى آلاف الأميال. الفارق الوحيد بينه وبين المغول الأصليين هو أنه كان مسلماً، في حين استغرق اعتناق خانات فارس الإسلام وكذلك خانات «القبيلة الذهبية - The Golden Horge» أجيالاً قليلة. وكنتيجة لذلك كانت الحروب التي جرت بين تيمورلنك وخصومه العثمانيين حروباً بين مسلمين. جيش إسلامي يحارب



جيشاً إسلامياً. وهذه الحروب لن نذكرها في إطار دراستنا للحروب الدينية. فهي ببساطة، شهوة خالصة للغزو والسيطرة.

مات تيمورلنك عندما كان في طريقه إلى الصين، محاولاً الاستيلاء عليها. واقعة من شأنها أن تعود بالنفع على العثمانيين، وفق ما أشاع بعض المؤرخين، لأن تيمورلنك لو لم يمت لقضى عليهم ولما تمكنوا قطّ من بناء الإمبراطورية التي بنوها فعلاً وتوالوا على حكمها زمناً طويلاً. ويحتمل أن تكون قد عادت بالنفع على الأوروبيين أيضاً، إذ على الرغم من أن العثمانيين كانوا حقاً إمبرياليين وبناة إمبراطوريات وغزاة، إلا أنهم لم يكونوا هواة ممارسة الشرور والوحشية، كما فعل تيمورلنك، الذي يمكن القول إن العالم لم يعرف لوحشيته وولعه بالقتل مثيلاً، حتى ظهور هتلر في القرن العشرين بعد أكثر من خمسمئة عام. كان العثمانيون سيئين- لأن الإمبريالية خطأ- ولكن لم يكونوا بمثل ذلك السوء.

نجا العثمانيون، إنما بهامش ضيق، من الإعصار الآتي من شرق أراضيهم، إلا أن الحكام اللاحقين للمناطق المتاخمة لحدودهم الشرقية، شكلوا فيما بعد مشكلة لهم، ولكنهم لا يرقون إلى مستوى المشكلة التي شكلتها سلالة تيمورلنك. احتلّ فرع من المغول أقلّ عدوانية، الهند كلها تقريباً، وأبدع صروحاً معمارية مثل «تاج محل»، واستمرت سلطتهم المتنامية حتى القرن التاسع عشر.

كانت الحروب بين العثمانيين وجيرانهم الفرس أيضاً حروباً ضمن الأسرة الإسلامية، بالمعنى الدقيق للكلمة وبينما يعود تاريخ الحدود الحالية بين العراق وإيران إلى عدة قرون مضت، نشبت حروب مستمرة على مدى مئات السنين، بين العثمانيين من جهة، وبين أسر مالكة فارسية مختلفة، من جهة أخرى، أكثرها شهرة وأنجحها كانت حروب الصفويين ما بين عامي ١٥٠١



و١٥٣٦، التي بلغت أوجها في عهد الشاه عباس الأول الذي حكم البلاد بين عامي ١٥٨٧ و١٦٢٩.

إلا أن فارس (إيران اليوم) اعتنقت رسمياً، في ظل حكم الصفويين، المذهب الشيعي للإسلام. وذلك سيؤدي إلى اختلاف كبير. لأن العثمانيين كانوا يعتبرون أنهم حماة الإسلام الأصيل الذي يعارض الهراطقة أو البدعة الشيعية في فارس. وكانت أي بدعة تُعدّ أسوأ من الكفر: الذين ليسوا مسلمين كانوا يجهلون هذه الحقيقة، لكن الهراطقة كانوا يدعون أنهم مسلمون يلتزمون بتعاليم الإسلام، وهم ملزمون بأن يعرفوها على أفضل وجه، ولذلك كان المسلمون العثمانيون السنة يعتبرون أن هرطقة أولئك تُعدّ أمراً بغيضاً، وهم أسوأ من الكفار.

نشأت قبل القرن العاشر أربع مدارس للفقه الإسلامي، وكان المذهب الرسمي العثماني للإسلام السني حنفياً، وما زال يُعمل به في هذا الجزء الإسلامي من العالم حتى اليوم، ويعتبره المفسرون، ضمن الإسلام وخارجه، الأكثر مرونة، والأقل تشدداً من مذاهب التأويل الأربعة للشريعة الإسلامية. كانت الجيوش الإسلامية، بعد أن نجت من تيمورلنك، مستعدة للاستيلاء على القسطنطينية البيزنطية، قلب المسيحية الأورثوذوكسية، وعاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية طوال ما يزيد على أحد عشر قرناً، منذ أن أسسها في القرن الرابع قسطنطين نفسه.

قضى العثمانيون على جيش أوروبي في معركة «فارنا» في عام ١٤٤٤، وبذل ملك هنغاريا في الدقائق الأخيرة جهوداً جبارة لعرقلةتقدم القوات الإسلامية في البلقان المسيحي. وقد قرر محمد الثاني، المعروف بـ«محمد الفاتح» الذي تسنم العرش الإسلامي في عام ١٤٥١، أن يقوم بما حاولت الجيوش الإسلامية عبثاً أن تقوم به منذ ثمانين عاماً، ألا وهو الاستيلاء على القسطنطينية ذاتها.



أصبح الحصار أسطورياً، ولاتزال تكتب كتب عن تفاصيله، ولا داعي للخوض فيها. ولكن يكفي أن نقول الآن، إن الأسوار القديمة المنيعة، والقوات المتعددة التي أتت من «جنوة- إيطاليا» لإنقاذ الإمبراطور البيزنطي أثبتت عجزها أمام الاندفاعة الساحقة للهجوم العثماني. ونجح محمد الفاتح في عام ١٤٥٣ حيث عجز جميع من سبقوه ودخل المدينة بعد استباحتها ثلاثة أيام للنهب والسلب، وجعلها عاصمته الجديدة، ونصّب نفسه سلطان روما: في واقع الأمر نصّب نفسه إمبراطوراً رومانياً مسلماً وهكذا سقط المعقل الأخير للمسيحية المشرقية، لم يسقط بطريقة سهلة، ولكن بسبب حماقة حملة الغربيين الصليبية الرابعة في عام ١٢٠٤ وجشعها، التي أضعفت إلى حد مميت البيزنطيين الأقوياء، وبدءاً من عام ١٤٥٣ قضت عليهم نهائياً وليس أمراً مفاجئاً أن البابا يوحنا بولس الثاني زار اليونان، وشعر أنه لمن الضروري أن يعتذر بسبب حماقة الحملات الصليبية، لأن ضحيتها الحقيقية في نهاية المطاف كانت المسيحية البيزنطية، وليس الحكم الإسلامي للأرض المقدسة.

لا بد من القول، إن العثمانيين كانوا أرحم باليهود من المسيحيين، فمدينة «سالونيك» إحدى أكبر مدن إمبراطوريتهم، أصبحت طوال خمسة قرون، ملجأ لآلاف اليهود من إسبانيا، «يهود إسبانيا - Ladio jewsh»، الذين تمكنوا من العيش سعداء في ظل السيطرة العثمانية، إلا أنهم تعرضوا في القرن العشرين لمذبحة «المحرقة». كان «كورت فالدهايم»الأمين العام للأمم المتحدة (ورئيس النمسا بعد ذلك) واحداً من الشخصيات المهمة المتورطة في تنظيم نقل الضحايا إلى أفران الغاز.

كان المسيحيون في ظل السلطة العثمانية يستطيعون ممارسة شؤون دينهم بحرية تامة، ولكن وضعت أمامهم قيود كثيرة تعيق تقدمهم، فقد كان يتعين عليهم دفع مزيد من الضرائب، كما لم يكن متاحاً لهم شغل كثير من المناصب، ومع ذلك، خضع جميع الرعايا العثمانيين للنظام الملي أما



المسيحيون الأرثوذوكس فقد كان بوسعهم الاستمرار في ممارسة شؤون دينهم، شريطة ألا يحاولوا تنصير المسلمين. اعتنق آلاف المسيحيين الأرثوذوكس والكاثوليك الإسلام في ظل الحكم العثماني، مع ما ترتب على ذلك من نتائج سيئة في القرنين التاسع عشر والعشرين (وهذا ما سنرى تفصيلاً له في الفصل الخامس).

إن بطريرك القسطنطينية الذي كان يقوم في ظل الأباطرة البيزنطيين بدور أشبه ما يكون بدور المدير والمستشار المدني، واصل القيام بمهماته نفسها لدى العثمانيين، لأنه كان يُعتبر الرئيس الشرعي لرعايا السلطان الأرثوذوكس. وكانت مجموعات أخرى تتبع على نحو مشابه، النظام الملي، كالكاثوليك والأرمن واليهود.

كان العثمانيون يمارسون القمع، وكانوا أيضاً مسلمين غزاة استولوا على أراضٍ مسيحية ولكن من المؤكد، أنهم لم يكونوا عنصريين الأمر المهم هو أن يكون المرء مسلماً تقياً، ولم تكن لأصوله أو خلفيته الاثنية أهمية تذكر ولذلك كان اعتناق الأوروبي للإسلام يتيح له تسنم المناصب، جميعها، وكان عدد من «كبار الوزراء -Grand Vizier»- وهو المنصب الثاني في سلم المناصب في الإمبراطورية - من أصل أوروبي وفي الواقع، كان الأمر كذلك مثيراً للجدل بالنسبة إلى العدد الكبير من جنود النخبة والموظفين المدنيين كان نظام «التجنيد العثماني- Dervchime» يتم باختطاف عدد من صغار السن من أسرهم في المناطق المسيحية من الإمبراطورية، وبعد أن يعتنقوا الإسلام، يجبرون على العيش في العاصمة، مركز إدارة الإمبراطورية، أو يشكلون نخبة حرس السلطان، أي فرقة «الانكشارية». وهنا يجب أن نقول إن ذلك النظام كان معمولاً به خلال ثلاثة قرون فقط، وليس طوال حياة الإمبراطورية ولكنه كان نظاماً وحشياً، وكانت له عواقب وخيمة شهدها القرن الثامن عشر، عندما استقلت المناطق التي أتى منها أولئك الفتيان المساكين عاش معظم رعايا



الإمبراطورية المسيحيين بسلام، ولاسيما بعد أن خضع عدد أكبر من المسيحيين للسلطة العثمانية.

ففي عام ١٥١٧ استولت قوات السلطان سليم الأول (المتجهم أو العابس) على مصر وهزمت المماليك. وكان لتلك الواقعة أهمية بالنسبة إلى السلاطين.

وسبق أن رأينا كيف قضى المغول على الخلافة العباسية في عام ١٢٥٨، وبقيت الخلافة موجودة نظرياً في القاهرة، يمثلها خليفة من أصل عباسي، ولكنه مجرد من أي سلطة حقيقية وكان المماليك الحكام الحقيقيين وفي عام ١٥١٧، بعد الاستيلاء على مصر والأراضي التابعة لها، مثل سورية، أصبح السلاطين العثمانيون خلفاء عليها أيضاً، على الرغم من أنهم ليسوا عرباً، ولا يمتون إلى محمد وأسرته بصلة عرقية. لكن ذلك الوضع وفّر لهم مشروعية إسلامية. فالعثمانيون مارسوا من مركز الخلافة، السلطة الفعلية، واستولوا في تلك السنة على أقدس مكانين في الإسلام هما مكة والمدينة، ولقد منحهم ذلك سلطة روحية أيضاً.

(بقي حكام المدينتين المحليون من ذرية النبي، وعاشوا هناك إلى أن طردهم السعوديون في عام ١٩٢٤، وملوك الأردن الآن من سلالة محمد. ولكن الموافقة على تسمية أشراف مكة وتعيينهم، كان يجب أن يتم من قبل السلطان الممسك بزمام السلطة الفعلية)كان عدد كبير من المصريين ما زال مسيحياً، أو قبطياً، كما هو معروف. وإذا كان عددهم قد ارتفع إلى عشرين بالمئة على الأقل، من عدد السكان في القرن العشرين، فيجب أن تكون نسبتهم في تلكالحقبة أكبر من ذلك. نحن ننسى كم من أجزاء الشرق الأوسط لم تتخلَ قطّ عن كونها مسيحية، على الرغم من ألف سنة من الحكم الإسلامي.

كان لايزال هناك مزيد من المسيحيين الخاضعين لسيطرة العثمانيين في عام ١٥٢٦. كانوا من الكاثوليك، معظمهم هنغاريون وكرواتيون. وبقدر ما كان



الإصلاح يتوسع نحو الشرق، كان يزداد عدد البروتستانت منهم أيضاً، ففي تلك السنة هزم جيش مسيحي معظمه من الهنغاريين بقيادة ملك هنغاريا وبولونيا «لاجوس - Lajos» أو لويس، في معركة «موهاكس -Mohacs». ففي ذلك الحين كان سليمان القانوني، أعظم السلاطين العثمانيين، قد تسنم العرش في عام ١٥٢٠ تمكن جزء صغير من هنغاريا، الذي يضم معظم ما يسمى الآن «سلوفاكيا»، من النجاة في معركة «موهاكس»، وخضع لحكم آل هابسبورغ حتى عام ١٩١٨ إلا أن القسم الأكبر من المملكة، بما في ذلك ما هو الآن القسم الأسطوري المغامر، إمارة ترانسلفانيا، كان تحت سيطرة المسلمين، حتى تحرر في العقد الأخير من عام ١٦٩٠.

كان العثمانيون في هنغاريا أشدّ حذراً منهم في بلدان البلقان الأخرى، لم يُدخلوا نظام تجنيد الصغار «Dervshime» ولم يكن هناك صغار كاثوليك مختطفون. وساند العثمانيون بشدة البروتستانتية، ما أدى إلى كسب كثير من الهنغار أيضاً أنصار «كالفن». كان آل هابسبورغ من الكاثوليك المتشددين، وكانوا يطاردون البروتستانت حيث يجدونهم،وقد أدرك العثمانيون ذلك، وفي نهاية المطاف، فدعموا رعاياهم البروتستانت بمنحهم حقوقاً خاصة في هنغاريا. وكان أولئك يفضلون طبعاً ألا يكونوا مطاردين في ظلّ إسلامي، على أن يكونوا عرضة للقتل بلا رحمة على أيدي من يُفترض أنهم إخوانهم المسيحيين الأوروبيينالكاثوليك آل هابسبورغ (لا يتفق جميع ما في الكتاب مع الصورة الوردية التي فرغت من رسمها، ولاسيما «بات يعور - Ba’tYe’or» التي ترسم في كتابها: «انحطاط وضع المسيحيين المشرقيين في ظلّ الحكم الإسلامي- Thedecline of Eastern Christianity under Islam»، حول الإسلام في شرق أوروبا، الأشد إثارة للجدل، «أورابيا -Eurabia»، فهي ترسم في كليهما صورة أشد قتامة لما يعني أن يكون المرء مسيحياً في ظل الشريعة الإسلامية قد تكون المؤلفة على حق فيما يتعلق بالآثار المخيبة للآمال التي يمكن أن يكون الحكم الإسلامي قد خلّفها في أماكن أخرى، كالعراق



الحديث ومصر، حيث كانت المسيحية في كليهما مزدهرة ومفعمة بالحيوية، إلا أنها دخلت في مرحلة انحطاط شديد، ومع تنامي التشدد الإسلامي ازداد الوضع سوءاً في القرن الحادي والعشرين، ما قد يؤدي إلى انقراضها تماماً في بعض أجزاء الشرق الأوسط. لكن المسيحية في بلاد البلقان تمكنت من النجاة، وكان اعتناق الإسلام فيها أقل نسبياً إذا ما قورن بالحال في الشرق الأوسط. ولذلك فإن الوصف الذي تقدمه المؤلفة للذميين، أو المسيحيين، واليهود في ظل الحكم العثماني، كما يبدو لي، كان في الواقع كئيباً جداً) في عام ١٥٢٦، كان يقف جيش إسلامي ضخم أمام بوابات فيينا، التي لم تكن مجرد عاصمة «آل هابسبورغ» وحسب، بل كانت عاصمة إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة تشالز الخامس، أبرز أعضاء سلالة «آل هابسبورغ» الملكية، كما كانت واحدة من أكثر مدن أوروبا رمزية، وأهمها قاطبة.

لو تمكن العثمانيون من الانتصار، لما احتجنا إلى معرفة إلى أي مدى كان بوسعهم بعد ذلك أن يذهبوا يرى «جاسون غودوين -Jason Goodwin» في كتاب له عن العثمانيين، إنهم كانوا يحلمون بالاستيلاء على أوروبا الغربية كلها، لو أن ذلك حدث لكان له، بلا شك، عواقب لا تحصى على بقية تاريخ العالموكان الوضع، كما قال «دوق ويلينغتون - Duke of Wellington» في وصفه الشهير لمعركة واترلو في عام ١٨١٥ كان الهامش ضيقاً جداً وصلت الغارات العثمانية إلى بافاريا -في ألمانيا الآن - وكان سقوط معاقل المسيحية الكاثوليكية أمراً ممكناً ولكن لحسنحظ حرية الغرب فشلت المحاولة العثمانية ونجا وسط أوروبا. إلا أنه كان للتهديد العثماني نتيجة مهمة غير متوقعة، ذلك أن قلقاً مشروعاً كان يراود «آل هابسبورغ» في عهد الإمبراطور «تشارلز الخامس» وخلفائه، مناحتمال أن يقوم العثمانيون بغزو بلادهم مرة أخرى، وينتصروا، وهم لم يتمكنوا قطّ من حشد ما يكفي من القوات داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، للقضاء على البروتستانت إن لوثر الذي يضع الكفاح من أجل بقاء الإصلاح في مقدمة أولوياته يرى أناستيلاء العثمانيين على



هنغاريا، وغزوهم القريب للنمسا لا يمكن أن يحدث في أي وقت أفضل من الوقت الذي حدث فيه   إلا أن أجزاءً أخرى من أوروبا لم يحالفها الحظ فالتقدم العثماني استمر فعلاً، وسقطت في أيدي الغزاة، جزيرة «رودوس» التي كانت، حتى ذلك الحين مقر المعسكر العام لفرسان الهيكل (أو فرسان القديس يوحنا في البلدان البروتستانتية، وفرسان مالطا في البلدان الكاثوليكية، وهو آخر معسكر لم يتمكن العثمانيون من الاستيلاء عليه).

وسقطت بيد الغزاة كذلك جزيرة قبرص ذات الأهمية الإستراتيجية البالغة، التي كانت لاتزال خاضعة لسلطة البندقية، منذ القرن الخامس عشر. (البندقية المدينة التي تجري فيها أحداث مسرحية شكسبير عطيل).

يضاف إلى ذلك، أن السلطان سليمان كان موفقاً في حروبه ضد الفرس. وفي عام ١٥٥٥ كان ما يسمى العراق الآن في أيدي العثمانيين، وتلك واقعة كانت لها عواقب امتدت إلى القرن الحادي والعشرين، لأنها تعني أن ملايين الشيعة الذين كانوا يخضعون لحكومة سنية، يريدون الانعتاق الآن، بعد قرون من الاضطهاد.

عانى العثمانيون أول إخفاق لهم بحلول عام ١٥٧١، أثناء حكم السلطان الذي عُرف تاريخياً باسم سليم السكير (يفترض أن يمتنعالمسلمون عن شرب المسكرات).

كان ذلك في معركة «ليبانتو - Libano» التي استمدت شهرتها من «ميجيل دي سرفانتس» مؤلف رواية دون كيخوته، الذي كان أحد بحارة الجانب المسيحي، وكان قائد السفن الأوروبية «دون خوان دي اوستريا»،وهو ابن الملك «تشارلز الخامس» غير الشرعي. حققت معركة ليبانتو في شرق البحر الأبيض المتوسط انتصاراً بحرياً مهماً للغرب، على الرغم من أنها، لسوء الطالع، تأخرت كثيراً في إنقاذ قبرص من الغزو. (فإسبانياخلال حكم الملك



«فيليب الثاني» الشهير، لم تتمكن من أن تقرر ما إن كان يرغب، أو لا يرغب، في مساعدة البندقية التي كانت أكبر خصوم إسبانيا اقتصادياً).

إلا أن معركة «ليبانتو»، في الواقع، كانت مجرد نصر أجوف، فالغرب لم يفعل شيئاً على الإطلاق لاستغلال نتائج نصره. وسقطت بعد ذلك مناطق أخرى في شرق البحر الأبيض المتوسط في أيدي العثمانيين، بما فيها «كريت». وفي غضون سنوات قليلة من هزيمتها، تمكنت الدولة العثمانية من إعادة بناء القوة البحرية، لتصبح قادرة على صد أي هجوم غربي مسيحي على أراضيها.

كما تمكنت الجيوش العثمانية في عام ١٥٧٤ من النجاح في استرداد تونس من أيدي فرع «آل هابسبورغ» الإسباني (الذي كان يحكم أيضاً مملكة نابولي التي كانت تضم مناطق من جنوب إيطاليا ومرسيليا حالياً) ومنذ عام ١٤٩٢ وما بعدها، كان ثمة حلم باهت يراود الأوساط الإسبانية دائماً -وأوساط كثير من الكاثوليك بصورة عامة - بأنهم ما إن يستردوا الأراضي الإسبانية من أيدي «المورو» الغرباء، حتى يكون شمال إفريقيا قد عاد إلى المسيحية أيضاً. وينبغي ألا ننسى أن الأب الأكبر للكنيسة في أزمنة المسيحية المبكرة القديس «أغوسطين» كان من «البربر»، وأن تونس ومصر الآن، كانتا حينذاك في موقع قلب تلك المسيحية المبكرة. قام «تشارلز الخامس» في عقد العام ١٥٣٠ بمحاولة غزو متواضعة، وكان يأمل النجاح، ولكن النصر العثماني وضع حداً لطموحه. وبقي شمال إفريقيا خاضعاً لحكم العثمانيين وضمن دار الإسلام، حتى الغزوات الأوروبية، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

نجح العثمانيون أيضاً في مناطق حدودهم الشرقية، وأحرزوا انتصارات مهمة على الفرس في عقد سنة ١٥٨٠، توجت بمعاهدة العام ١٥٩٠. ويؤكد بعض المؤرخين أن الإمبراطورية العثمانية بدأت تضعف بعد موت السلطان سليمان الكبير عام ١٥٦٦. ولكن العثمانيين، كما رأينا، حققوا انتصارات عديدة بعد



ذلك التاريخ، وواصلوا تقدمهم طوال القرن السابع عشر أرى، أنا على الأقل، أنه على الرغم من أن أحداً من خلفاء السلطان سليمان الكبير المباشرين، لم يتمكن من بلوغ ما بلغه من رفعة أثناء حكمه، بمن فيهمسليم السكير، ولكن لا يمكن للمرء أن يقول إن إمبراطورية كانت تمر في حالة تدهور في الوقت الذي تتوسع فيه حدودها باستمرار أقول هذا لأنه يصعب ألا أتفق و«آرثر غولدشميدت» حين يؤكد في كتابه: «مختصر تاريخ الشرق الأوسط» أن سلاطينما بعد عام ١٥٦٦ لا يمكن أن يقارنوا بالسلاطين العشرة الأوائل.

نشبت في البلقان ما بين عامي ١٥٩٣ و١٦٠٦ حرب ضروس بين «آل هابسبورغ» من جهة، والعثمانيين من جهة أخرى.

(أيّد الفرنسيون تقليدياً العثمانيين، على قاعدة «عدو عدوي صديقي» ولكن في تلك الحرب، وقبل بضع سنوات من نشوبها، كان الإنكليز يزودونهم بمواد لصنع الأسلحة، بما في ذلك معادن مستخرجة من أجراس، كانت في أيام مضت، تقرع في كنائس كاثوليكية، وهي الآن، بعد أن أصبحت بريطانيا بروتستانتية لم تعد بحاجة إليها) كانت حرب الحدود هذه تتأرجح ما بين مد وجزر: أحد الأطراف ينتصر حيناً، وينتصر الخصم حيناً آخر، وما ساعد على وقفها، وضمان ألا يخرج العثمانيون منها مهزومين - على الرغم من أنه لا يمكن القول إنهم خرجوا منها منتصرين أيضاً- هو تعصب «آل هابسبورغ» الديني، الذين كانوا حينذاك، وفق حساباتهم، ملوك هنغاريا وحكام النمسا والسلطة العليا للإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان أمراء ترانسلفانيا البروتستانت مترددين لا يعرفون من يتعين عليهم أن يؤيدوا: شخصاً مسيحياً، ولكنه كاثوليكي ومن مؤيدي الملكية المطلقة، أو سلطاناً عثمانياً تركياً مسلماً، ولكنه منح المسيحيين البروتستانت الحرية الدينية التامة، ومنح أتباعهم فلاحي ترانسلفانيا وهنغاريا استقلالاً ذاتياً واسعاً.



اختار الأمراء، في نهاية المطاف، الحرية الدينية والاستقلال السياسي، وساندوا أسيادهم السلاطين العثمانيين.

وفي عام ١٦٠٦، عقد «آل هابسبورغ» اتفاقاً مع العثمانيين، في جزيرة من جزر الدانوب تسمى اليوم «سيتفاتوروك - Sitvatorok» إذ (حقق العثمانيون بعض المكاسب على الأرض) وصف فينيسياني معاصر الثلاثة عشر عاماً من تلك الحرب بأنها كانت «مسلخاً بشرياً»، وكانت، وفق مختلف الحسابات تتسم بالوحشية لذلك فهي لم تتوقف بقرار اتخذه أمراء ترانسلفانيا، وإنما أملته حقيقة أن العثمانيين كانوا يواجهون أيضاً، بدءاً من عام ١٦٠٣ حملة عسكرية على حدودهم الشرقية ضد إمبراطورية الصفويين الوليدة بقيادة الشاه عباس الأول، وتعين عليهم أن يتخلوا عن الجزء الأكبر من الأراضي التي استولوا عليها في عقد سنة ١٥٨٠ وعقد عام ١٥٩٠ على الرغم من أن الفرس أجبروا بدورهم بعد ذلك على أن يخسروها في أعقاب سقوط الصفويين بعد عام ١٧٣٦.

أولى «برنارد لويس» وكتّاب آخرون معاهدة «سيتفاتوروك» أهمية كبيرة، على الرغم من أن نتيجة الحرب بين الطرفين كانت التعادل. تلك كانت أول مرة يعترف فيها سلطان عثماني بملك غربي كندٍ أو نظيرٍ له، هو عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة. كما لم يعد يُنظر إلى المسيحي ككائن أدنى بل كمساوٍ ونظيرٍ.

ولما كان هذا الكتاب معنياً بتاريخ الحروب الدينية، وليس بتاريخ الشرق الأوسط، فينبغي ألا ننشغل بدراسة محاولات مختلف السلاطين العثمانيين في القرن الثامن عشر إصلاح إمبراطوريتهم، وجعلها مكاناً أكثر قابلية للحكم. يكفي أن نسجل هنا أن عقد عام ١٦٨٠ شهد كثيراً من الإصلاحات، وأن كبار وزراء الصدر الأعظم حققوا الكثير في مجال تطهيرأجهزة الدولة. أخذت



الجيوش العثمانية تحاول في عام ١٦٢٨ التحرك مرة أخرى للاستيلاء على فيينا والقضاء على «آل هابسبورغ» مرة واحدة وإلى الأبد.

إلا أن العثمانيين في ذلك الحين كانوا يواجهون عدواً أقوى من ذي قبل كان «آل هابسبورغ» قد أقاموا ما سُمي «بالحدود العسكرية» التي كانت في الأصل منطقة كرواتية «عرقياً»، ولكن «آل هابسبورغ» أسكنوا فيها قوات زودوها بأفضل الأسلحة لحماية أراضيهم من غزو عثماني آخر وكان عدد كبير من المحاربين في منطقة الحدود من الصرب، وبالتالي هم من الأرثوذوكس حكماً، وذلك أمر كان سيترتب عليه نتائج خطيرة تتعلق بالشكل الوحشي الذي اتخذته حروب البلقان في العقد الأخير من العام ١٩٩٠. وعندما وصل العثمانيون، كانت الحدود العسكريةفي ذلك اليوم على أهبة الاستعداد في منطقة «كراجينا -Krajina» في صربيا، التي كانت في ذلك اليوم منطقة حدود ضد الغزاة التتار المسلمين.

ولكن القوات التركية في عام ١٦٣٨ وصلت إلى فيينا. فهربالإمبراطور مذعوراً، واستعد القائد النمساوي الأمير «ستارهمبرغ - Starhemberg» للحصار. وبدا، لبعض الوقت، أن الهزيمة أمر لا مفرّ منه، وأن وسط أوروبا سيسقط في أيدي العثمانيين، في نهاية المطاف.

(إن حبّ النمساويين للقهوة، وشغف الفرنسيين بـ«الكرواسان»، تأتيا كلاهما من ذلك الحصار. فكلمة «كرواسان» هي الكلمة الفرنسية التي تعني الهلال، وهو رمز العثمانيين المسلمين: وهكذا يمكن أحياناً أن تبرز بغتة أمور صغيرة من الأحداث الكبرى).

كان يبدو أن كل شيء آيل إلى الضياع، إلى أن أتى جيش بولوني للإنقاذ، بقيادة ملك البلاد «جان أو جوان سوبيسكي -Jan orJohn Sobieski». فهُزم العثمانيون ورفع الحصار، ومرة أخرى نجت أوروبا الكاثوليكية، وربما أوروبا



كلها من غزوة إسلامية وسرعان ما كان النمساويون سيحظون بواحد من أهم القادة العسكريين في تاريخهم، ألا وهو الأمير «يوجين أوف سافوي - Eugene of Savoy» معاصر الجنرال البريطاني الشهير «جون تشرشيل» دوق مارلبورو (وأحياناً شريكه في القيادة)، وهو جد سلف ونستون تشرشيل والأميرة ديانا (وبالتالي الأمير وليم وملوك بريطانيا في المستقبل). واتفق كلاهما على تقاسم السلطة. كان «يوجين» مواطناً فيما يسمى اليوم إيطاليا، ولكنه كان، في ذلك الحين، أميراً من فرع صغير من «آل سافوي»، الأسرة الحاكمة، وتمكن ما بين سنة ١٦٨٣ عام ١٦٩٩، بعد سلسلة من الحملات العسكرية البارزة من إجبار العثمانيين على التقهقر، كما تمكن من تحرير هنغاريا من حكم المسلمين كانت معاهدة «كورلويتز - Carlowitz» في عام ١٦٩٩ تمثل أول هزيمة كبرى للعثمانيين الذين اعترفوا بخسارة مساحات واسعة من أراضيهم التي استولت عليها قوات «آل هابسبورغ»، وكانت تلك، في جميع الأحوال، فاجعة كبرى لم تتمكن الإمبراطورية العثمانية من استعادة عافيتها منها قط.

هذه فعلاً أطروحة «برنارد لويس» أشهر من اهتم من المؤرخين بهذا الموضوع، وهو بريطاني المولد، يهودي الديانة، قضى أطول مدة من حياته الأكاديمية في جامعة «بريستون» عادة ما ينبغي ألا تؤخذ خلفية المؤرخ بعين الاعتبار، مهما كانت أهميتها، فوالدي مثلاً إسكتلندي -أيرلندي، وأمي من ويلز، وزوجتي من فرجينيا (ويخالط دمها قليل من دم قبيلة تشاكوا)، وأنا أصلي مع جماعة المصلين في كنيسة إنكلترا في كمبريدج.

إلا أن ماذكرته آنفاً عن «برنارد لويس» وآرائه حول تدهور الإمبراطورية العثمانية، له أهمية لدى بعض الناس، وأعتقد أنه لمن المفيد أن نبتعد قليلاً عن ترتيبنا الزمني للأحداث، لأن مناقشات كتابات لويس تجاوزت نطاق الكليات الجامعية، وأصبحت في متناول الجمهور.



تدهور الإمبراطورية العثمانية وقضايا أخرى   ثمة مشكلة كبرى بين بعض الكتّاب، والنقّاد، وكتّاب الأعمدة، من جهة؛ وبين كل من يتفق وجوهر الأطروحة التي سبق أن أشرت إليها منذ قليل، لأن «برنارد لويس»، على وجه التحديد، يؤيدها وهو المؤرخ الذي أصبحت آراؤه في السنوات الأخيرة عرضة بانتظام لاستنكار مثقفين اتسموا بالاستقامة سياسياً، ومن أحد رواد اليسار الليبرالي الراحل «إدوارد سعيد». ليس هناك من سبب يدعو إلى أن تكون هذه القضايا - تحليل سياسة القرن الحادي والعشرين والاعتبارات المتعلقة بالقرن السابع عشر الماضي- مترابطة، ولكن من المؤسف أن هذا ما يحدث ولهذا، بينما أحاول أن أتجنب دراسة كيف يدرس التاريخ «Historiography»، بدلاً من دراسة ما جرى فعلاً، فإنه لمن الضروري القيام بذلك هنا، طالما أصبحت مسألة تدهور الحضارة العثمانية مثار اختلاف شديد، لأسباب ليس لها في الواقع أي علاقة بالأحداث ذاتها، ولكن لها علاقة بالموقف الذي يتخذه كل منا، من القضايا المثيرة للنزاع اليوم، ومن الحروب الثقافية المحتدمة في الولايات المتحدة الأميركية بشكل عام. إن أولئك الذين يشعرون بأن هذا الموضوع أصبح مملاً، أنصحهم بأن يضربوا صفحاً عنه، وأن ينتقلوا إلى الفصل التالي. وأما الذين يجدون أن هذه المناقشات مهمة، فأرجو منهم قراءة ما يلي بإمعان، لأنني أومن إيماناً جازماً بأن هذه القضايا، مع الأسف الشديد، متشابكة جداً، ويجب الفصل بينها فصلاً تاماً، حرصاً على تسهيل فهم تاريخنا.

مناظرة الاستشراق

من كان في حالة تدهور.. ولماذا؟



لو أن «جورج الثالث» أو «بنديكت أرنولد»*، قال أثناء حرب استقلال الولايات المتحدة الأميريكية أن مجموع اثنين واثنين يساوي أربعة، هل يمكن أن يعني ذلك أن أجيالاً من الوطنيين الأمريكيين، بعد ذلك، يمكن أن يتمسكوا بأن مجموع اثنين واثنين، يساوي في الواقع خمسة، لأن أعداء حرية الجمهورية الفتية سبق أن قرروا أن حاصل الرقمين المجموعين يساوي أربعة..؟ الجواب بكل وضوح، لا..! لأن مجموع اثنين واثنين يساوي أربعة، بصرف النظر عمن يعلن ذلك أو يخالفه.

لا يسعني إلا أن أشعر بأن المبدأ نفسه ينطبق على سقوط الإمبراطورية العثمانية، وعلى التأثيرات المؤلمة التي نشهدها اليوم للتدهور البطيء، ومن ثم الاندثار اللاحق، لتلك الإمبراطورية. وسواء وافق المرء على حجج المثقف إدوارد سعيد حول القضية الفلسطينية في وقتنا الحاضر، أو كان مع نقاد الرئيس بوش الذين لا حصر لهم، حول حرب العراق ونتائجها الكارثية، فذلك لا يعني رفض ما حدث في الماضي لأن مؤيد فكرة تدهور القوة العثمانية بدءاً من العام ١٦٨٣(أ) يهودي و(ب) والمستشار «ديك تشيني» ونائب الرئيس للقضايا السياسية التي لها علاقة بالعراق («تشيني» أتى من واشنطن للمشاركة في الاحتفال الذي أقيم في «برينستون» في عام ٢٠٠٥ بمناسبة بلوغ «برنارد لويس» تسعين عاماً من عمره هكذا كان التبجيل الذي حظي به البروفسور من معجبيه).

وسواء أكان العثمانيون بعد سنة ١٦٨٣ في حالة تدهور أم لم يكونوا، فما يرتدي أهمية بالنسبة إلي هو ما تقوله البيّنة التاريخية، بصرف النظر عما إذا

* - الملك جورج الثالث (١٧٣٨-١٨٢٠): كان مللك بريطانيا وملك أيرلندة في العام ١٧٦٠، إلى أن اتحد البلدان في العام ١٨٠١ فأصبح ملك «المملكة المتحدة» حتى وفاته أما بنديكت أرنولد (١٧٤١-١٨٠١) فهو ضابط في الجيش البريطاني ولد في الولايات المتحدة الأمريكية، كان قائد الفيلق الأمريكي في أواخر حرب الاستقلال الأمريكية. (المترجم)



كان «برنارد لويس» على حق في نصيحته لإدارة «بوش» في عام ٢٠٠٣ أو لم يكن.

كان لدي تحفظات خطيرة على ذهاب الولايات المتحدة في سنة ٢٠٠٣ إلى الحرب في العراق لأنه: (أولاً) لم يكن لدينا تفويض من الأمم المتحدة للقيام بذلك، (وثانياً) لأننا ذهبنا إليها بقوات قليلة جداً، ما أدى إلى خسائر في الأرواح للولايات المتحدة وللمملكة المتحدة، ومن ثم انزلاق العراق إلى حرب أهلية (وثالثاً) لأن الحرب يمكن أن تؤدي إلى تصعيد كبير للإرهاب ضد الغرب، وهو ما يحدث الآن، (ورابعاً) لأن الحرب ستزيد من قوة إيران، وهذا ما حدث الآن أيضاً. إن كثيراً من هذه الاستنتاجات كانت جزءاً من ورقة كنت قد كتبتها في نيسان سنة (٢٠٠٢). كانت النتائج واضحة قبل أن تبدأ الحرب.

عندما شعدت بلقاء «برنارد لويس» في عام ٢٠٠٥، وناقشت هذة القضايا معه في «برينستون» تمكنت من أن أرى قضيته التي تنتمي إلى عالم مثالي بدا رائعاً حقاً، حيث تسود الحرية والديموقراطية في الشرق الأوسط، كما تمكنت من أن أشعر في الوقت ذاته بأنني قلزم فكرياً بأن أرفضها لأن الحقيقة، وأهداف الغرب المأساوية المحددة جيداً عن سابق تصور وتصميم، لن يقدّر لهما أبداً، مع الأسف الشديد. أن يجتمعا معاً.

ولكنني مازلت أؤيد نظريته عن تدهور الإمبراطورية العثمانية، وما أسفرت عنه من نتائج كارثية، طالما ظلت القضية الفكرية التي يطرحها حاسمة وساحقة بالنسبة إلي «برنارد لويس» والكاتب البريطاني «روبرت أيروين - Robert Irwin» (في كتابه عن المناظرة) كلاهما هدم قضية إدوارد سعيد ضد الاستشراق، ومع ذلك فإنني يمكن أن أتعاطف كثيراً مع ناشطي السلام الإسرائيليين والفلسطينيين الذين تلت شرف معرفتهم.



إن أحد النقاط الأكثر تداولاً في كتب «إدوارد لويس» مثل كتاب: «ما الخطأ؟ - What Went Wrong?». وكتاب: «أزمة الإسلام- The Crises if Islam» هي أن الإمبراطورية العثمانية فقدت ببساطة الاهتمام بالعالم الخارجي، كما فقدت القدرة على المحافظة على التنافس في عالم يتغير بسرعة شديدة. وسوف نعود إلى هذا الموضوع حين تنظر في تدهور الإمبراطورية العثمانية.





٤

ملك واحد، قانون واحد،

إيمان واحد

عندما أقدم كاهن من جامعة مغمورة في منطقة غابات نائية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة - في ناحية تدعى الآن ساكسونيا على تثبيت ورقة بحث أكاديمي على باب الكاتدرائية في عام ١٥١٧ لم يكن قد تصوّر قط، أنه سيغيّر مجرى التاريخ كله، ويكرس إلى الأبد. انشقاق مسيحية القرون الوسطى إلى فريقين ويغرق أوروبا، كنتيجة غير مباشرة لذلك، في حرب أهلية دينية دموية لا مثيل لها، طيلة ما يزيد على مئة وثلاثين عاماً.

كان «مارتين لوثر». الرجل المبادر إلى الإصلاح، هو ذلك الكاهن المغمور الذي سقر بنود أطروحاته التاريخية الخمسة والتسعين على باب كاتدرائية «ويتنبرغ - Wittenberg» في منطقة ساكسونيا الانتخابية المزدهرة، ولكنها لم تحرز مكانة متقدمة على مستوى عالمي ثقافياً في وقت مبكر في أوروبا الحديثة، إلا أنه دون أن يدري، أسس البروتستانتية، وأنهى بذلك ألف عام من احتكار البابوية للحياة الروحية في أوروبا، وشطر إلى الأبد، المسيحية الغربية إلى طائفتين.

كما أطلق أيضاً العنان للحروب الدينية الأوروبية الكاثوليك يحاربون البروتستانت، في صراع استمر حتى نهاية حرب الثلاثين عاماً، داخل ألمانيا، وبعد ذلك، في أوروبا كلها، وقد انتهت بتوقيع معاهدة «ويستفاليا - Westphalia» في عام ١٦٤٨، إذ بدأ ما يعتبره معظم علماء السياسة الآن. النظام الدولي الحالي للدولة.



والآن بعد أن أصبحنا ندرك بشكل خاص كل ما يتعلق بالقضايا الإسلامية، فإننا نعي جيداً، أو ربما كان يجب أن نعي. إذا لم نكن قد وعينا من قبل الاختلاف الداخلي في الإسلام وتباين وجهات النظر بين السنة والشيعة ومعنى معركة كربلاء في سنة ٦٨٠, وانقسام الإسلام الذي مضى عليه أكثر من ألف وثلاثمئة عام.

ولكننا ننسى في هذه الأيام، أن البروتستانت والكاثوليك كانوا طيلة أكثر من قرن في حالة حرب دينية صرفة بالمعنى الحرفي للكلمة حرب مستعرة انتشرت جيوشها في جميع أنحاء أوروبا. في ذلك الحين عانت دول كبرى -مثل فرنسا- طيلة عقود من حرب أهلية عاشت في خضمها أجيال أسر بأكملها مذعورة خوفاً من وصول الجنود فجأة إلى القرية وقتل جميع سكانها.

ذلك صحيح كله، ولكننا في كتاب موضوعه الحروب الدينية، لا يمكن أن ننسى أن فريقاً من الذين يعتنقون المسيحية. كان خلال فترة طويلة من الزمن، يشنّ حرباً على فريق مسيحي آخر، باسم الطائفة المسيحية التي يؤمن بها دون سواها. فضلاً عن ذلك، إذا تجرأ أحد على أن يكون مسيحياً مختلفاً تماماً، ولنقل مثلاً أنه من طائفة «تجديد العماد - Anabaptist»، فمن المحتمل جداً أن تطارده السلطة الدينية العليا سواء البروتستانتية أو الكاثوليكية، ويمكن أن ينتهى به الأمر إلى أن يُقتل في أي مكان في أوروبا يسعي إلى اللجوء إليه.

ليس أمراً مفاجئاً أن يكتب «توماس هوبس - Thomas Hobbes» - وهو أحد أهم المعلقين السياسيين في عصره - واصفاً الحياة في السطور الأولى من كتابه «ليفياتان - Leviathan» بأنها «مزعجة وقاسية وقصيرة». لم تكن تلك أيام موبوءة بالمرض وحسب، وإنما مليئة أيضاً بحروب أهلية تلقي بثقلها على السكان المدنيين إلى درجة لا تطاق. لأن كثيراً من الجيوش كانت تعيش



على ما تنتجه الأرض. وكان أمراً ممكناً جداً أن يلقى الناس حتفهم غيلة، أو أن يموتوا جوعاً. وكان حيّز توقع البقاء على قيد الحياة ضيقاً جداً، بسبب شدة العنف. كما جعل الخوف الدائم الحياة بهيمية في القارة كلها، كان «هوبس» محقاً، ووصف بدقة العالم المريـع الذي عاش فيه، وكتب فيه أعماله.

إن قضية الهوية أصبحت إحدى القضايا الحاسمة في أوروبا، ولكن بطريقة مختلفة عن زمننا الحاضر. إذ ما زالت موضوعاً حيوياً. إن أحد الألغاز المحيرة اليوم هو لماذا يتحول شباب متعلمون ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الميسورة ولهم أُسر أحياناً، إلى إرهابيين مسلمين. يُقتلون ويَقتلون عدداً لا يحصى من الناس حين يفجرون أنفسهم. أخذت الهوية بأبسط اشكالها تتضح كقضية منذ القرن السادس عشر. حين بدأ سكان أوروبا الغربية لأول مرة يجدون أن بامكانهم اختيار ما يؤمنون به، وأين يعيشون، وماذا يفعلون.

ننظر اليوم إلى إمكانية وجود أنواع مختلفة من الهوية كأمر مُسَلَم به إذ يمكننا أن نختار من سنصبح في المستقبل بطريقة كان من غير الممكن تصورها في عالم الأجيال السابقة الأكثر تنظيماً، حين كانت فيه حياة المرء تمضي قدماً، كما تُحدد منذ ولادته.

ولذلك فإننا نرى هذا الوضع كله أمراً مسلماً به، وننسى عادة ما ينطوي عليه. دعونا نلقي نظرة على بعض التركيبات المتخيلة، لكي نرى كيف تعمل كلها في قرننا الحادي والعشرين الملتبس شديد التفتت. والحداثي للغاية، وذلك قبل العودة إلى المشاهد الأكثر بساطة في أوروبا الحديثة المبكرة.

(أقوم هنا بتكييف النموذج الرائع الذي استهل به المؤرخ البريطاني والخبير في شؤون شرق أوروبا ووسطها وغربها «نورمان ديفيس - Norman Davis» كتابه، «الجُزر - The Isle»، وكذلك نموذج «ديفيس» الذي قمت بتكييفه



قبل ذلك في طبعة كتابي «لماذا تغضب الأمم Why The - Nations Rage» في العام ٢٠٠٢).

تأخذ على سبيل المثال طالبين - كلاهما متخيل يواظبان على الدراسة في قسم التاريخ نفسه في جامعة «بوترايت - Boatwrighy» في فرجينيا.

أحدهما، أحمد متخصص في التاريخ ولد وترعرع في ناحية «فيرفاكس كانتري Fairfax - Country» حيث يوجد عدد كبير من الأسر المسلمة. ولأنه مواطن «فرجيني» فعلاً، لم يكن مضطراً إلى الخروج من ولايته لمتابعة دروسه في جامعتها.

وهو يعتبر نفسه مواطناً فيرجينيا، ولكن لدهشته. وجد نفسه في ريشموند العاصمة القديمة للاتحاد، بين من يرتابون في وضعه لأنهم يعتبرون أن سكان ضواحي واشنطن العاصمة - التي هي في الواقع مثل «فيرفاكس»- «يانكي - Yankeed» (أمريكيون من الشمال. من أصول أوروبية)، وليسوا جنوبيين أصيلين اكتشف أحمد أن ثمة خطأ وهمياً في مكان ما في فرجينيا، ومواطنية الجنوبي الأصيل، في جنوب ذلك الخط، ليست أمراً مسلماً به.

ذهب أحمد أثناء عطلة الربيع إلى منتجع سياحي في «تكساس» فأصيب بالذعر حين اكتشف أن مواطني فرجينيا يعدون هناك «يانكي» أيضاً.

أحمد مسلم في مكان متعدد الثقافات بامتياز، كضواحي «فيرفاكس» لا تعترضه أدنى مشكلة إلا أن بعض الناس في «ريشموند»، ينظرون إليه بشيء من الريبة - كان فيه ما يثير الدهشة - وكأنما يمكن أن يكون إرهابياً...! ولكن أحمد بالتأكيد مواطن أميريكي مثلهم جميعاً...! قرر والداه هجر باكستان وأتوا إلى الولايات المتحدة. بلاد الحرية، ليعيشوا فيها.



ليس هذا وحسب، بل إن أحمد وأفراد أسرته، مثل الكثيرين من ذوي الأصول الباكستانية أعضاء في إحدى الطوائف الصوفية الإسلامية. التي نشأت في القرون الوسطى. وتستنكر بشدة اليوم أعمال العنف من أي نوع كان عندما زار الرئيس بوش المسجد الذي كان أحمد يرتاده وأسرته، وأعلن بعد ٩/١١ أن الإسلام دين سلام، كان أحمد ووالداه هناك، يؤيدونه بحماسة بالغة كيف يمكن أن يفكر أي امرئ أن أحمد.

لمجرد كونه مسلماً، يمكن أن يكون، على نحو ما، شخصاً مشكوكاً في مواطنيته الأمريكية وإرهابياً أو مسلماً من ذلك الصنف الذي يمقته هو نفسه لأنه يسيء إلى سمعة الدين الإسلامي في الغرب.

يوجد في فصله الدراسي أيضاً «شوك - Chuck» القادم من كاليفورنيا، والذي يرى أن وجوده في الجامعة مهمة شاقة ثقيلة الظل، فهو يريد التخصص في الكيمياء، ولكن يتعين عليه أولاً أن يدرس بأسرع ما يمكن بعض المواد، كمادة التاريخ التي يدرسها الآن قبل أن يتخصص في المادة التي يهواها وهي العلوم.

الرياضة هوى «شوك»، فعندما لا يكون في قاعة الدريس أو في المخبر، يكون في الملعب منهمكًا في التمارين الرياضية. أحمد طالب متفوق ومعدل درجاته A، في حين أن معدل درجات «شوك» لا يزيد على C، وهو يبذل جهداً كيلا تكون دون ذلك، لأنه لا يريد أن يرسخ فكرة مفادها أنه مثال الرياضي سيئ الأداء الأكاديمي، الذي ينبغي ألا يكون في الجامعة أصلاً.

يرى أحمد أن كونه مسلماً يُعد مصدر راحة ومواساة، وحتى مصدر فخر أيضاً. إلا أن «شوك»، إذا ما تعين عليه أن يقول ما دينه، لأقرّ بأن الرياضة والبيرة هما دينه. وهو كأسرته لا يتردد على الكنيسة، ويفاخر بمآثره الرياضية، ويشعر بالسعادة لكونه من أبناء كاليفورنيا، الولاية التي أدارت ظهرها للعقائد والشعائر. وهو أبيض البشرة ولكن صديقته «أفرو أمريكية»، وهذا أمر شائع



في الولاية التي ينتمي إليها، إلا أنه نادر في ولاية «فرجينيا»، كما يقول معرباً عن شيء من الأسف ومع أن أحمد يملّ الرياضة، إلا أنه يستمتع حين يشجيع رفاقه، وهكذا فهو لا يذهب كعادته إلى المكتبة أيام السبت، بل يكون في الملعب لتشجيع «شوك» وفريق الجامعة لكرة القدم.

أحمد، خلافاً لـ«شوك»، لم يكن له صديقة، وذلك أمر يدعو للأسف. وقع نظره حين كان في أحد الأيام في مكتبة «سبايدر» في «كامبوس» على فتاة جذابة، طالبة جنوب آسيوية- أميركية. واكتشف أن «أمينة» من أصول باكسانية أيضاً. يا لها من أخبار سارة..! فهي مثله، تنتمي إلى طبقة ميسورة. لا وجود لنظام الطبقات في باكستان لأنها بلد مسلم، وليس بلداً هندوسياً. ولكن «أمينة» من أسرة مرموقة، وفكر أن أمّه ستكون مسرورة بها.

لكن أحمد رأى في إحدى الأمسيات «أمينة» ذاهبة وصديقتها «إميلي» إلى اجتماع طلاب مسيحيين، ما أثار قلقه، ولكنه افترض أن ذلك مجرد مجاملة من «أمينة» لصديقتها بعد ذلك علم أن والديّ الفتاة، هربا إلى الولايات المتحدة لأنهما مسيحيان، كانا مطاردين في باكستان، وذلك يؤكد أن «أمينة» مسيحية أيضاً ولذلك فإن فتىً مسلماً متديناً مثل أحمد يجب أن يرتبط بفتاة مسلمة «أمينة» تبدو تبدو كأنها مسلمة - حتى إنها ترتدي ثياباً محتشمة، خلافاً لفتيات الجامعة الأخريات - ولكن أحمد لاحظ أن مسيحيات أخريات، مثل «إميلي» يرتدين أيضاً ثياباً محتشمة.

وهكذا فإن المظاهر خادعة. لنتذكر المسكين «سيخ -Sikh» الذي قتل بعد ٩/١١ لأنهم اعتقدوا خطأً أنه مسلم. ليس هذا وحسب، إنما لدينا الكثير من الطبقات المختلفة للهوية. ويمكن أن تكون لنا عدة هويات، في الوقت ذاته: فأحمد مسلم، ولكنه صوفي، وهو ليس منمؤيدي العنف إطلاقاً، وأصوله من جنوب آسيا، لكنه مواطن فرجيني، وهو طالب، ولا يحب ممارسة الرياضة،



ولكن يسعده أن يشجع صديقاً يمارسها، وهو يريد أن يتزوج، لكنه اختار استبعاد إمكانية الارتباط بفتاة من جنوب آسيا رآها مصادفة، لأنها لا تنتميإلى الدين نفسه الذي يعتنقه.

«شوك» رياضي، كاليفورني أصيل، وليس جنوبياً، لا يبالي إن لم يكن لون بشرة من سيرتبط بها مثل لون بشرته، لأن العِرق الذي ينتمي إليه المرء، ببساطة ليس قضية تشغله.

«شوك» رياضي، كاليفورني أصيل، وليس جنوبياً، لا يبالي إن لم يكن لون بشرة من سيرتبط بها مثل لون بشرته، لأن العِرق الذي ينتمي إليه المرء، ببساطة ليس قضية تشغله.

أحمد نصفه أمريكي ونصفه الآخر أجنبي؛ «شوك» ليس كذلك. ولكن في أوروبا، عندما سجّل أحمد و«شوك» اشتراكهما في دورة جامعة «بوترايت - Boatwright» في كامبريدج، كان كل منهما، ببساطة أميركياً شمالياً بالنسبة إلى الإنكليز.

يعلن المواطن الأميريكي أحمد بامتعاض، أن كثيراً من المسلمين في بريطانيا، ممن التقاهم، ليسوا مندمجين تماماً في المجتمع البريطاني، كاندماج المسلمين في الولايات المتحدة بينما لم يكن مبتهجاً باجتياح العراق، لكنه وجد نفسه يتعرض لتهجم كلامي، لأنه، ببساطة، مجرد مواطن أمريكي. وهو لا يرى أن ما جرى في العراق مشكلة دينية، لأن صدام حسين كان في جميع الأحوال عربياً علمانياً جداً. ولكن كان لموقفه وقع الصدمة في أوساط المسلمين الذين التقاهم في كامبريدج، إذ شعروا أنه يفتقد الإحساس بالتضامن الإسلامي.

كان أحمد حتى ذلك الحين يحبّ كثيراً من المسلمين الأمريكيين، ويعتبر نفسه متديناً، ولكنه لم يكن يرى في أي وقت أن إيمانه يتعارض مع جنسيته



الأمريكية، بصرف النظر عن آرائه في السياسة الخارجية للولايات المتحدة ولكنه لاحظ أن المسلمين البريطانيين الذين من جيله كانوا خلاف ذلك، ففي حين أنهم ليسوا جميعاً من مؤيدي العنف (ويريحه أن كثيراً منهم صوفيون مثله) إلا أنهم مسلمون أولاً، وبريطانيون ثانياً. ثمة صراع بين قوميتهم وإيمانهم الديني.

إذاً من يكون أحمد؟ أمريكي شمالي...؟ مسلم...؟ أيمكنه أن يكون الاثنين معاً في الوقت ذاته...؟ أو هو إنسان ممزق بين هويتين ثقافيتين متنازعتين لا محالة؟

لقد نظرت في مسألة الهوية، في سياق دراسة حالة شابين أمريكيين طالبين في جامعة، وهناك أمثلة أخرى كثيرة يمكنني أن أقدمها. كالتنافس بين نوادي كرة القدم في بريطانيا مثلاً، الذي قدمنا «نورمان دافيس» وأنا، صورة دقيقة عنه في كتب أخرى، فهو بقدر ما يكون أحياناً بالغ القسوة، يُعتبر بطبيعته تنافساً قَبَليّاً، ويذهب في ولائه إلى ما هو أبعد من الحماسة المألوفة للرياضة.

وإذا كان مؤيدٌ لفريق «مانشستر يونايتد» مثلاً، متعصباً لنادٍ، ومؤيدٌ آخر متعصباً لفريق «أرسنال» اللندني، فهما لن يترددا في أن يندد أحدهما بالآخر حين تكون المباراة بين فريقيهما (في الماضي كان الأمر يتخذ منحىً يتسم بالعنف الشديد بين المشجعين خارج الملعب وداخله) ولكنهما سيتحولان فجأة، كلاهما إلى حليفين قويين في مباراة دولية يشجعان المنتخب الوطني البريطاني، ضد فريق فرنسا مثلاً.

وأنا نفسي أُعتبر مثالاً للأشكال المتعددة للهوية، فأنا مواطن إسكوتلندي، أرلندي، ويلزي، وبالتالي كلي «بريطاني وكلتي - British and Saltic»، ولكن بلا نقطة واحدة من دم الإنكليز، الأمة السائدة في المملكة المتحدة. والآن بما أن القومية الإقليمية في حالة صعود، فأنْ يكون المرء بريطانياً، ولنقل، أكثر



مما هو إنكليزي أو إسكوتلندي،أصبح أمراً غير مألوف، وهكذا فأنا من أقلية لكوني بريطاني أكثر من أي شيء آخر وأنا متخرج من جامعتَي، كامبريدج وأكسفورد، وهذا أيضاً أمر غير مألوف، لأن بين الجامعتين تنافس تاريخي، ولكنني متخرج كذلك من جامعة «شرق بريطانيا -East Anglia» الجامعة الأحدث، التي تعتز بأنها عصرية وليست أكسفورد ولا كامبريدج.

أنا سعيدٌ أيضاً بزواجي من «باوليت -Paulette» وهي أمريكية، من مواليد فرجينيا، وأسلافها غالباً من أصول بريطانية، ولكنها متحدرة كذلك من قبيلة «تشوكتاو - Choctaw» الهندو-أمريكية. وفي الواقع،لو أن ذلك عُرف عندما كانت طفلة لكان يتعين عليها أن تسجل في المدرسة المحلية للسود وعلى الرغم من ذلك، فإنه لمن المؤكد أن باوليت بيضاء، وفقاً للآراء العنصرية للبلد العنصري الذي ولدت فيه.

ما علاقة ذلك كله بالإصلاح...؟ وما علاقته بالمئة وثلاثين عاماً من الحرب التي نحن بصدد دراستها...؟ الجواب: له علاقات كثيرة جداً، بدءاً من الملوك ونزولاً حتى رعاياهم الأكثر تواضعاً.

عندما سَمّر لوثر أطروحاته الخمس والتسعين على باب الكاتدرائية، كان يفجر قروناً من حياة المسيحية وحتى تلك اللحظة كان جميع سكان أوروبا الكاثوليكية، سواء في غرب أوروبا أو وسطها، قد ولدوا في أحضان المسيحية- لأنهم كانوا جزءاً منها منذ ولادتهم، سواء باختيارهم أو دونه. فأن يكون المرء مسيحياً، ولاسيما أن يكون كاثوليكياً، هذا جزء من الجغرافيا.

نظرياً، كان ثمة مسيحيون أرذثودوكس أيضاً، ولكن معظمهم يعيش في مناطق الحكم الإسلامي، في جزء من الإمبراطورية العثمانية، أو في إحدى الإمارات المغولية؛ وبعيداً عن وعي معظم الأوروبيين، كان هناك مسيحيون أرذثودوكس في روسيا يرزحون تحت وطأة النير المغولي، وفي مناطق بعيدة



أيضاً كإثيوبيا يوجد مسيحيون سود تحيط بهم الألغاز ولا يُعرف عنهم سوى الأساطير ولا شيء أكثر من ذلك وبالنسبة إلى الأوروبيين، عملياً، لم يكن هناك سوى المسيحيين الكاثوليك ففي تلك الأيام حيث كانت وسائل المواصلات محدودة، والوصول إلى المعلومات محدود أيضاً، والناس غالباً لا يعرفون شيئاً عما هو أبعد من السوق التالي، وأقل من ذلك عن البلاد الأخرى.

وبدءاً من القرون الوسطى -ومن الجدال حول احتفالات التنصيب، التي تحدثنا عنها لدى دراسة الحملات الصليبية- كان هناك سلطة روحية واحدة هي سلطة البابا، وسلطة سياسية واحدة هي سلطة عاهل الإمبرطورية الرومانية المقدسة، الذي يبسط سلطانه على ما يعرف الآن بألمانيا، والأراضي المنخفضة، وعلى جزء من سويسرا وفرنسا، وشمال إيطاليا (البلد الذي لم يكن له كيان كما هو الآن، حتى حلول عام ١٨٥٩).

ولكن، في أواخر القرن الخامس عشر، أخذت تظهر للعيان بلدان لها هويات وطنية بالغة الوضوح؛ اثنان منها يزدادان قوة، هما إنكلترا وفرنسا كان ملوك إنكلترا، حتى أوائل العقد الأول من عام ١٤٠٠ في الواقع فرنسيين أكثر من كونهم إنكليز، وحكموا معظم أنحاء فرنسا، ولكن في الحقبة التي نحن بصدد دراستها الآن، لم يكن الأمر كذلك، بل أصبح الملوك الإنكليز يتكلمون اللغة التي يتكلمها رعاياهم، في حين كان الفرنسيون، في نهاية المطاف، يحكمون الجزء الأكبر مما يسمى الآن فرنسا.

يختلف الأكاديميون بشدة على تاريخ نشوء القومية، ولاسيما علماء الاجتماع منهم، الذين كانوا يرون أن مفهوم القومية لم ينشأ قبل الثورة الفرنسية، في أواخر القرن الثامن عشر. إلا أن بعض علماء الاجتماع المعاصرين- كالأستاذ اللندني المرموق «أنطوني سميث -Anthony Smith» توصلوا إلى ما كان المؤرخون يرتابون فيه لبعض الوقت، وهو أن نشوء القومية أسبق من ذلك



بزمن طويل، وأن بلداناً مثل إنكلترا وفرنسا، كانت وفق أي تعريف سليم أمماً أصيلة في القرن الخامس عشر، وكان ممكناً جداً في ذلك الحين، نشوء مشاعر قومية، إنكليزية وفرنسية.

إن أحد الأسباب التي دعت علماء الاجتماع العلمانيين إلى اعتبار القومية ظاهرة لاحقة -أبرز استثناء من هؤلاء كان «أنطوني سميث» - هو أننا في ذلك الحين الذي يصفونه بفترة الحداثة المبكرة، كنا جميعاً لا نزال متدينين ذلك يعني، بالنسبة إلى أولئك المتخصصين، أننا كنا لا نزال بدائيين نعيش في ضباب ما قبل التنوير، ولما كان يبدو لهم، أن الدين والحداثة أمران لا يتوافقان، لذلك لا يمكن أن يوجد، مفهوم حديث كالقومية، في زمن مبكر.

ومع ذلك، حتى الغيورين من المؤمنين بالحداثة، أخذوا يدركون حينذاك أن تلك المفاهيم تفتقر إلى المعنى من وجهة النظر التاريخية، وهي غالباً ما تعود إلى رؤية مؤيديها العلمانية للعالم، أكثر من قيامها على البينة التاريخية التي تبناها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أشخاص حقيقيون، وفي هديها فكّروا وكتبوا وعملوا.

في الوقت الذي تمكنت فيه فرنسا، في نهاية المطاف، من استعادة معظم أراضيها من الإنكليز، كانت تنعم، كما دلل كثير من المؤرخين، بشعور واضح بهوية قومية وثيقة الصلة بشعور آخر بهويتها الروحية أيضاً. كما كانت، منذ ما قبل القرن الثالث عشر، تعتبر نفسها أقدم بنات الكنيسة. ليس هذا وحسب، بل كان يطلق على ملوكها رسمياً تسمية، الملوك الأكثر مسيحية، ما يدل هنا على معارضتهم للبلد الجديد إسبانيا، التي كان حكّام المملكتين المتحدتين فيها «كاستيجا وأرغون» يُطلق عليهم رسمياً اسم الملوك الأكثر كاثوليكية، وما زال هذا اللقب، يطلق نظرياً، على ملوك إسبانيا حتى اليوم.



وهكذا، فإن يكون المرء فرنسياً، يعني أن يكون كاثوليكياً، ليس ذلك فحسب، ولكن، أن يكون أيضاً بالولادة، جزءاً من أفضل أمة مسيحية في العالم، أي من أقدم بنات الكنيسة إلا أن ذلك، كما في كثير من القضايا التاريخية، لم يكن بهذه البساطة.

كانت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية موالية جداً للبابا الذي يقيم في روما، وكان البابوات خلال فترة من القرون الوسطى، جميعهم من الفرنسيين، وخلال فترة ما يسمى بالانشقاق الكبير، كان هناك من يدعي أنه البابا ويقيم في روما، وآخر يدعي أيضاً أنه البابا ويقيم في مدينة «أفينيون-Avignon» التي تتكلم الفرنسية، وكان كثير من بابوات القرون الوسطى يقيمون فيها.

(فاز بابوات روما رسمياً في استرجاع الكرسي الرسولي، ولذلك كان بابوات «أفينيون» المنشقون خصوماً لبابوات روما، ولم يعد يؤخذ أحد منهم بالحسبان، ولكن جميع بابوات «أفينيون» الآخرين في فترة ما قبل الانشقاق القصيرة، اعتُبروا بابوات شرعيين ولسنا بحاجة إلى القول إن الإسكوتلنديين ساندوا بابا «أفينيون» الفرنسي خلال فترة الانشقاق، بينما ساند الإنكليز بابا روما.

كان الفرنسيون كاثوليك أوفياء، وكانوا قادرين بعد الانشقاق على التوصل إلى اتفاق، تكون بموجبه تعيينات الإكليروس في فرنسا، خاضعة لموافقة الملك الفرنسي. وهكذا كانت الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا جزءاً لا يتجزأ من الكاثوليكية الأوروبية، وموالية كلياً لبابا روما، من جهة، ولكنها من جهة أخرى، موالية للكنيسة «الغاليّة»، وهي كنيسة وطنية يديرها فرنسيون موالون للعرش الفرنسي. وأثناء الأزمة الطارئة في عام ١٥١٦ تمكّن ملوك فرنسا من أن يكونوا كاثوليكأشداء، يضطلعون بمسؤولية الاهتمام بمصالح بلادهم. وكان لهذا الوضع مساوئ، منها أن كبار الأساقفة، غالباً ما كانوا يُختارون من أنصار



الملكية، وليس من صفوف المتدينين أو الراغبين بالانتساب إلى الإكليروس، أو الأتقياء، وكان الإكليروس الفرنسي يُعتبر أداة فييد الدولة، حتى قيام الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر. كما كان مستوى الفساد مرتفعاً والمحاباة مستشرية. ولكن فرنسا لم تشهد مشكلات كتلك التي أفسدت العلاقة بين البابا والملك فيإنكلترا مثلاً، لأن ملوك فرنسا انتصروا فعلاً في معركة رعاية الكهنوت في القرن الخامس عشر.

ولذلك كان هذا يعني أن الولاء لفرنسا وللكنيسة الكاثوليكية في الوقت نفسه، أمر ممكن جداً، كما كان ذلك في الواقع متوقعاً من جميع المواطنين الفرنسيين رعايا الملك وكان التزام الورع الديني والقومية الفرنسية يسيران معاً، جنباً إلى جنب وقد كان بوسع المرء في ذلك الحين، كما أكد «أدريان هاستينجز- Adrian Hastings» ومؤلفون آخرون، أن يتحدث بحق، عن قومية دينية، دون أن يكون قد ارتكبخطأً تاريخياً.

وهكذا، عندما بدأ بعض العلماء الفرنسيين، في أواسط القرن السادس عشر، ومنهم سيد يدعى «جون - John» أو بالأصح «جين كالفن - Jean Calvin»، يطالعون الآراء اللاهوتية المختلفة الآتية من خارجفرنسا، عبر حدود الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كانت هناك مشكلة مزدوجة فالبروتستانتية لم تكن وفق تعاليم الكنيسة بدعة فحسب، بل لم تكن وطنية كذلك، في حين كانت فرنسا بلداً فخوراً بكاثوليكيته وكان الجميع فيه رعايا أوفياء للملك الأكثر مسيحية، وأعضاء فيتلك الكنيسة كانت مراجع الإصلاح قليلة جداً؛ فإذا كان المؤلف بروتستنتياً، لكان الإصلاح هو الأفضل، وإذا كان كاثوليكياً لكان كارثة ولكن ثمة مقاربة لاهوتية لهذا الموضوع تُعدّ الآن أكثر حيادية من وجهة النظر اللاهوتية، التي تهتم في المقام الأول بالجوانب السياسية للأحداث، دون أن تنحاز إلى القضايا الدينية التي ما زال البروتستانت والكاثوليك مختلفين حولها وسأسير على هدي هذه المقاربة هنا، لأنها كما أعتقد، الأفضل لفهم خلفية



الحروب الدينية التي ألحقت ضرراً بالغاً بأوروبا في تلك الحقبة، ثم فهم تطورها.

اختلف المؤرخون تقليدياً فيما بينهم أيضاً، حول تحليل وضع البروتستانت الفرنسيين، الـ«هوغونوت -Huguenots». يرى بعضهم أنهم كانوا صُناعاً خلافاً للحرفيين القدماء كالجزارين ومزارعي الكروم. في حين يرى آخرون أن البروتستانت الفرنسيين كانوا يولون الكلمة المكتوبة أهمية كبرى، ولذلك كانت معرفة القراءة والكتابة، بدرجةمعينة، للـ«هوغونوت» الذين ينتمون غالباً إلى الطبقة المتعلمة، بما في ذلك المهنيين من الطبقة الوسطى، ضرورية لهم في ذلك الحين، شكّل الـ«هوغونوت» حوالى ١٠ ٪ من سكان فرنسا، أي حوالي ١ ٨ مليون نسمة من مجموع سكانها الذي بلغ ١٨ مليون نسمة. يمكن للمرء أن يضيف كذلك، كما فعل المؤرخ «ماك هولت -Mack Holt» في كتابه: «حروب فرنسا الدينية ١٥٦٢-١٦٢٩»، أن «الهوغونوت»، ربما كانوا مزيجاً من الطبقتين المذكورتين، وذلك يعتمد على ما إن كان الباحث يولياهتماهه، المدن التي كانت تعيش فيها فئة معينة من البروتستانت، أو منطقة «ميدي- Midi» الفرنسية التي كانت الأكثر كثافة في السكان «الهوغونوت» في كلتا الحالتين، يؤكد «هولت»، وهو بالتأكيد على حق، أن البروتستانتية الفرنسية كانت ثمرة التبشير بالإنجيل خارج البلاد، وإلى حد كبير جداً، في جنيف «كالفن»، كما تمكنت من البقاء بفضل دعم الكثيرين من نبلاء فرنسا الذين اعتنقوا العقيدة الجديدة، ولاسيما «آل بوربون-Bourbon» الأقرباء المقربون من سلالة ملوك فرنسا «آل فالوا -Valois» والأدميرال «غاسبار الثاني -Gaspard II -Gaspard II de Coligny» الذي كان ينتمي إلى رابطة أرستقراطية لها علاقات وثيقة بالبلاط ولهذا العامل الأخير أهمية في تحديد أماكن انتشار البروتستانتية، لأن البروتستانت كانوا بحاجة، كما في ألمانيا، إلى نوع ما من دعم نبلاء، أو مجلس مدينة، لكي يتمكنوا من البقاء، ولولا ذلك لكان قد قضي عليها في المهد. يدلل «هولت» على أن الانتشار



الأكبر للبروتستانتية كان في الجنوب، وفي جيوب ذات أهمية، في مناطق مثل «نورماندي»، حيث كانت أسرة «كوليني - Coligny» تحظى فيها بأملاك ونفوذ.

ولكن سواء كان البروتستانت حرفيين مهرة، أو مهنيين سكان مدن، أو كانوا كلا الأمرين معاً، فهم في أي وقت من الأوقات، لم يكونوا قطّ حركة حظيت بدعم التاج الملكي هذا في نهاية المطاف سيكون أمراً حاسماً، ويفسر مثلاً لماذا ازدهرت البروتستانتية في بعض أنحاء ألمانيا / الإمبراطورية الرومانية المقدسة وليس في أماكن أخرى؛ مثلما ازدهرت في الدانمارك واسكوتلندا وإنكلترا، ولكنها لم تزدهر في مناطق مثل إسبانيا أو شبه جزيرة إيطاليا.

يتفق المؤرخون على أن ملوك فرنسا اعتبروا ولاءهم للكنيسة الكاثوليكية ولقبهم كأكثر الملوك مسيحية، أمراً حيوياً لشرعيتهم. كما أن منصبهم الملكي، الذي كان يُمجد في مراسم احتفالات التتويج المعقدة، في كاتدرائية «ريمس - Rheims» لدى توليهم مقاليد السلطة، يضفي عليهم سلطة قدسية كبرى، ويمدهم في الوقت ذاته، بسلطة سياسية على رعاياهم. والملوك غير الفرنسيين بصورة عامة، يولون كبير أهمية لكونهم ممسوحين « Anoited position»، ولكن بدرجة لا ترقى إلى الأهمية التي يوليها ملوك فرنسا لذلك.

ولذلك فإن البروتستانتية، كما يذكرنا «هولت» وآخرون، كانت وفق تعريفها بمثابة تهديد لسلطة الملك السياسية والروحية، وإذا كانت المسيحية الكاثوليكية باطلاً، فإن حق الملك في أن يحكم رعاياه، هو إلى حد بعيد، باطل أيضاً. لم تكن البروتستانتية مجرد بدعة فحسب، بل كانت تمرداً وتخريباً أيضاً.

عندما كانت حركة إصلاح الكنيسة من الداخل تكتسب زخماً، لم تكن ثمة مشكلة بين الملوك وشخصيات مثل «إراسموس - Erasmus» أو غيره من



النقاد ذوي النزعة الإنسانية ضمن الكاثوليكية ما كان يثير استياء «إراسموس» هو استغلال البابوات وفسادهم، ولكنه لم يقل، كما لم يكتب أي شيء يعرّض للخطر المركز السياسي للملكالأكثر مسيحية في فرنسا.

كانت البروتستانتية، مع ذلك، مختلفةً. وهذا ما يفسر لماذا كان ردّ الفعل الغريزي الأولي لملوك «آل فالوا» الراشدين مثل «فرانسوا الأول» وهنري الثاني، هو اضطهادها. في عام ١٥٤٨ أنشأ برلمان باريس ماأطلق عليه اسماً مروعاً «Chambreardente» وتعني حرفياً (المحرقة)، التي صُممت من أجل اجتثاث الهرطقة، في فرنسا، من جذورها. وفي عام ١٥٥١ أصبحت البروتستانتية وفق مرسوم «شاتوبريان»* محظورة رسمياً.

ولكن «كالفن» كان قد قضى، في ذلك الحين، عشر سنوات في جنيف. وأما موسوعته اللاهوتية: «معاهد الديانة المسيحية - Institutes of the Christian Religion»، الرائعة ومتعددة الأجزاء التي خصّ بها ملك فرنسا، مازال مسيحيو التقليد الإصلاحي الذي أسسه كالفن، ولاسيما أتباع الكنيسة المشيخية من مختلف الفرق، يقرؤونها حتى اليوم. ولأن كالفن اشتهر بإقامته الطويلة في جنيف، نسينا أنه فرنسي، وأن الكثير من أمهات أفكاره نضجت في فرنسا قبل فراره منها في عام ١٥٣٤ وبعد ذلك، حتى قبل وصوله إلى جنيف، كان يعيش في ستراسبورغ - التي كانت في ذلك الحين جزءاً من الإمبراطورية - بين كثيرين ممن يتكلمون الفرنسية، وهم فرنسيون بروتستانت لاجئون يعيشون هناك.

* - مرسوم شاتوبريان: الصادر في ٢٧ حزيران/ يونيو ١٥٥١، يحظر امتلاك أي كتب مدرجة في دليل الجامعة، وترجمة الكتاب المقدس أو أعمال آباء الكنيسة، وكذلك استيراد الكتب من جنيف وغيرها من الأماكن غير الخاضعة لسيطرة الكنيسة، أو طباعة أو بيع أي كتب دينية مكتوبة في السنوات الأربعين الماضية قبل صدور هذا المرسوم. (المترجم)



كان كالفن، على الضد مما يعتقد بعضهم، شديد الاهتمام بالتبشير بالإنجيل، ولعله كان مهتماً بذلك أكثر من أي إصلاحي آخر من إصلاحيي عصره المشهورين. وهو لم ينسَ فرنسا مسقط رأسه قط، لهذا السبب، أنشأ في جنيف- التي لم تكن آنذاك، كما هي الآن، بعيدة عن حدود فرنسا- مؤسسة هدفها المحدد هو التبشير في فرنسا، بالمفهوم البروتستانتي الجديد، لرسالة المسيحية، ومنذ عام ١٥٥٥ وما بعده عبر الحدود الفرنسية سيلٌ متواصلٌ من المبشرين البروتستانت الفرنسيين المدربين في جنيف، يحدوهم هدف تحويل أكبر عدد ممكن من الفرنسيين إلى المذهب الجديد ويُقدِّر «هولت» ومتخصصون آخرون، كما رأينا آنفاً، أن ما ينوف على ١٠٪ من الفرنسيين كانوا في عقد عام ١٥٦٠ قد تحولوا إلى البروتستانتية، نتيجة جهود المبشرين إلى حد كبير كما تحول إليها أيضاً أمير «كوندي- Conde»، وهو عضو مرموق من «آل بوربون»، وعدد كبير أيضاً من الأشخاص البارزين من أسر النبلاء.

في عام ١٥٥٩ قُتل الملك هنري الثالث، آخر عاهل سوي ومعافى من آل «فالوا»، في حادث أثناء مبارزة. كان ذلك الحدث بمنزلة كارثة،لأنه أدى إلى تشكيل إدارة وصاية على العرش، وتلك أيضاً فكرة لم تكن جيدة أبداً في أيام كان وجود ملك قوي يُعد جزءاً أساسياً من آلية الحكومة المستقرة كان ابنه الأكبر أصغر من أن يتمكن من تولي سلطة الحكم، فتولتالوصاية على العرش أرملة الملك، الأميرة الإيطالية «كاثرين ميديشي -Catherine Medicis» التي أصبحت الملكة الأم أيضاً. (وهي تنتمي إلى أسرة «فلورنسية» تمتهن مهنة الصيرفة).

أدت هذه الخطوة إلى نفور بعض أعضاء البلاط. ففي حالات وصاية سابقة على العرش، كان يعهد بمنصب الوصي إلى قريب ذكر من أقرباء الملك، يتمتع بمكانة مرموقة، وليس كما في هذه الحالة، حيث الوصي على العرش أنثى أجنبية المولد (العاصفة المناوئة لها كانت مضاعفة، في زمن كان التعصب



الديني فيه على أشده) ولسوء الطالع فقد كان أقرباء الملك ينتمون إلى أسرة «آل بوربون» البروتستانتية، وليسوا مقبولين لشغل منصب الوصي على العرش ولكن هذه الواقعة أثارت استياءهم فعلاً، بقدر ما أثارت استياء مؤيديهم من الأرستقراطيين، ولاسيما الأدميرال «كوليني -Coligny» وأسرته.

أشار مؤرخون مثل «هولت» إلى أن الروايات التاريخية السابقة للحروب الدينية الفرنسية أولت اهتماماً كبيراً للدسائس والمؤمرات المحيرة التي تحاك في البلاط، من اغتيالات ومحاولات اختطاف، وتشويه السمعة، التي اتسمت بها تلك الحقبة كانت فرنسا شهدت ما بين عامي ١٥٦٢ و١٥٩٨ ما لا يقل عن ثماني حروب أهلية دينية، بعضها أشد دموية ووحشية من الآخر، ويمكننا أن نؤكد أنهأنه لمن السهل فعلاً أن تلتبس علينا معرفة من كان يحارب من، وأين، ومتى..! يضاف إلى ذلك أن الحرب في مراحلها المختلفة، خلال ست وثلاثين سنة، شهدت كذلك أحياناًانخراط بعض الأمراء الأجانب في دعم الأطراف المختلفة. وإنّ تذكُّر من الذي دعمه هذا الأمير أو الملك الجرماني أو الإسباني، قد يكون أمراً مربكاً أيضاً.

يُعدّ اعتناق شخص مذهب المسيحية البروتستانتية، وفق تعريفها اللاهوتي، عملاً فردياً بمثابة ولادة ثانية. ولكن حين يعتنقها عدد كبير من المواطنين جماعياً، فذلك يُعدّ وفق التعريف اللاهوتي أيضاً، بمثابة تشكيل مجتمع: يضم في مثل هذه الحالة حوالي ١٠٪ من عدد سكان فرنسا، لأن معتنقي البروتستانتية كانوا تجمعات في مناطق غير متجاورة في أنحاء البلاد، ولم يكونوا مبعثرين في كل مكان، ولذلك فإن أكثر من عشر السكان، تأثروا فيالمناطق التي باتوا فيها أكثر قوة.

أشار مؤرخون أيضاً إلى ما قد يكون واضحاً لمتخصص بالإحصاء، وهو: إذا اعتنق البروتستانتية عشر واحد من السكان، فذلك يعني أن تسعة أعشار لم



يعتنقوها، للأسباب المذكورة آنفاً. وفي كثير من أنحاء فرنسا، بقي سكانه جميعاً أي ١٠٠٪ على ولائهم للكاثوليكية. وفي مناطق مثل «بورغونيا- Burgundy» وهي مناطق مزارعي كروم العنب لصنع الخمور البروتستانتية يبدو أنها رفضت جماعياً، وفي أنحاء أخرى من البلاد التي تهيمن عليها أسرة «Guisa» النافذة، طبّق المتدينون الكاثوليك- الذينتربطهم صلات وثيقة بحكام دوقية «اللورين» المستقلة - الإجراء ذاته بشكل كامل وبينما قدم النبلاء - أي فصائل البلاط المتعددة والمتقلبة - ما أصبح يسمى، القيادة العسكرية للمجموعات الكاثوليكية والبروتستانتية، فإن ما نراه حقاً خلال هذه الفترة هو اشتباك بين مجتعين، واحد موالٍ للدين القديم وآخر موالٍ للتأويل الجديد له. وإلى هذا الاشتباك يعود أصل الحروب الدينية في فرنسا، والفوضى والمجازر التي سرعان ما حلت بها.

وكما سنرى، أن أصل معظم المجازر يرجع إلى هذا السبب، ولاسيما مجزرة ليلة «سانت بارثولومي» في باريس، ومجزرة آلاف البروتسانت، التي فجرت الحرب الأهلية الرابعة ما بين عامي ١٥٧٢ و١٥٧٣، التي لم يرتكبها قادة ولا جيوش، وإنما رجال ونساء عاديون، قتلوا شركاءهم في المواطنة، الذين يُفترض أنهم عاشوا معهم جنباً إلى جنب، طوال حياتهم.

أعتقد أننا يجب ألا نستخفّ بأهمية هذه الوقائع. فالحروب الأهلية عادة ما تكون همجية دائماً. ويتعين على الأمريكيين ألا يفكروا أبداً في الحرب الأهلية الأمريكية التي حاربت فيها قواتُ الوحدويين الشماليين، جنودَ الاتحاديين الجنوبيين ففي مثل هذه الحروب الأهلية ينشب القتال في مدينة بين جيران يقاتلون جيرانهم، وفي قرية يقاتل أهاليها أهالي قرية أخرى تقع على بعد بضعة أميال منها فقط، و يقتل مدنيون مدنيين آخرين أيضاً، وليس فصيلان من جنود يقتتلان في معركة.



وهذا أيضاً ينسحب إلى حد بعيد، على حرب الثلاثين عاماً، بين عامي ١٦١٨ و١٦٤٨، فيما يعرف الآن بألمانيا، وعلى سلسلة أخرى من النزاعات الدينية، في يوغوسلافيا السابقة في عقد عام ١٩٩٠، وفي أوروبا خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين ولما كان سبب مثل تلك النزاعات ديني في الواقع، فإنه يجعل الحرب الأهلية أسوأ، لأن العقيدة الدينية تكون قد سهلت للناس العاديين، ارتكاب فظائع ضد بعضهم بعضاً، يصعب تُصوّر حدوثها في ظروف أخرى لقد طلب يسوع من تلاميذه حقاً أن يحبّ بعضهم بعضاً، وأن يحبوا السامريين أيضاً الذين لم يكونوا أصدقاء اليهود، ولكن يبدو أن الذين ارتكبوا المجازر باسمه تناسوا تعاليمه، وأما نحن الذين ما زلنا متدينين، تبقى حمامات الدم هذه، كما نرى، أسوأ الشرور الجديرة بالازدراء.

لم تكن «كاثرين دي ميديشي- Cathetine de Medicis» تريد الحرب، والتزمت بذلك معظم تلك المدة، ما بين عامي ١٥٥٩ و١٥٧٢ - وخلافاً لما كان يعتقد كثيرون بتورطها في مذبحة «سانت بارثولومي» - فقد بذلت كل ما بوسعها لتجنّب النزاع ولكن عندما أطلقت القوات الموالية للنبيل الكاثوليكي القوي الدوق «غيز-Guise» النار وقتلت مجموعة من البروتستانت في مدينة «فاساي -Vassy»، تأكد لها أن باكورة آمالها لم تعد ذات جدوى. دشنت تلك المذبحة التي تُعدّ صغيرة، إذا ما قورنت بما تلاها، بدء الحرب الأهلية الأولى من الحروب الثمانية التي امتدت حتى عام ١٥٩٨.

بحلول عام ١٥٧٠، بدا كأنما البروتستانت توصلوا، في نهاية المطاف، إلى هدنة ما مع الأغلبية الكاثوليكية. ولكن يبدو أن ذلك كان مجرد محاولة لحفظ ماء الوجه، إذ بينما كان يبدو أن قادة «هوغونوت» كالأدميرال «كوليني - Coligny» يمكن أن يكونوا مقبولين لدى البلاط، إلا أن الأقلية البروتستانتية كانت، على المستوى الشعبي، مكروهة دائماً عارضت جماعات البلاط الكاثوليكية بشدة حصول البروتستانت على أي قدر من الحريات كان يقود



هؤلاء أسرة «غايز- Guise» ذات النفوذ الكبير، وتضم كبار الإقطاعيين الفرنسيين، كما تربطهما علاقات قرابة بأصحاب دوقيات «اللورين» الذين لم يكونوا فرنسين آنذاك، وبملوك إسكتلندا «آل ستيوارت» أيضاً (كانت أمّ الملكة ماري ملكة إسكتلندا، من أسرة «غايز»). فضلاً عن ذلك، كان «آل غايز» على خلاف مستحكم ودائم مع «كاثرين» الملكة الأمّ التي كانت حينذاك الحاكم الفعلي لفرنسا، على الرغم من أن أبناءها من نسل آل «فالوا»، الأسرة التي كانت تتمتع قديماً بمكانة مرموقة، الملوك الذين حكموا البلاد عملت «كاثرين» ما بوسعها للحفاظ على سلام ديني موقت، وحاولت مراراً أن تزوج أحد أبنائها، من الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا ولكن بما أن أبناءها استمروا أوفياء للكاثوليكية، لم يكن مسعاها في أي حال واقعياً أو يمكن تحقيقه.

إلا أنها نجحت في عام ١٥٧٢ بترتيب أمر زواج ابنتها بقائد الـ«هوغونوت» العسكري «هنري أوف نافار-Henry of Navarre» الذي كان يرأس الفرع الناشئ من «آل بوربون»، السلالة الملكية الفرنسية (التي ينحدر منها ملك إسبانيا الحالي كذلك). ويبدو من المرجح أنه سيكون الوارث الذكر للعرش الفرنسي، إذا ما انقرضت أسرة «فالوا».

كان عدد كبير من قادة فرنسا النبلاء من مختلف الفصائل موجودين في باريس، في شهر آب/أغسطس من عام ١٥٧٢ للمشاركة في حفل الزفاف. وكان بينهم الأدميرال الفرنسي الكبير وقائد الـ«هوغونوت» الفعلي «كوليني».

يختلف المؤرخون فيما بينهم بشدة حول مسألة من كان المسؤول الحقيقي عن سلسلة الفظائع المريعة التي ارتكبت في الأيام القليلة التالية أكان ذلك كله مذبحة دبرها «آل غايز» لزعماء الـ«هوغونوت»؟ أم أن «كاثرين» نفسها تورطت في بعض المؤامرات المشينة؟ (أم كان المتورط هو الملك الصوري



هنري الثالث؟) أعتقد أن توافقاً أخذ يبدو للعيان ويشير إلى أن اغتيال القائد البروتستانتي الأدميرال «كوليني» كان نتيجة مؤامرة دبرها «آل غايز»، وعندما أدى ذلك بدوره إلى مجزرة شاملة أودت بحياة كثير من قادة الـ«هوغونوت» في باريس، أصبح من المرجح أن تكون الواقعة الثانية هذه، من تدبير «كاثرين»، والفئات وثيقة الصلة بها وبابنها الملك ليس هناك توافق على من تآمر وعلامَ تآمر، ولكن ما تلى بعدئذٍ كان مجزرة دموية إلى أبعد الحدود، والنتيجة لم تكن مجرد مؤامرة بلاط، بل ثورة جماهير شعبية غاضبة وعنفاً دينياً عارماً. وما إن أودي بحياة قادة الـ«هوغونوت» حتى تحول إلى موجة من الاقتتال والمجازر، فانفجر العنف في باريس أولاً، ومن ثم في جميع أنحاء فرنسا، وأدى إلى مذابح جماعية ذهب ضحيتها العديد من المواطنين العاديين البروتستانت، الذين قُتلوا بايدي جيرانهم الكاثوليك.

إن أحد الأمور بالغة الأهمية التي يجب أن نتذكرها في تلك المذابح، سواء مذابح باريس في آب/أغسطس من عام ١٥٧٢، ومن ثم مذابح مدن أخرى في جميع أنحاء فرنسا ما بين آب وتشرين الأول/أغسطس وأكتوبر من العام نفسه، هو أنها كانت ذات طبيعة شعبية، لا عسكرية. أشخاصمن عامة الناس يقتلون من كانوا جيرانهم، وزملاءهم في المدرسة، ومن يقطنون وإياهم المدينة ذاتها.

لا يمكن أن تكون أهمية تلك الأحداث كلها مبالغاً فيها، لأنها ستكون سمة جميع المذابح الدينية أو القبلية طوال قرون لاحقة، حتى مجازر القرن العشرين، بدءاً من البلقان (حيث ارتكبت مذابح دينية) وحتى راوندا (حيث كانت المذابح قبلية). في تلك الحالات كلها، قتل أشخاصٌ أشخاصاً يعرفونهم، وقتل مدنيون آخرون، بينهم أطفال ونساء.



يُشاهد هذا النمط بوضوح في مذابح عام ١٥٧٢ في فرنسا وهنا لا أستطيع تحسين الصورة التي كتب عنها المؤرخ «ماك هولت» في كتابه: حروب فرنسا الدينية ١٥٦٢ - ١٦٢٩ فجرائم القتل كانت، قبل أي شيء آخر، تتسم بالعنف، ولاسيما تلك التي يقتل فيها جيرانٌ جيرانهم يتفق المؤرخون، على ما يبدو، على أن جرائم القتل كانت نوعاً من تفريـغ شحنة التوتر الديني الشعبي لمواطنين عاديين، خلافاً لعمليات قتل النبلاء «الهوغونوت» التي تمت بتحريض من البلاط ولذلك كان للقتل في الشوارع دوافع دينية لا سياسية. وكما يبين «هولت» في كتابه، وفي مقال صحافي، لا يستطيع المرء ببساطة، أن ينظر في تلك الأحداث، من زاوية اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية فقط، لأنه كان لها، بالنسبة إلى الناس العاديين على الأقل، دوافع دينية عميقة.

وفي وقت مبكر، بعد عام ١٥٧٠، كانت إحدى أسر الـ«هوغونوت» قد تعرضت إلى معاملة من القسوة البالغة، كادت تكون فريدة، فعندما أخذت المذابح تجتاح سائر المدن، وجد أفراد تلك الأسرة أنفسهم فجأة أمام هجوم جموع من الدهماء الكاثوليك كان «آل غاستين - Gastines» وأنسباؤهم «آل لي ميرسييرز- Le Merciers» قد ذبحوا، يقول «هولت»، كانت «آغنس - Agnes» إحداهن، غارقة وهي عارية في دماء والدتها ووالدها الذبيحين، وهددوها بأنها ستلقى المصير نفسه إذا اعتنقت مذهب الـ«هوغونوت».

مذهب الـ«هوغونوت» ثم يصف «هولت» حادثتي قتل معاصرتين وقعتا في باريس ويقول إن لهما أهمية لأنهما تتسمان بطبيعة طقوسية، إذ استخدمت فيهما طقوس الكنيسة الكاثوليكية بطريقة بشعة، من أجل الوصول إلى النتيجة المرجوة، وهي تطهير باريس من البروتستانتية إن فهم ذلك في سياقه الأوسع له أهمية بالغة، لأن استخدام دوافع وطرقاً طقوسية مشابهة استمر طوال الأربعمئة سنة اللاحقة أو أكثر ويمكنني أن أقول إن ذلك شكل من أشكال التطهير الديني شبيه «بالتطهير العرقي» الذي سنشاهده بعد قرون،



بدءاً من محاولات الصرب، تصفية المسلمين السلاف، منذ القرن الثامن عشر وحتى وقتنا الراهن، على الرغم من أن ذلك جرى بدرجة مختلفة وفي سياق مختلف عما فعله النازيون في القرن العشرين لجعل أوروبا خالية من اليهود.

ثمة أيضاً عنصر مهم هو الإذلال -ينبغي ألا يُكتفى بقتل العدو، وإنما يجب أيضاً إذلاله أثناء عملية القتل- ثمة حاجة إلى تجريد الضحايا من إنسانيتهم، وجعلهم على نحو ما، كائنات ليست من البشر، وبذلك يكون قتلهم أسهل فنحن حين نسحق ذبابة، نفعل ذلك بطريقة لا يمكن أن يخطر ببالنا أبداً أن نستخدمها في التعامل مع كائن بشري ولذلك، حين يتعين على القتلة أن يقوموا بقتل بشر، ولاسيما إذا كان أولئك ممن يعيشون في جوارهم، يصبح من الضروري أن يفكر القاتل بأن من يقتلهم كائنات بشرية من نوع آخر، لا تختلف، مثلاً عن الذبابة أو الخنزير، وبذلك يصبح القتل أمراً ممكناً نفسياً بالنسبة إلى الذين يمكن ألا يفكروا عادة بأنهم قتلة يذبحون من يقطنون في جوارهم.

وأخيراً، ثمة حاجة إلى التفكير بأن العدو أشبه ما يكون بوباء أو جرثوم يجب التخلص منه أو استئصاله من أجل خير الجماعة الدينية أو العرقية وهذا أيضاً جزء من تجريد الإنسان من إنسانيته ويستخدم تنظيم القاعدة في عصرنا الراهن هذه التقنية، حيث يُشَبّه ابن لادن وجود قوات أمريكية في المملكة العربية السعودية بجائحة جراد الصحراء.

لنحاول في هَدي ذلك أن نتبين كيف استطاع أن يصل الأمر بالمواطنين الفرنسيين العاديين إلى أن يكرهوا بعضهم بعضاً، إلى حد قتلِ أكثر من ألفين من المدنيين الأبرياء ذبحاً في باريس، وأكثر من ثلاثة آلاف من الـ«هوغونوت» في أنحاء فرنسا، خلال الأسابيع التي تلت.



قُتل «ماتورين لوسول-Mathurin Lussault» حين هاجم الغوغاء منزله،وحاولت زوجته «فرانسوا Francoise -» الهرب، ولكن كُسرت ساقاها أثناء المحاولة، وعندما عثروا عليها في بيت أحد الجيران أمسكوا بشعرها وجروها في الشوارع، وعندما اكتشفوا أن في يديها أساور من ذهب، قطعوا معصميها، وشدوا وثاقها، وواصلوا جرها في الشوارع.

مهما يبدو لنا هذا كله مروعاً ومنحطاً، إلا أننا لا يمكن أن ننظر إليه انطلاقاً من نظرة متعالية تعود إلى القرن الحادي والعشرين، لأننا نعرف روايات تتحدث عن فظائع ذبح مشابهة ارتكبها فريق من المدنيين ضد فريق آخر في عصرنا الراهن لأسباب دينية أيضاً، كما حدث في البوسنة في عقد سنة ١٩٩٠. إن طبيعة البشر هي ذاتها دائماً لم تتغير، ولا يختلف الناس المعاصرون عن أسلافهم في ذلك.

كيف يفسر «هولت» أفعالاً مريعة كهذه..؟ فهو على الرغم من أنه يعترف، وهذا أمر منطقي، بدور العوامل الاجتماعية والاقتصادية، إلا أنه يواصل التأكيد، كما أعتقد، على أنها أسباب حقيقية راسخة لارتكاب مثل هذه الفظائع:

يرى الكاثوليك أن «الهوغونوت» يشكلون تهديداً للنظام الاجتماعي والسياسي، ولذلك ينبغي القضاء عليهم، بقتلهم وإذلالهم واحتقارهم واعتبارهم وحوشاً لا بشراً.

تُعدّ هذه النقطة الأخيرة ذات شأن كبير فيما يتعلق بهوية الجماعة، التي ستكتسب دائماً أهمية قصوى تتنامى مع مرور الزمن باستمرار. فمن الأمور التي سنكتشفها فيما يسميه المتخصصون في علم النفس الاجتماعي وعلم الأنثروبولوجيا مجتمعاً «مريضاً» أو «ثقافة مريضة»، هو أن الاختلاف فيه محظور مهما كان طفيفاً، ويجب أن ينضم كل فرد من أفراده إلى ديانة



الجماعة، وقبيلتها، أو كما في حال فرنسا في القرن السادس عشر، والدول الإسلامة الخالصة، أو الدولة الهندوسية الحالمة بالحداثة القصوى، القومية والدين كلاهما لا ينفصلان، في الزمان وفي المكان. كانت فرنسا كاثوليكية، ومن يرفض ديانة الفرنسيين كان لا يُعدّ، خائناً دينياً فحسب، بل خائناً سياسياً أيضاً.

وبينما يتوفر قليل من الشك في أن الملك وأمه، والحلقة الواسعة من «آل غايز- guise» الكاثوليك المتشددين الذين يحيطون به، متورطون، بطريقة ما، في مجزرة النبلاء الـ«هوغونوت»، أدرك الملك نفسه أن مذابحالبروتستانت العاديين واسعة النطاق، لم تكن الطريقة الملائمة لحلّ المشكلات الدينية في فرنسا. ولكن الجماهير لم تتلمس ذلك الوضع أو تفهمه، وكانت على يقين من أن الملك كان مؤيداً لها، في قتل الآلاف من رعاياه الـ«هوغونوت».

ولعل الأهم من ذلك - وهذا سيكون موضوعأ يتكرر أيضاً- هو أن جماهير الغوغاء كانت على يقين من أن الله معها.

وكما يقول «هولت»، كان الوعاظ الكاثوليك المرموقون، ولفترة طويلة، يعلنون من خلال المنشورات، ومن فوق المنابر إن الـ«هوغونوت»، «وحوش مفترسة» تستحق الموت. وانتشرت في باريس، بين عامي ١٥٧١ و١٥٧٢، في الفترة التي سبقت المذبحة، نُذُر شؤم مختلفة أقنعت الباريسيين الكاثوليك من عامة الناس الذين يؤمنون بالخرافات، بأن ذبح أولئك الذين يعتبرونهم مجرد «وباء بروتستانتي» بالجملة، لم يكن سوى تنفيذاً لإرادة الله.

نحن بصدد إلقاء نظرة على حروب البلقان، بتفصيل أوسع فيما بعد، لأن كثيراً من هذه الموضوعات يتكرر ولكن لنتقدم الآن خطوة إلى الأمام ونلقي نظرة على تقرير لجنة «كارنيجي -Carnegie» حول الحروب هناك قبيل اندلاع



الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤. أجرت لجنة «كارنيجي» مقابلات مع بعض الجنود اليونانيين، وكانت النتائج، في ضوء ما أتينا على ذكره من مجازر في الحروب الدينية في فرنسا، مثيرة جداً، وتروي اللجنة ما سمعه مراسلوها.

«... أنت تنكر أن أعداءك بشر، وتعاملهم كحشرات» لم يدرك معنى ما قاله تماماً، أبدى ضابط يوناني ملاحظة إلى من كان يدوّن الحديث قائلاً: «حين يتعيّن عليك أن تتعامل مع همج، يجب أن تتصرف أنت كهمجي أيضاً ذلك هو الشيء الوحيد الذي يفهمونه» هنا يمكن أن نضيف ما يسميه «مارك جورجنسماير - Mark Juergensmeyer» الاختصاصي في النزاعات الدينية، «البعد الكوني»، المباركة الإلهية للمجازر، وحينئذٍ تصبح الطريقة التي يمكن أن يقتل بها فريق من المدنيين فريقاً آخر مفهومة، على الرغم من أن ذلك بالتأكيد، لا يمكن أن يُغتفر أبداً! بدءاً من الأحداث التي جرت من فرنسا في العام ١٥٧٢، إلى أحداث اليونان في العام ١٩١٣، وإلى ما يمكن للمرء أن يضيفه من نزاعات دينية كثيرة أخرى يمكن أن تتغير الأمكنة، ولكن أنماط السلوك بقيت كما هي تماماً، لم تتغير.

أصبح الوضع في فرنسا في العام ١٥٨٤ بالغ الخطورة حقاً لأن آخر الملوك من أسرة «فالوا» لم ينجبوا ذكوراً لوراثة العرش، كما لم يكن لديهم أقرباء من الذكور، وكان الوارث الجديد للعرش الأمير البروتستانتي المرموق «هنري ملك نافار - King Henry of Navarre»، الذي يتزعم فرع آل «بوربون»، الأسرة الملكية الفرنسية العريقة. وقد أدى هذا الوضع إلى أزمة متعددة الأبعاد، فالفصيل المتشدد المساند للكاثوليك - الجامعة الكاثوليكية - كان متصدعاً، لأن وراثة العرش في السلالة الملكية الفرنسية كانت للذكور، ولكن وارث العرش كان بروتستانتياً وكان ثمة وارثات كاثوليكيات، ولكن الوارثة كانت أميرة إسبانية، وهذا سياسياً، ما لا يمكن أن يقبله كثيرٌ من الفرنسيين، لأن إسبانيا كانت زمناً طويلاً أمة معادية لفرنسا (وفي جميع الأحوال، فإن التراتب الأنثوي



لوراثة العرش يعود أصلاً إلى الملوك الإنكليز، وكان ذلك سبب اندلاع حرب المئة سنة بين إنكلترا وفرنسا) وحين أصبح «هنري ملك نافار» الملك هنري الرابع ملك فرنسا، وفق قواعد تراتبية وراثة العرش التي تُمنح للذكور فحسب، أصبحت الحرب بين البروتستات والكاثوليك أشدّ ضراروة.

ثم قلب الملك هنري الرابع الوضع في عام ١٥٩٣، حين غيّر ولاءهالديني وأصبح كاثوليكياً رومانياً. وفجأة ألغت البابوية الاعتراضات البابوية المفروضة عليه، ولم يعد مدرجاً بين الهراطقة. كما التفّ حوله أولئك الذين أرادوا وضع حدٍّ للحرب الأهلية الضارية التي دامت ثلاثينعاماً، وأصبح المتشددون في الجامعة الكاثوليكية المقدسة، أسهل قياداً.

نسب إليه أعداؤه قوله: «إن باريس تستحق إقامة قُدّاس»، وهو ما برر به تحول ولائه إلى الكاثوليكية، وهذا القول أيضاً الرواية التقليدية المتداولة عن سبب قيامه بتغيير انتمائه الديني إلا أن بعض المؤرخين ومن بينهم «ماك هولت» ينكرون نهائياً، أن يكون قد قال شيئاً من هذا القبيل، لأنه هذا القول، على نحو أو آخر، مدعاة إلى الخجل ولكن سواء كان اعتناقه الكاثوليكية ناجماً عن قناعة دينية حقيقية، أو مجرد سعي وراء وضع حدٍّ للحرب وتعزيز سلطته (وهذا ما أعتقده)، فإنه أحدث تأثيره المرغوب. كان قادراً في ذلك الحين على احتلال باريس ووضع حدٍّ نهائي للحروب الثمانية التي استغرقت ثلاثة عقود.

صدرت عدة مراسيم، خلال حكم آخر الملوك من آل «فالوا»، ووصاية «كاثرين دي ميديتشي» على العرش، تضمن للبروتستانت حقوقاً محدودة، ولكن أياً منها لم يدم طويلاً، وباءت بالفشل كلها، بسبب الحروب الأهلية الدينية.

ولكن عندما أصدر «هنري الرابع» أول ملوك فرنسا من «آل بوربون» مرسوم «نونتِس -Nontes» في سنة ١٥٩٨ الذي مَنحَ بموجبه أقلية الـ«هوغونوت»



البروتستانتية، الحرية الدينية، وأرسى ضمانة التسامح. كان الـ«هوغونوت» قد اندمجوا في المجتمع الفرنسي، ونالوا الحرية الدينية التي عملوا من أجلها زمناً طويلاً. ولكن حياتهم لم تكن مستقرة، لأن الحقوق التي يمنحها ملك سبق أن كان بروتستانتياً، يمكن أن يلغيها في المستقبل ملك آخر كاثوليكي متعصب وعندما استبدل الملك «لويس الرابع عشر»، أحد خلفاء هنري الرابع في سنة ١٦٨٩، مرسوم «نونتِس» كان ذلك يعد بمثابة كارثة مالية اقتصادية واجتماعية حلت بفرنسا. ذلك أن الـ«هوغونوت» الذين كانوا أفضل العمال المهرة في البلاد، تمكنوا من الهجرة بسرعة إلى أمريكا الشمالية، وإلى شمال أيرلندا - كما فعل أسلافي- وإلى هولندا، وإلى المناطق البروتستانتية في الإمبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة، حاملين معهم مواهبهم المتعددة. وحصدت مقاطعة «براندنبورج- Brandenburg» الانتخابية (التي سميت بروسيا فيما بعد)، وإنكلترا، والمستعمرات البريطانية في العالم الجديد، من الهجرة المفاجئة الواسعة للبروتستانت الفرنسيين الذين هربوا من بلادهم، فوائد جمة، اقتصادية واجتماعية.

وبمجيء نابليون في عقد عام ١٧٩٠، (وعندما أصبح بعدئذٍ إمبراطوراً)،مُنح البروتستانت، واليهود، والجماعات الأخرى غير الكاثوليكية، في فرنسا، حقوقاً مدنية كاملة ودائمة، لايزال الجميع يتمتعون بها حتى الآن. وكما سنرى، فإن فرنسا الآن، دولة يحكمها قانون علماني صارم، إلى حد ما، وتتوافر فيها جميع احتمالات مواجهة أزمة أقلية دينيةجديدة مختلفة ضمن حدودها. فالسكان المسلمون في فرنسا، كما الـ«هوغونوت» قبلهم، لا يترددون في الوقوف بقوة دفاعاً عن حقوقهم، بكل ما تنطوي عليه من مضامين.

خرج الـ«هوغونوت» في نهاية المطاف، خاسرين لسببين: أولاً، لأنهم كانوا أقلية، وتغلب عليهم دائماً، بكل ما للكلمة من معنى، خصومهم، الأكثرية الكاثوليكية ولكنهم خسروا أيضاً حرب الهوية الحاسمة فقد كان ينظر إليهم



دائماً على أنهم أقلية غريبة مقحمة في الوعي القومي الفرنسي، أو وباء، كما سبق أن رأينا، وكذلك آفة يجب التخلص منها كي يبقى الجسم مُعافى. في حرب الـ«نحن» والـ«لا نحن» (وأستخدم هنا لغة علم اجتماع حديث)، «كان الـ«هوغونوت»، لأنهم بروتستانت، يُعرفون بأنهم «لا نحن»، في دولة، لكي يكون المرء فيها مقبولاً في الـ«نحن»، ينبغي أن يكون كاثوليكياً. ولذلك لم يكن بوسعهم أن ينتصروا».

يبدو أن أحداث الثورة الفرنسية العنيفة، ومعارضتها الدين بمختلف أشكاله وبشدة، كانت ضرورية لقبول «البروتستانت» كمواطنين يتمتعون، على قدم المساواة، بحقوق المواطن الفرنسي كاملة. بينما استغرق قبول الفرنسيين اليهود وقتاً طويلاً ففي عقد عام ١٨٩٠، أسفرت قضية «دريفوس» عن عداء شديد للسامية، تلك القضية التي اتُهم فيها ضابط يهودي في الجيش الفرنسي زوراً بجريمة، كادت تؤدي إلى حرب أهلية وساهمت في بقاء اليهود مهمشين وإذا ما نظرنا ملياً في درجة الرغبة العالية للفرنسيين في التعاون الطوعي أثناء حكومة «فيشي» (١٩٤٥-١٩٤٠) في «الهولوكوست» الفرنسي، لبدا واضحاً أن معاداة السامية، كانت بعيدة كل البعد عن التلاشي في ذلك الحين إن واقعة وصول مرشح فاشي عنصري لاحتلال المركز الثاني في انتخابات الرئاسة الفرنسية في عام ٢٠٠٢، والاحتجاجات العنيفة للأقلية المسلمة، والمعاملة السيئة التي قوبلت بها في عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، يدلل كله على أن إمكانية تجاوز صعوبات فرنسا في استيعاب الأقليات الدينية، ما زالت بعيدة المنال.

شهدت ألمانيا حروباً من النوع ذاته طوال أكثر من قرن، وقد بلغت أوجها في حرب الثلاثين عاماً، وهي الحرب الأكثر دموية ووحشية، وقد حدثت بين عامي ١٦١٨ و١٦٤٨. كما نشبت حروب مشابهة في الأراضي المنخفضة حيث كانت مجموعات البروتستانت تحاول أن تتحرر من حكم الإسبان الكاثوليك، وكانت الحرب من أجل الاستقلال تسمى أحياناً حرب الثمانين عاماً. التي كان من



نتائجها، تحول النصف الشمالي من الأراضي المنخفضة إلى ما يسمى الآن هولندا، والقسم الجنوبي الكاثوليكي إلى ما يسمى بلجيكا (ويجب أن أضيف هنا أن طبيعة الحرب في تلك الأيام لم تكن تسمح بأن تستمر طوال الوقت بلا انقطاع، بل كان القتال يتوقف حين كان يتعين على الجنود العودة للعناية بمزروعاتهم، وعندما لا يتوفر المال الكافي لدى الملوك للإنفاق على الجنود المرتزقة الذين تتشكل منهم الجيوش الكبيرة. ولكن النزاع في ألمانيا، كان تاريخياً، يسمى دائماً، حرب الثلاثين عاماً. ويسرني أن أحافظ على هذه التسميات المألوفة. كما أن الحرب في الأراضي المنخفضة كانت تسمى أيضاً، التمرد الهولندي).

في هذه الحروب أيضاً كان الدين جوهر الصراع في معظم تلك الحقبة. في فرنسا لجأ «تشارلز الخامس» عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة وخلفاؤه إلى الأسلوب نفسه فاعتبروا أن عبارة المقدس التي تلي لقبهم تُعدّ جزءاً لا يتجزأ من دورهم كأباطرة.

وهنا، مرة أخرى كانت المسألة تتلخص في: أي نوع من الدول سيكون الجزء الجرماني/ الهولندي من الإمبراطورية الرومانية المقدسة؟ هل سيكون بلداً كاثوليكياً يحكمه إمبراطور كاثوليكي مقدس، تكون سلطته الإمبراطورية معززة في حفل التويج البابوي، (أو بعد تشارلز الخامس، باعتراف البابا رسمياً به)؟ أو هل سيسمح بالتعددية الدينية، ضمن حدود الجزء الجرماني/ الهولندي، بوجود دول كاثوليكية ودول بروتستانتية واحدة إلى جانب الأخرى؟ (إن مجرد فكرة أن يتمكن مواطنون عاديون من القيام باختيار حر بأنفسهم، كانت لاتزال مفهوماً حاسماً جداً في ذلك الجزء من أوروبا، فالحرية الدينية الحقيقية بالمعنى الذي نفهمه الآن، كانت لاتزال ظاهرة بعيدة، أتت في مستقبل متأخر جداً).



لنلقِ أولاً نظرة عامة على القضايا الأكثر أهمية في الحرب بين المسيحيين - دون أن تعيقنا دقائق الحملات وتفاصيل المعارك - ومن ثم نلقي نظرة على الدروس المستفادة منها بعد توقفها في العام ١٦٤٨، وعلى تداعياتها الهائلة التي مازالت بادية لنا حتى القرن الحادي والعشرين، ولاسيما التوتر الديني بين الغرب والعالم الإسلامي عندما أقدم «لوثر» على بادرته المهمة في العام ١٥١٧، كان غرب أوروبا كله، ومعظم وسطها يخضعان بحزم لسلطة الكنيسة الكاثوليكية ونظرياً، كان ثمة حاكمان؛ الحاكم العلماني، وهو عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، الذي يعود لقب قداسته الإمبراطوي، إلى تتويج شارلمان في عام ٨٠٠ من قبل البابا. والحاكم الروحي، وهو البابا نفسه.

ومنذ زمن طويل انفصلت كثير من الدول عملياً، عن الإمبراطورية، كما أن دولاً أخرى مثل بلدان الجزر البريطانية، وكذلك فرنسا وإسكوتلندا، لم تكن جزءاً منها قط وما ندعوه الآن ألمانيا، كان بمنزلة قلب الإمبراطورية- ويجب ألا ننسى أن ألمانيا لم تكن موجودة كدولة قبل سنة ١٨٧٠- التي كانت تضم أيضاً ما يسمى الآن جمهورية تشيكيا- التي كانت تدعى بوهيميا- والنمسا وهولندا وبلجيكا واللوكسمبورغ. كما كانت تضم نظرياً على الأقل، قبل عام ١٦٤٨، سويسرا ومعظم شمال إيطاليا، وجزءاً كبيراً من كرواتيا، وسلوفينيا وغرب بولونيا وشرق فرنسا. ونتيجة لسلسلة من حوادث التوريث، فإن الإمبراطور «تشارلز الخامس» (كارل الخامس في ألمانيا، وكارلوس الثاني في إسبانيا، ولكنني سأستخدم هنا اسمه بالإنكليزية). كان أيضاً ملك إسبانيا، وحاكم جزء كبير من إيطاليا، والنمسا، وهولندا. ومن دون ذكر المستعمرات الإسبانية في أمريكا الجنوبية، كان تشارلز يمثل في أوروبا الحاكم الأقوى منذ عهد شارلمان في القرن التاسع، وربما منذ أيام الإمبراطورية الرومانية التي سقطت في الغرب في عام ٤٧٦.



ولكن على الرغم من ذلك، فإن ممالك مثل فرنسا وإنكلترا كانت مستقلة تماماً عن الحكم الإمبراطوري، وكان وسط أوروبا كله كاثوليكياً، وخاضعاً لسلطة البابا الروحية، كما رأينا حين درسنا الحروب الصليبية.

عندما انقسم كاثوليك وبروتستانت أوروبا في عام ١٠٥٤ كان الأرذوثوكس فيها حينذاك يخضعون إما لسيطرة المسلمين (العثمانيين) أو لسلطة قياصرة روسيا. وهم يعدون دائماً، منذ سقوط القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ وحتى الثورة البلشفية في العام ١٩١٧، الورثة الروحيين للإمبراطورية البيزنطية، بكل ما يترتب على ذلك من نتائج ستكون لها أهميتها في القرن التاسع عشر.

ولكن روسيا - دوقية موسكو وجوارها- كانت بعيدة جداً، لذلك لم تكن الأرذوثوكسية تشكل تهديداً، بل كان الخطر الخارجي الحقيقي هو الإسلام.

يجب ألا ننسى أن العثمانيين عادة ما كانوا، حتى عام ١٦٨٣، متفوقين عسكرياً على أي أمة أوروبية بمفردها، على الرغم من هزيمتهم البحرية في معركة «ليبانتو» في عام ١٥٧١ فقد كانوا في عهد الإصلاح يحكمون هنغاريا كلها تقريباً، ولهذا شكلوا خطراً عسكرياً جدياً على أوروبا الوسطى بأسرها، التي كان حاكمها الإمبراطور «تشارلز» وأخوه «فرديناند»، كما كانت قوى إسلامية أخرى تسيطر على شمال إفريقيا وتهدد «تشارلز» مباشرة، بصفته ملك إسبانيا وحاكم جنوب إيطاليا أيضاً.

على الرغم من أننا سننظر في شؤون البلقان في مكان آخر، لكن يجب ألا يغيب عن بالنا ظل الإسلام الذي خيّم على أوروبا كلها في المراحل الأولى من الإصلاح الديني وفي الواقع هناك، كما أرى، من يجادل، بشيء من المشروعية، بأنه لولا خلفية التهديد الإسلامي المستمر لأوروبا، لما كان «تشارلز الخامس» تسامح مع البروتستانت، ولحاول أن يقضي على الإصلاح الديني في مهده.



ولذلك، بما أنه لم يكن يملك قط، القوة الكافية ليقوم بذلك - على الرغم من أنه أوشك أحياناً، أثناء حروبه الكثيرة في تلك المنطقة، أن يفعل - فيمكن القول، كما أعتقد، إن الظروف هي التي أتاحت نجاة البروتستانت، ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت نجاتهم أمراً مستحيلاً كانت أغلبية سكان ما تسمى الآن النمسا مثلاً، قد اعتنقت البروتستانتية لعدة عقود، ولكن بفضل القوة العسكرية لحكامهم آل هابسبورغ، وجهود جمعيات المبشرين الدينية الكاثوليكية (كالجزويت)، تحول النمساويون ثانية إلى الكاثوليكية، التي مازالوا أوفياء لها حتى الآن.

ولولا التهديد بغزو عثماني كان يلوح في الأفق دائماً، لكان «لوثريو» ألمانيا لاقوا المصير نفسه الذي عانى منه شركاؤهم في الدين في مناطق آل هابسبورغ.

كانت القضية الرئيسة للإمبراطور تشارلز والقيادات الإمبراطورية العلمانية والكنسية، هي أن يكون كل من يولد في أوروبا، بحكم ولادته فيها، كاثوليكياً ومواطناً مسيحياً، وأن تكون أوروبا كلها، على الرغم من انقسامها سياسياً بين إنكلترا وفرنسا والإمبراطورية والدانمرك.. وما إلى ذلك، خاضعة روحياً لسلطة البابا.

ولذلك، عُدّ «لوثر» حين بدأ ثورة الإصلاح، متمرداً دينياً وسياسياً، ليس على المراسيم البابوية وحسب، بل على السلطة الزمنية للإمبراطور سيده الأعلى كذلك باختصار، لم تكن أوروبا مختلفة عن كثير من البلدان الإسلامية اليوم فمنذ ٩/١١ يذكّرنا عدد لا يحصى من الباحثين - وهم على حق - بأنه ليس في الإسلام فصل بين الدين والدولة وما ننساه نحن كذلك، أنه لم يكن ثمة مثل هذا التمييز في الغرب المسيحي أيضاً، في زمن الإصلاح، ولا يمكن المبالغة في أهمية ذلك. فحين ننظر في الإسلام المعاصر، كأنما ننظر في ماضينا. فالفصل بين الكنيسة والدولة، الذي يُفترض أنه أمر مسلم به في الغرب اليوم، هو



تاريخياً مفهوم حديث نسبياً. (إنني أطرح هذا السؤال: هل يمكن أن يُنتخب شخص معروف بإلحاده رئيساً للولايات المتحدة الأميريكية؟ ومنذ متى كانت إمكانية انتخاب رئيس كاثوليكي تعتبر قضية انتخابية مهمة؟).

كانت هذه القضية لاتزال هي الأقوى بالنسبة إلى «تشارلز الخامس» وكثير من معاصريه، فأي شخص لا يكون ولاؤه للكاثوليكية خالصاً، كان يُعدّ خائناً، دينياً وسياسياً على السواء.

ولذلك كان خبراء أكفّاء في الإصلاح مثل «إيوان كاميرون -Euan Cameron» على حق حين أكدوا على الجوانب السياسية فيما حدث. في ذلك الحين لم تكن الإمبراطورية دولة موحدة، وإنما كانت، خليطاً من الإمارات المحلية الواسعة مثل «براندنبورغ» و«سكسونيا»، مسقط رأس لوثر، وسلسلة من الدويلات الإكليريكية التي كان الأسقف أو الأباتي فيها هو السلطة الزمنية والدينية؛ وكذلك كانت خليطاً من عدد كبير جداً من الإمارات الصغيرة، بعضها لا تتجاوز مساحته بضعة كيلومترات مربعة، يحكمها بارونات وفرسان وكوندات، إلى جانب العديد من المدن الكبيرة مثل «فرانكفورت» و«أولم»، إذ كان الولاء في هذه المدن للإمبراطور مباشرة، ولذلك فإنها لم تكن تخضع لأي وسيط، سواء كان دوقاً أو أسقفاً أو أي حاكم آخر.

ولهذا كان هنالك حتى عام ١٨٠٣ مئات من تلك المدن، بعضها صغير وبعضها أكبر، ولكنها كانت جميعها تدين نظرياً بالولاء للإمبراطور.

ولكن عملياً، كان حكام بعض الدول الأكبر يرغبون في أن يكونوا مستقلين يمارسون سلطاتهم، دون تدخل الإمبراطور. بينما أراد «تشارلز الخامس» أن يضع حداً لذلك، أما الأمراء والفرسان فكانوا مصممين على تحقيقه. كان لهذا الأمر أهمية حاسمة، بالنسبة إلى تحقيق الإصلاح، فلولا مساندة الدوقيات والناخبين والفرسان العلمانيين لما كان أمام لوثر أي فرصة للنجاح.



ولكان في الواقع، لقي المصير المؤسف نفسه الذي لقيه، في القرن الخامس عشر، مصلح بوهيميا «جان هس-Jan Hus» الذي حاول القيام بإصلاح مشابه، قبل «لوثر» بقرن أو أكثر ففي عام ١٤١٥ كان يتعين على «هس» أن يمثل أمام الإمبراطور ومجلسه في مدينة «كونستانس -Constance». وعلى الرغم من أنه وُعد بالحماية والمرور الآمن، لكن قُبض عليه، ومات حرقاً بالنار.

كان لوثر في عام ١٥٢١ على وشك أن يلقى المصير نفسه أمام المجلس - أو «الدايت -Diet» كما كان يسمى رسمياً - حين استدعيللمثول أمام الإمبراطور وسلطات الإمبراطورية، المدنية والكنسية، في مدينة «فورمز- Worms» وكان من المُفترض أن يرفض التراجع، بترديد الكلمات التالية: «ها إني أقف هنا، ليس بوسعي أن أفعل أي شيء آخر، سوى أن أرجو الله أن يساعدني..» وسواء أكان رددهذه الكلمات ذاتها أم لم يرددها، يمكن أن نقول إن «فورمز»، هي المكان الذي بدأت البروتستانتية غرس جذورها فيه فعلاً حتى ذلك الحين كان الأمر مجرد مناظرة أكاديمية، وليس تحدياً حقيقياً، ولكن منذ أن ألقي قفاز العصيان في وجه الإمبراطورنفسه وليس سواه، تحول ما كان مجرد حوار ديني، إلى فعل سياسي خطير، ترتب عليه تداعيات علمانية، وعواقب عسكرية قريبة أيضاً.

مما لا شك فيه أن «كاميرن-Cameron» وكتاباً آخرين كانوا فعلاً علىحق بقولهم، لولا التدخل السياسي لما كان ثمة إصلاح (وسبق أن كتبت حول هذا الموضوع في مكان آخر) اختُطف لوثر في «فورمز»؛ اختطفته جماعته، قوات سيده «فريدريك الحكيم» ناخب ساكسونيا وكان مجلس «الدايت» فرض حظراً على لوثر وتعاليمه، ولولا حمايةفريدريك الذي بحث عن لوثر مبدئياً، حرصاً على سلامته، واحتجزه في قلعة «فارتبورغ - Wartburg»، لكان مصيره الموت، كما كان مصير «هس» قبله بقرن ولكن لوثر نجا من الموت، واعتنق كثير من الأمراء ومجالس المدن المفهوم الجديد للمسيحية، رداً



علىمطاردة لوثر وأتباعه، وعلى محاولة كل من البابا والإمبراطور القضاء على الحركة في مهدها.

يؤكد كثير من الكتاب، وأرى أنهم مصيبون، على أهمية اختيار مدن الإمبراطورية الحرة - أي تلك التي تقع خارج الإمارات، وفي أماكن أخرى ضمن الإمبراطورية - للعقيدة الجديدة. وعادة ما كان الاختيار بالإرادة الحرة للناس الميسورين- التجار الأغنياء- الذين لهم حق التصويت. ولكن ما يثير الاهتمام أن اختيار الإصلاح في تلك الأماكن كان قراراً شعبياً محلياً، ولم يكن مفروضاً من الأعلى باختيار الحاكم.

يمكن للمرء أن يجادل، بأن قرار التحول إلى البروتستانتية كان خياراً سياسياً أكثر من كونه قضية دينية في كثير من أنحاء الإمبراطورية، كما في إنكلترا أيضاً - حيث أدخل «هنري الثامن» الإصلاح لكي يحصل على طلاق رفض البابا الموافقة عليه- إلا أن مؤرخين أقدم حرصوا بحماسة أن يبينوا أن الناس البسطاء نبذوا كاثوليكية فاسدة ليعتنقوا بروتستانتية مجددة وحيوية، كما اعتادوا غالباً ألا يأخذوا مثل هذه الأقوال بعين الاعتبار في رواياتهم التاريخية عن الإصلاح.

من المؤكد أن خيار اتِّباع «لوثر» على مستوى القواعد الشعبية، في أوساط الفلاحين والحرفيين والمدن الإمبراطورية الحرة، كان خياراً أصيلاً. ولكنهم في معظم أنحاء الإمبراطورية التي يسيطر عليها حكام، ورثة تقليديون للسلطة، سواء أكان الحاكم من الحكام الأقوياء كناخب ساكسونيا، أم مجرد أي فارس إمبراطوري يملك حصناً ومساحة صغيرة من الأرض، حيث كان يتخذ القرار شخص واحد، وغالباً ما كان القرار خياراً سياسياً يقوم على تنامي شعور قومي جرماني وليد، ضد بابا روما، وكان، في أحيان أخرى، تعبيراً أصيلاً عن تحول روحاني أساسه اعتبارات ذات طبيعة لاهوتية.



إنني أستخدم عبارة قومية على نحو يؤيده كثير من المؤرخين، وبالمقابل يعارضه بشدة كثير من المتخصصين بعلم الاجتماع وسواهم. يميل المؤرخون إلى الاعتقاد بأن المرء لا يمكن أن يفهم الإصلاح بمعناه السياسي إلا إذا اعترف بأن المشاعر القومية كانت قوة كبيرة وفعالة في مطلع القرن السادس عشر في حين يصر الماركسيون وعلماء الاجتماع على أن القومية ليست سوى بدعة من اختراع ما يسمونه حداثة- أي مجتمع حديث كالمجتمع الذي نعرفه الآن - كما يصرون على أن الحديث عن قومية قبل الثورة الفرنسية وقبل العام ١٧٨٩ أمر مستحيل.

بينما حاول المؤرخون، وعدد قليل من علماء الاجتماع الشجعان، مثل «أنطوني سميث» والراحل «أدريان هاستين» استجداء حقهم فيالاختلاف إن ألمانيا لم تكن موجودة كدولة موحدة حتى العام ١٨٧٠، ولكن الألمان كجماعة عرقية وُجدوا منذ آلاف السنين، ولعب الإصلاح، على نحو عارض، دوراً بارزاً، لاهوتياً وسياسياً، وأثّر بقوة في تعزيز الشعور بالانتماء لدى الألمان، أكثر مما كان عليهمن قبل يمكن اختزال تعاليم «لوثر» اللاهوتية بالعودة مجدداً إلى اكتشاف مبدأي العقيدة المسيحية القديمين: «بالإيمان وحده- sola fide»، و«بالكتاب المقدس وحده - sola scriptura» إذ إن هذين المبدأين قلبا كلياً تعليم الكنيسة الكاثوليكية، طوال مئات السنين، رأساً على عقب، وحولا، في الواقع، طبيعة المسيحية على الصعيد العالمي، لأن المسيحية البروتستانتية والكاثوليكية هما الآن، كيانان منتشران في العالم كله، ولهما أتباع في العالم الثالث يفوق عدد أتباعهما في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

المبدأ الأول: «بالإيمان وحده»، أطاح بحقّ الكنيسة الكاثوليكية في أن تقول من يكون مسيحياً ومن لا يكون وعلى الرغم من أن «لوثر» في زمانه، وكذلك أتباعه ممن يسمون «إصلاح التعليم Magisterial Reformation» لم



يفهموا الأمر على هذا النحو، ولكن ترتب على هذا المبدأ أن يكون المرء مسيحياً بإيمانه الشخصي فحسب، نتائج بالغة الأهمية في الولايات المتحدة، حيث حافظت كل من الدولة والكنيسة على استقلالها هذان المفهومان، أي الدين كاختيار شخصي، والفصل التام بين الدولة والكنيسة، يمثلان في الواقع اختلافاً حاسماً بين الغرب والإسلام حتى ذلك الحين كان من يولد في مجتمع مسيحي يعدّ مسيحياً، كما لو كانت المسيحية جنسية وبعدئذٍ لم تعدّ المسيحية مسألة ولادة بيولوجية، وإنما مسألة يقظة روحية، أو ولادة من جديد.

المبدأ الثاني المكتشف مجدداً من المسيحية القديمة: «بالكتاب المقدس وحده»، يعني أن بوسع المسيحيين كأفراد تفسير الكتاب المقدس مباشرة، دون الحاجة إلى كنيسة معصومة تفرض عليهم التفسير. يضاف إلى ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية أقرت أن التعليم التاريخي للكنيسة الذي تطور عبر القرون، يُعد مماثلاً للكتاب المقدس نفسه، ولهذا السبب مثلاً يؤمن الكاثوليك بالعقيدة التي تتعلق بمريم العذراء، بينما يرفضها البروتستانت، ويؤمنون أيضاً بأماكن كالمطهر، ولا يؤمن البروتستانت بوجوده ولهذا السبب ما زال بابا روما حتى الآن يمثل سلطة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بينما توجد أيضاً مئات من فئات الطوائف البروتستانتية، عدد كبير منها في الولايات المتحدة، لا مثيل له في أي مكان آخر في العالم ولهذا يمكن أن يقوم البروتستانت الأمريكيون بعزل هؤلاء سياسياً، مثل «جيم واليس - Jim Wallis» و«جيري فالويل - Jerry Falwell» بينما يتصارع الكاثوليك باستمرار، مع آخر بيانٍ آتٍ من روما، يحدد ما الذي يُفترض أن يؤمنوا به والمبدأ الثاني يعني يعني أيضاً، أن كل شخص يمكن أن يقرأ الكتاب المقدس بلغته، وذلك ساعد على محو الأمية، لأن من يرغب في قراءة الكتاب المقدس، يتعين عليه أولاً أن يتعلم القراءة، كما ساهم، فيما أشار إليه بعض علماء الاجتماع، مثل «بنديكت أندرسون -Benedict Anderson» في كتابه



«مجتمعات مُتخيلة» في ظهور القوميات لاحقاً وعلى الرغم من أن أندرسون يتفق تماماً مع الفكرة القائلة بأن الوعي الذاتي الجرماني يعود إلى قراءة الكتاب المقدس باللغة العامية، فهو يختلف مع الراحل «أدريان هاستينجز- Adrian Hastings» الذي يؤكد في كتابه «بناء القومية - The construction of nationalhood» أن القومية ظهرت في ألمانيا آنذاك، إلا أن تلك الظاهرة كانت موجودة منذ زمن طويل في بلدان أخرى مثل إنكلترا وفرنسا أما في ألمانيا، فواقعة أن يكون المرء ألمانياً، يقرأ نصوص ديانته المقدسة، أي الكتاب المقدس، بلغته الخاصة الألمانية، أدى إلى تحول كبير في الوعي الوطني الجرماني، الذي لم يكن، في الواقع، موجوداً من قبل.

بقيت ألمانيا مجموعة كبيرة من إمارات صغيرة وأبرشيات ومقاطعات ودويلات مشابهة، يدين كل منها بالولاء للرئيس المحلي، وتخضع نظرياً لقداسة عاهل الإمبراطورية الرومانية المقيم بعيداً في فيينا. ولكن كان لها حينذاك كتاب مقدس باللغة الألمانية، كُتب بلغة عامية واحدة، يستخدمها جميع الألمان للقراءة، في حين كانوا لايزالون يتكلمون عدداً كبيراً من العاميات المحلية شعور المرء بأنه لم يكن مواطن بافاريا أو بروسيا أو أي ناحية أخرى، أدى ببطء إلى نشوء مواطنية جرمانية إلا أن دولة ألمانيا الواحدة لم يكن لها وجود قبل عام ١٨٧٠. باستثناء فترة ما بين عامي ١٩٣٨ و١٩٤٥ أثناء حكومة هتلر. ولم تتحد النمسا، الدولة التي تتكلم الألمانية قطّ مع أي كيان سياسي من أجزاء ألمانيا. (وكانت سويسرا التي تتكلم الألمانية منفصلة طوال قرون). ولكنالوعي الجرماني نما ببطء، ليصل إلى مد تصاعدي مريع ودموي أثناء الرايخ الثالث في القرن العشرين. وحل في نهاية المطاف محل الولاءات البروتستانتية في الشمال ومثيلتها الكاثوليكية في الجنوب، ووصل إلى النتائج التي نعرفها جميعاً.



أرى أن ذلك كله يعود إلى الإصلاح الديني، وإلى أهم نتائجه غير المقصوده، وهي نشوء القومية وهذا أمر له علاقة وثيقة بكتاب كهذا يبحث في تاريخ الحروب الدينية وأقول باختصار: إن هوية الأشخاص، حتى نهاية حرب الثلاثين عاماً كانت هوية دينية. وفي أيامنا هذه، لدينا أوروبا المعلمنة، حيث وجد المواطنون العاديون وقياداتهم السياسية، صيغاً أخرى لتعريف هويتهم هم أنفسهم وهوية وحدة ولائهم السياسي معاً، التي أصبحت الآن، بعد أن تغير الزمن: الدولة الوطنية تستطيع القومية التي تمكنت في كثير من الحالات أن تحل محل الدين، أن تكون مركز استقطاب سائر الولاءات ولهذا السبب أميل إلى الاعتقاد بأن المؤرخين على حق حين يقولون إننا في أوروبا الغربية، لم نشهد بعد انتهاء حرب الثلاثين عاماً في عام ١٦٤٨ حروباً دينية ذات أهمية تذكر.

إلا أن الأمر لم يكن كذلك في أوروبا الشرقية فالدين كان فعلاً سمة أساسية للهوية التي فرضتها الإمبراطورية العثمانية، لأن الفصل بين الكنيسة والدولة، الذي نشأ في القرون التي تلت الإصلاح، في غرب أوروبا ووسطها، لم يكن له وجود قطّ، سواء بالنسبة إلى العثمانيين أو إلى رعاياهم المسيحيين كان تأثير البروتستانتية، على المدى الطويل، يعود بفوائد كبيرة على مناصري حقوق الإنسان والحرية، وعلى الذين لا يؤمنون بأي دين أيضاً في زمن ما بعد عصر التنوير. لأن الناس في عصر التنوير بدؤوا يدركون في القرن الثامن عشر أن المرء يمكنه أن يختار تأويله الخاص للمسيحية، وأن البروتستانتية في ذلك الحين انقسمت إلى لوثريين وانجليكانيين وكالفنيين ومعمدانيين، وإلى مجموعات صغيرة أخرى، بعضها في إنكلترا، على الأقل، كان راديكالياً جداً في السياسية، وكان ممكناً ألا يختار المرء أي دين. إن تحمل الانشقاق الديني، كما دلل بوضوح «لامين سانيه -Lamin Sanneh»، الإفريقي المسيحي، أستاذ جامعة «يال»، وحق المرء في أن يكون ملحداً، لهما جذور بروتستانتية قوية. كما أن عصر التنوير الذي يتطلع إليه بالشكر والامتنان كثير من اللاأدريين والملحدين



الليبراليين، هو في الواقع ميراث مباشر من الإصلاح، على الرغم من أنه لم يكن متوقعاً أو مقصوداً. ولولا تحدي لوثر للسلطات العلمانية والكهنوتية في عصره، لما كنا نتمتع في الغرب الآن بما حصلنا عليه من الحريات الدينية وحرية الضمير.

وأقول بعبارات أخرى على الرغم من أن كثيراً من العلمانيين قد يختلفون معي؛ لولا الإصلاح لما كان ثمة عصر تنوير، وبالتالي عصر حديث فالحداثة ابنٌ غير شرعي لحدث ديني، وفكرة يرفضها العلمانيون رفضاً قاطعاً، إلا أنني أرى أنها نظرية تتفق والمنطق التاريخي السليم. وهذه مسألة تتسم بالأهمية، واعتقد أننا إذا تمكّنا من إقناع المسلمين المجددين ومحبّي السلام، بأن الغرب، في الواقع، لا يقوم على أسس علمانية، بل دينية- بما في ذك طبعاً حرية رفض الدين كليّاً- فلن يصعب عليهم عندئذٍ قبول الحضارة الغربية، وبالأحرى، سيكونون على استعداد للوقوف إلى جانبنا ضد المتطرفين الذين يعيشون بينهم، ويريدون لنا أن نعود جميعاً إلى العيش في ظل خلافة إسلامية حيث لا يُسمح فيها بممارسة أي شكل من أشكال حرية الرأي.

أدى قرار مارتن لوثر، بتحدي سلطة البابا والإمبراطور، إلى انشطار مسيحية الغرب إلى قسمين، كاثوليكي وبروتستانتي ولم يلتئم هذا الانشطار قط، ومن المستبعد جداً أن يلتئم بمسيحية أصبحت الآن ديانة عالمية، أحد شطريها، الجانب البروتستانتي، الذي يُحتمل أن يكون له آلاف التسميات المتعددة من مختلف الأنواع والأحجام.

إن لوثر ومصلحون آخرون مثل «كالفن - Calvin» (فرنسي اتخذ من جنيف قاعدة له) و«زوينغلي-Zwingli» (سويسري اتخذ من زوريخ قاعدة له)، كانوا جميعهم يؤمنون بأن الحاكم، أو القاضي في أدنى مراتبالقضاء، له حق في فرض ممارسات دينية حقيقية على الناس. وفي منطقة مثل «سكسونيا» حيث



عاش لوثر، كان الحاكم يمارس هذا الحق، وفي مدن مثل جنيف أو زوريخ كان يمارسه مجلس البلدية المحلي المنتخب ديموقراطياً.

إلا إن البابا والإمبراطور رفضا التخلي عما كانا يشعران بأنه من صلاحياتهما المطلقة يمكن أن يفكر ناخب «سكسونيا»، ومجلس بلدية زوريخ، أنهما يتمتعان بسلطة تقرير ما يجب أن يؤمن به رعاياهما، ولكن بالنسبة إلى قادة الكاثوليكية بقيت المسيحية واحدة وغير مقسمة.

أدى ذلك إلى نشوب حروب أوروبا، التي استمرت أكثر من مئة عام، حروب يحتمل أن يكون ضحاياها ملايين الأشخاص الذين لاقوا حتفهم في المذابح التي حدثت خلال تلك المدة.

لعله ليس من الضروري أن نلقي نظرة على آلاف الحروب الصغيرة التي لا تحصى، والتحالفات والأحداث الأخرى التي وقعت في أوروبا الوسطى -ولا سيما فيما يسمى ألمانيا وهولندا الآن- في الفترة التي سبقت الحرب الكبرى التي اندلعت في عام ١٦١٨ يدين البروتستانت ببقائهم، كما رأينا، ليس للنبلاء ذوي الاتجاهات القومية وللمدن الإمبراطورية الحرة فحسب، وإنما للوضع المالي المتعثر للإمبراطورية، ولاسيما زمن الإمبراطور «تشارل الخامس»، الذي كان يعاني وهو في أوج سلطته من شح إمكاناته المالية والعسكرية المحدودة جداً، بسبب حاجته المستمرة إلى التصدي لأي تقدم للعثمانيين قد يؤدي إلى التسلل مرة أخرى إلى إسبانيا، أو الدخول إلى النمسا وقلب أوروبا، من المناطق المحتلة في هنغاريا نحن نعرف اليوم، أن حصار فيينا في عام ١٥٢٦ وفي عام ١٦٨٣ أظهر أن وسط أوروبا سيبقى في الواقع آمناً من غزو الجيوش الإسلامية، التي لم تكن تعرف ذلك آنذلك؛ وأن تهديد القسطنطينية، والتكلفة الباهظة لبقاء العثمانيين على أهبة الاستعداد، ساعد



المناطق البروتستانتية في ألمانيا، أحياناً، أن تبقى حرة على الصعيدين الديني والسياسي.

تمكّن البروتستانت في عام ١٥٣٢ من أن ينتزعوا من الإمبراطور اتفاقاً لإحلال التسامح -سلام نورمبورج- في الوقت الذي كان فيه مجبراً على الدفاع عن مملكته ضد الأتراك ولكن، لما كان يتعين على العثمانيين حينذاك أن يخوضوا حروباً ضد الفرس، تمكن الإمبراطور «تشارلز الخامس» من أن ينتصر، ليس على القوات الإسلامية وحسب، وإنما على المناطق البروتستاتية في مملكته أيضاً. إلا أن المجموعات البروتستانتية تمكنت في الوقت المناسب من أن تمتلك القوة الكافية، في نهاية المطاف، لإجبار الإمبراطور على التوصل إلى اتفاق دائم لإحلال التسامح. ذلك كان اتفاق سلام «أوغوسبورغ» في العام ١٥٥٥، الذي حدد مضمونه الخريطة البروتستانتية/الكاثوليكية، في ألمانيا التي بقيت كما هي حتى في القرن الحادي والعشرين، فالأجزاء التي كانت آنذاك بروتستانتية (ولاسيما في الشمال) بقيت كما كانت، والأجزاء التي كانت كاثوليكية، (لاسيما في الجنوب) بقيت كما كانت أيضاً وكان الحكام (أو المجالس في المدن الإمبراطورية الحرة) يتمتعون بحق اختيار الطائفة المسيحية التي يرغبون في اتباعها وهذا في جوهره ترجمة لمبدأ: لكل مملكة دينها.

لذلك، فإن الحكام والسكان الذين يحالفهم الحظ ويعيشون في المدن الإمبراطورية الحرة، يتمتعون بالحرية الدينية. إلا أن تلك المدن لا تتسع للسكان العاديين. فلو كان أحدهم كاثوليكياً مثلاً، ويعيش في «براندنبورج»، أو لوثرياً ويعيش في «بافاريا»، لكان لحاكم المدينة على الأقل الحق بمطاردته، وفي الحدود القصوى، الحكم عليه بالموت. فحرية الأمراء، لا تعني حقوقاً مماثلة في الحرية لمواطنيهم.



كما لا تعني حقوقاً مماثلة في الحرية للجماعات المختلفة البروتستانتية الأخرى أيضاً. لم تمنح الحرية الدينية «للكالفنيين» مثلاً، وبمضي الزمن تحول عدد كبير من الحكام البروتستانت إلى الكالفنية. كما لم يتمتع بالحرية الدينية أي من «مجددي المعمودية -anabaptista».

ولما كان هؤلاء لا يؤمنون بما يصفه المؤرخون «بالإصلاح الجذري»، أي أن يكون الفصل بين الكنيسة والدولة فصلاً تاماً، انتهى بهم المطاف إلى أن أصبحوا مطاردين من قبل الجميع، وفي «مونستير» المدينة التي سيطروا عليها لمدة وجيزة تعرضوا للذبح كذلك (أعضاء طائفة «المينونايت - Mennonits» الأمريكية اليوم هم الأبناء الروحيون، وأحياناً المنحدرون المباشرون تاريخياً من طائفة «مجددي التعميد»- المعمدانيين، ويختلفون قليلاً عن فرع البروتستانت ذي الأصول الإنكليزية غالباً).

تنازل «تشارلز الخامس» عن العرش في عام ١٥٥٦، وكانت مهمته استعادة عرش «شارلمان» وتوحيد المسيحية المتداعية. خَلَفَه على عرش الإمبراطورية الرومانية شقيقه «فرديناند» الذي بذل ما في وسعه لاجتثاث البروتستانتية من النمسا التى يحكمها «آل هابسبورغ» مباشرة، ومن إسبانيا وإيطاليا وهولندا التي يحكمها ابنه فيليب الذي اشتهر باسم البغيض فيليب الثاني ملك إسبانيا.

فيليب الذي كُتبت عنه قصص سوداوية شهيرة، فهو الطاغية الذي عمل كل ما في وسعه للقضاء على سائر أشكال المعارضة حيث وجدها، كما استخدم قوى محاكم التفتيش الأسطورية للحكم بالموت حرقاً على البروتستانت الهولنديين، وعلى ذوي الأصول اليهودية أو الـ«مورو». وهو أيضاً معروف بمحاولته غزو إنكلترا من البحر في عام ١٥٨٨، ولكن فشل محاولة الأسطول البحري كانت هزيمة عسكرية مضاعفة، ساهمتفيها البحرية



الإنكليزية من جهة، والأنواء أيضاً، حيث هبت عواصف متتالية، عزتها الملكة اليزابيث الأولى ورعاياها، إلى القدرة الإلهية   ولكن على الرغم من أن المرء لا يمكن أن يحذو أبداً حذو بعض المؤرخين الشجعان، في الدفاع عن طغيان واضطهاد من هذا النوع، أو تبريره، إنما من المفيد أن يتذكر أن ثمة وجه آخر للمسألة   كانت «باليول - Balliol»، كليتي في جامعة أكسفورد، تقع قرب النصب التذكاري للشهداء، وهو المكان الذي نُفذ فيه حكم الإعدام حرقاً في مواقد النار، في عدد كبير من البروتستانت في العام ١٥٥٠، في عهد الملكة المتعصبة (والنصف إسبانية)، «ماري الأولى» التي يتذكر الناس استبدادها، وقد كانت، لفترة وجيزة، متزوجة من ابن عمها فيليب ملك إسبانيا. لقد كان «جون مايكليف -John Mycliff» من الرواد الأوائل للبروتستانتية في أواخر القرون الوسطى نائب مدير كلية «باليول»، ونجا لحسن حظه، بفضل الحماية السياسية التي تمتع بها، من أن يكون مصيره كمصير معاصره الأوروبي «جان هس -jan Hus» الذي مات حرقاً في موقد النار.

كانت كليتي في كامبريدج مؤسسة كاثوليكية رومانية، في عام ١٨٩٦ بعد زمن طويل من اتفاق التسامح مع الكاثوليك، ولكي أصل إليها كنت أمرّ أمام كنيسة سيدتنا البتول ونصب الشهداء الإنكليز الذين كانوا جميعاً كاثوليك، وقد أعدموا في عهد الملكة إيزابيل الأولى، التي أرست البروتستانتية فعلاً ديانة لأغلبية الشعب الإنكليزي.

غالباً ما كانت زوجتي تحاضر في بلدة «بيدفورد - Bedford» البريطانية التي ينتمي إليها «جون بونيان - John Bunyan» مؤلف الكتاب التقليدي «تقدم الحاج -Pilgrim's Progress»، وقد كان بروتستانتياً ولكن في الطائفة الخطأ التي ليست من كنيسة إنكلترا لذلك حُكم عليه بأن يقضي سنوات عديدة من عمره في السجن   وفي الواقع، لم تنعم معظم أوروبا في تلك الحقبة، وحتى عقد عام ١٦٨٠، بحرية التدين، بالمعنى الذي نفهمه اليوم، على الرغم من



توفر التعدد الديني كان انتماء المرء إلى الطائفة الخطأ من المسيحية يمكن أن يودي به إلى التهلكة، وأحياناً إلى ميتة مريعة ألوف الناس ماتوا حرقاً في مواقد النار، كما مات المعمدانيون غرقاً بالماء لأنهم يؤمنون بالمعمودية، وغالباً ما نُفذ فيهم حكم الموت بطريقة فظيعة غرقاً بالماء وبسخرية متعمدة.

ثمة أمران جعلا كل شيء مختلفاً، الأول حرب الثلاثين عاماً، أما الثاني بعدئذٍ، فهو شعور الناس في كثير من أنحاء أوروبا بأن مثل تلك المجزرة والكارثة الاقتصادية يجب ألا يُسمح بأن تتكرر ثانية وفضلاً عن ذلك، بدأ ينفتح سبيل آخر للخلاص: ألا وهو سبيل العالم الجديد، لكن لم تكن الحرية الدينية مضمونة دائماً، حتى هناك، إلا أن الأمور أخذت تتغير شيئاً فشيئاً.

إن الأمر الرئيس الذي يجب أن نتذكره عندما ننظر في الخطوط العريضة لحرب الثلاثين عاماً هو: أن الدينيَّ سياسيٌّ. بلدان بروتستانتية تحارب بلداناً كاثوليكية، بهدف أقصى هو تحقيق انتصار ديني. ما غيّر كل شيء، كما أعتقد، هو أن الدوافع كانت تتعلق بسلالات حاكمة ومصالح وطنية فرنسية خالصة، قادها طوال معظم مراحل النزاع الكاردينال الكاثوليكي «ريشيليو»، الذي حالف البروتستانت بدافع كراهية الفرنسيين طويلة الأمد لسلالة «آل هابسبورغ» (الكاثوليكية أيضاً). مساعدتهم للقوى المناهضة للإمبريالية بدأت حوالي عام ١٦٣٢. وهناك من يؤكد، لأسباب وجيهة، كما يبدو لي، أن هذا كان بمنزلةنهاية الحرب الدينية الخالصة في أوروبا. على الرغم من أنني يمكن أن أضيف، أن تلك الحرب استؤنفت ثانية بقتال الأرذوثوكس والمسلمين في البلقان، وبالحروب الدينية ثلاثية الأطراف (كاثوليك، ومسلمين، وأرذوثوكس) في يوغوسلافيا السابقة قبل عقد عام ١٩٩٠.



ومما لا شك فية أن كثيراً من المشاركين في النزاع، من كلا الطرفين، بقيت أسبابه دينية راسخة طيلة الثلاثين عاماً، ويجب ألا ننسى ذلك حين نفكر في القرار الفرنسي الذي كانت دواعيه سياسية، وليست كاثوليكية / أرذوثوكسية.

في القرن الخامس عشر، اعتنق كثير من المواطنين التشيكيين، في ما كانت تسمى حتى عام ١٩١٨ مملكة بوهيميا، تعاليم «جان هس»، المصلح البوهيمي الشهيد، الذي يمكننا أن نسميه اليوم، بأثر رجعي، بروتستانتي. كان يحكم بوهيميا، كمعظم أنحاء وسط أوروبا، ملوك غرباء، عادة ما كانت لهم أملاك واسعة جداً في أنحاء أخرى، حيث كانت الدولة واحدة من أجزاء أخرى من ممتلكاتهم الواسعة (ونتيجة لذلك كان كثير من الأشخاص الذين ليسوا من التشيك يعيشون في المملكة، التي كانت حتى القرن السابع عشر تضم أجزاء من ألمانيا وبولونيا أحد أسباب الحرب العالمية الثانية كان وجود ما يسمى «ألمان السوديت» التي أصبحت تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩١٨) لبعض الوقت كان للبوهيميين ملك تشيكي اسمه «جورج باديبرال - George Padiebral»، وقد طوروا في القرن الخامس عشر طائفة الـ«يوتراكيست - Utraquist»: وهي فرقة دينية، ليست كاثوليكية، ولكنها في كثير من النواحي تتبع أثناء تناول القربان المقدس، مظاهر أوسع مما تسمح به تعاليم الكاثوليكية الرسمية. في القرن السابع عشر كان معظم البوهيميين بروتستانت - ومن بينهم عرقيات ألمانية وبولونية إضافة إلى التشيك أيضاً- ولكنهم كانوا لايزالون يستخدمون شعار الـ«يوتراكيست»، لأسباب قانونية، لأن السلطات تسمح للطائفة بالعبادة، ولكنها تقبل على مضض، ممارسة طقوسها كان يحكم بوهيميا نظرياً منذ عام ١٥١٦ ملوك كاثوليك من «آل هابسبورغ»، ولكنها كانت في عام ١٦١٨ تضم عدداً كبيراً من البروتستانت الذين يتمتعون جميعاً بحق ممارسة حريتهم الدينية، خلافاً للمناطق ذات الأكثرية الجرمانية التي تعد جزءاً من أملاك «آل هابسبورغ».



بقي وسط أوروبا أشبه ما يكون ببرميل بارود. ففي عام ١٦٠٨ شكّل الأمراء البروتستانت فيما يُعرف بألمانيا الآن، تحالفاً عسكرياً دفاعياً سموه الاتحاد الإنجيلي أو (البروتستانتي)، وعبارة إنجيلي باللغة الألمانية تعني ببساطة، «لوثري»، ولكنها في ذلك الحين، كانت تعني البروتستانت جميعهم. كان رئيس «الاتحاد الإنجيلي» الكالفني ناخب البلاط، أحد الحكام الناخبين البارزين السبعة الذين ساعدوا على انتخاب قداسة عاهل الإمبراطورية الجرمانية الرومانية. كان فريدريك، الذي أصبح ناخب بلاط في ذلك الحين أيضاً، صهر ملك بريطانيا «جيمس الأول» وكان يأمل - وثبت أنه مخطئ - بأن الأمور، ما إن تتخذ منحى سلبياً، حتى تبادر بريطانيا إلى إرسال قوات لمساعدة البروتستانت الألمان. وصل في الواقع، بعض المرتزقة إلى بلاط فريدريك، ولكن بصورة غير رسمية وبما لا يؤدي إلى أي تغيير يذكر.

شكّل النبلاء ناخبو البلاط واحداً من فروع أسرة «ويتلسباك-wittelsbach» الملكية القديمة - الذي مازال موجوداً حتى اليوم-أما الفرع الآخر فرع أمراء دوقيات «بافاريا»، فقد كانوا من الكاثوليك المتعصبين. وفي النزاع الذي نشب بعد ذلك، تعيّن على الدوق «ماكسيميليان» أن يثبت من بعيد، أنه واحد من أكثر الأمراء الألمانالقادرين على القيادة ولكن على الرغم من أنهم كاثوليك، كانوا يؤمنون أيضاً بحق الأمراء في الوقوف ضد أي عمل مفرط من أعمال السلطة يقوم به الإمبراطور، وكان هذا في نهاية المطاف يكتسب أهمية تضاهي سلطة الإمبراطور بادرت بافاريا في عام١٦٠٩ إلى إنشاء جامعة كاثوليكية تضاهي سلطة الاتحاد الإنجيلي، وأصبح الإمبراطور حينئذٍ أمام قوتين مسلحتين، وصار الوضع خطيراً جداً.

واجه «آل هابسبورغ» في عام ١٦١٨ أزمة أسَريّة نجم عنها أزمة روحيةوسياسية، أسفرت بدورها عن نتائج مأساوية في بوهيميا أولاً، ومن ثم أدت، طوال الثلاثين عاماً التالية، إلى نتائج أخرى عسكرية ودموية أشد



بشاعة، في جزء كبير من أوروبا لم تكن بوهيميا مملكة ذات أهمية وحسب، بل كانت آنذاك أكبر بكثير من جمهورية التشيك اليوم. كما كانت أحد ناخبي الإمبراطور السبعة، حيث كان يحق لملك بوهيميا أن يكون أحد أعضاء هيئة الناخبين. في عام ١٦١٨، كما كان الحال منذ القرن الرابع عشر، كان الناخبون سبعة:

ثلاثة من رجال الكهنوت «ماينز- Mainz» و«ترايرـ Trier» و«كولونيا - Cologne». وأربعة من العلمانيين أو المدنيين «براندنبورج - Brandenburg» و«البلاط - The palatinate» و«ساكسونيا - Saxony» و«بوهيميا - Bohemia». وطالما كانت بوهيميا خاضعة «لآل هابسبورغ» الكاثوليك، فإن صوتها، إضافة إلى أصوات الناخبين الأساقفة الثلاثة، كان يضمن وجود أكثرية كاثوليكية دائمة من الناخبين السبعة، لأن الثلاثة الباقين علمانيين من البروتستانت، وإذا أصبحت بوهيميا بأيدي البروتستانت، فسينتقل منصب الإمبراطور إليهم في أول انتخابات تالية، وذلك يعد بمنزلة كارثة كارثة تحل بالكاثوليك.

كان مجلس الـ«دايت» بوهيميا قد وافق في عام سابق، على أن وارث عرش «آل هابسبورغ»، «فردیناند أرشدوق ستيريا- Archduke Ferdinand of Styria» - ستيريا اليوم جزء من النمسا- يمكن إعادة انتخابه ملكاً عليهم.

فالمنصب، نظرياً على الأقل، يُشغل بالانتخاب وليس بالوراثة وكان عاهل الإمبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة «ماتياس- Matthias» طاعناً في السن، وأبتر لا أبناء له، مثلما كان سلفه أيضاً الإمبراطور «رودولف الثاني - RudolfII» الذي قضى جزءاً كبيراً من حياته منعزلاً في براغ، ومهتماً بالعلوم السرية أكثر من اهتمامه بالحياة الحقيقية كان «رودولف» و«ماتياس» كاثوليكين، ولم يدعما بالشدة الواجبة القوى المناهضة للإصلاح، التي



حاولت استعادة الكاثوليكية إلى أوروبا وكان فرديناند، من جهته كاثوليكياً متعصباً ومديناً بتكوينه الروحي إلى اليسوعية التبشيرية المتشددة، التي هيمنت على القوى الكاثوليكية الضاربة.

ولما كان «ماتياس» يفتقد الولد الذكر وارث العرش، طلب من مجلس الـ«دايت» إعادة انتخاب «فريدريك» ملكاً، وتم انتخابه في عام ١٦١٧.

وعندئذٍ، في عام ١٦١٨ سرعان ما أدركت الأكثرية البروتستانتية النتائج: التنفيذ الكامل لمناهضة الإصلاح في بوهيميا، وربما بوساطة اليسوعية، ومن ثم مطاردة عقيدة الـ«يوتراكيست» قرر البوهيميون في نهاية المطاف، بعد كثير من المكائد، انتخاب ملك بروتستانتي جديد واستناداً إلى وهم خاطئ بأن بريطانيا ستساعدهم، انتخبوا الناخب «فريدريك» صهر «جيمس» (ولاختصار تاريخ طويل نذكر أن الأسرة الملكية البريطانية حالياً، تنحدر من إيزابيل، زوجة «فريدريك»، وابنة «جيمس» الذكية، وذلك لأن ابنتها الصغيرة ستكون بعد عقود، الوارثة البروتستانتية الوحيدة للعرش من أسرة «ستيوارت». والملك سيئ الطالع «جورج الثالث»، والملكة الحالية التي تدعى إيزابيل أيضاً، ينحدران مباشرة منها).

ارتكب «فريدريك» بعد ذلك حماقة الموافقة دون أن يحظى بالدعم العسكري اللازم للحفاظ على بقائه في السلطة. مات «ماتياس» في عام ١٦١٩، وأصبح «فريدريك» عاهل الإمبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة الجديد. (كان عدم الاعتراف «بفريدريك» ملكاً يعني أن «فرديناند» صوّت لنفسه، لأن الكاثوليك، وفق حساباتهم، لهم أكثرية أربعة أصوات مقابل ثلاثة.

ثمة أمر مهم في تلك الحقبة يجب أن نتذكره، وهو عدم وجود جيوش نظامية دائمة، لجميع المقاصد والأغراض بل كان يجب استدعاء القوات بصورة



خاصة، وكان ذلك يتطلب نفقات باهظة، ولهذا كان كثير من الحكام يحل المشكلة باستخدام آلاف المرتزقة، وهذا أيضاً يتطلب نفقات أكبر.

قضى «فريدريك» و«إيزابيل» شتاء عام ١٦٢٠/١٦١٩ في براغ، وبذلك حصلا على لقب «ملك وملكة الشتاء». ولكن كان ضعف قواته مثيراً للشفقة إذا ما قورنت بالجيوش التي تمكن الإمبراطور من جمعها في زمن قصير.

وعلى الرغم من أن أداء قوات «فريدريك» كان حسناً في البدء، إلا أنه لم يكن شيئاً يذكر، أمام جيش الكاثوليك الإمبراطوري بقيادة الكونت «تيللي»، حين بدأت المواجهة، في نهاية المطاف.

(كان ناخب «ساكسونيا» البروتستانتي لوثرياً، وليس كالفينياً، ولهذا كان يكره «فريدريك». وقد تمكن الإمبراطور «فرديناند» من رشوته بأن قدم له «لوزاتيا» المقاطعة البروتستانتية الجرمانية التابعة لبوهيميا، التي أصبحت في الوقت المناسب جزءاً من ساكسونيا، وخسرتها بوهيميا نهائياً. إلا أن الحرب التي نشبت في ذلك الحين كانت بالفعل حرباً بين كاثوليك وبروتستانت).

هَزم «تيللي» القوات البروتستانتية الهشة، في معركة الجبل الأبيض (سُمي أحياناً، التل الأبيض) التي جرت في عام ١٦٢٠، خارج براغ مباشرة. وبدا كأن تمرد التشيك وصل إلى نهايته، وبانتهائه قضي على القضية البروتستانتية، وكأنه تعين على «فريدريك»، ألا يفر من بوهيميا وحسب، بل وأن يتخلى أيضاً عن مناصبه في البلاط إلى أقربائه البافاريين تنقسم حرب الثلاثين عاماً تقليدياً إلى مراحل في المراحل الثلاثة الأولى منها كانت الحرب، كما أرى، حرباً دينية بطبيعتها. وفي المراحل التالية، من حوالي عام ١٦٣٥ إلى عام ١٦٤٨ كانت أول حرب بين أسر مالكة حديثة، ولم تكن في الواقع، حرباً دينيةً إطلاقاً.

في المرحلة الأولى، كان تمرد بوهيميا الأصلي، وقمعه بلا رحمة.



أدخل «فرديناند» مناهضة الإصلاح إلى بوهيميا، بأقصى قسوة اليسوعية الطامحة إلى مناهضته. جميع النبلاء البروتستانت صودرت أراضيهم، وسلمت إلى أسر كاثوليكية غالباً ما كانت من خارج المملكة، واحتفظت بملكية تلك الأراضي حتى القرن العشرين، عندما استقلت تشيكوسلوفاكيا أولاً، ومن ثم أتت الشيوعية بعد عام ١٩٤٨ وقضت على السيطرة الأجنبية. وانتقلت بوهيميا من بلد ذي أغلبية بروتستانتية، إلى بلد كاثوليكي هو اليوم جمهورية التشيك.

المرحلة الثانية للحرب، لا يعنينا الاهتمام بتفاصيلها كثيراً، ولكن يلاحظ فيها بروز القائد العسكري البوهيمي الشهير، الذي يُدعى عادة «فالنشتاين- Wallenstein» على الرغم من أن اسمه يكتب باللغة التشيكية «Waldstejn». وبقادة مثل «فالنشتاين» و«تيللي» و«برنارد اوف ساكس - فيمار» من الجانب البروتستانتي، أصبح وسط أوروبا أشبهما يكون ببيداء مقفرة. كان جنود الجيوش المرتزقة الذين يحتاجون المال والطعام، يستولون على كل ما يحتاجونه، بالضغط عادة أو النهب والاغتصاب والقتل، حيث يجدونه في القرى التي يحتلونها ثم ينهبونها.

ولا شك أن ذلك كان حال الناس العاديين التشيك والألمان، طوال ثلاثين عاماً من رعب لا يُتصور لم يشهدوا له مثيلاً، حتى المجازر الأسوأ التي شهدها القرن العشرين كانت الحرب، حتى ذلك الحين، لاتزال، إلى حد بعيد، نزاعاً دينياً صرفاً. في عام ١٦٢٩ كان يبدو أن الإمبراطور والجانب الكاثوليكي، في الواقع، يحققان انتصاراً ويتمتعان بتفوق عسكري كامل. كان ثمة مناطق بروتستانتية مثل «فورتنبرج -Wurttenberg» في الجنوب، و«ميكلنبورج - Mecklenburg» في الشمال، قد أصبحت حينئذٍ خاضعة لاحتلال عسكري كاثوليكي. ووفق مرسوم إعادة الأملاك إلى أصحابها لذلك العام، كانت جميع مكاسب البروتستانت من أملاك الكهنوت، ومن الأراضي المستولى عليها منذ



عام ١٥٥٢، يجب أن تعاد بالقوة إلى الكاثوليك. وكان وضع البروتستانتية آنئذٍ في قلب ألمانيا، أي موطنها الأصلي، حرجاً جداً.

أصبحت الحرب عندئذٍ حرباً دولية، ودخلها ملك السويد البروتستانتي «غوستافوس أدولفوس-Gustavus Adolphus»، بصفته «أسد الشمال».

وفي عام ١٦٣٠، حين كان يبدو أن وضع البروتستانت أصبح ميؤوساً منه، إلا أن التدخل الخارجي غيّر مسار الحرب كان «غوستافوس أدولفوس» قد قضى وقتاً طويلاً في حرب ضد أبناء عمه من سلالة «آل فاسا-Vasa» ملوك بولونيا الكاثوليك، محاولاً أن أن يحول دون استيلاء الكاثوليكية على العرش السويدي وفي عام ١٦٣٠ وجد أن من صالحه أن يتدخل في الفوضى السائدة في جنوب أملاكه، في الإمبراطورية، فأقدم على التدخل انتقاماً.

كان عاهل السويديين قائداً فذاً، كما كان لديه جيش قدير خاص به، لذلك تمكن من القضاء على الإمبراطورية خلال سنتين كان الوضع قد تغيّر في عام ١٦٣٢ وبدا أن البروتستانت سينتصرون، بينما كان الكاثوليك، وإن لم يُهزموا، في حالة بالغة السوء.

ليس هذا وحسب، بل إن «غوستافوس أدولفوس»- الذي كان بروتستانتياً متديناً، ويعتقد أنه لا يحارب من أجل مصالح سويدية، وإنما من أجل البروتستانتية عامة- كان رأيه بالتسامح الديني مختلفاً جداً عن الرأي السائد حتى ذلك الحين، سواء في مناطق البروتستانت أو الكاثوليك.

لنتذكر المقولة اللاتينية: «Cuius regio eius religio» التي تعني: «دين الأمير يكون دين سكان الإمارة جميعهم» لقد رأينا أن ذلك، على الرغم من أنه بدا حلاً جيداً، إلا أنه لم يساعد الكاثوليك الذين يعيشون في «براندنبورج» بشيء، مثلما لم يساعد البروتستانت الذين يعيشون في «بافاريا» بشيء أيضاً.



وعندما احتلت القوات السويدية ما كان أراضٍ كاثوليكية، أصر ملك السويد على أن يسمح للكاثوليك بالاستمرار في ممارسة شؤونهم الدينية بحرية تامة. أي أنه كان متسامحاً ومنحهم حرية دينية أصيلة. وذلك لم يكن موجوداً من قبل، في أي مكان في أوروبا.

لو أن أفكار «غوستافوس أدوافيوس» سادت، لنجا من الموت مئات الآلاف من الناس الذين ماتوا خلال الستة عشر عاماً التالية من سفك الدماء، وكثير منهم، بل جلهم، من المدنيين الأبرياء، ولأصبحت الحرية الدينية القاعدة، والتاريخ الأوروبي أفضل، ولكانت آثاره على القرون التالية كثيرة لا تحصى، ولكن الأمر لم يكن كذلك أسفرت معركة «ألت فيست- Alt Vest» الكبرى الأولى، بين «غوستافوس أدولفوس» و«فالنشتاين» اللامع والساخر، عن تعادل الطرفين، وفي معركة «لوتزن» التي جرت في أواخر عام ١٦٣٢ انتصرت القوات السويدية والبروتستانتية، ولكن «غوستافيوس أودولفوس» مات فيها مقتولاً.

غيّرت تلك الواقعة مجرى الحرب مرة أخرى. فالقوات الإمبراطورية والكاثوليكية، من جهة، لم تعد قادرة على الاستمرار في فرض إرادتها على ألمانيا كلها، وعلى فرض مناهضة الإصلاح بالقوة على أولئك الذين يرفضونه، إلا في بلدان تلك القوات، كما في النمسا وبوهيميا، حيث فرض الإمبراطور «فرديناند» مناهضة الإصلاح بقوة لا ترحم. هذا ومن جهة أخرى، كان الملك السويدي، الشخصية الجذابة والقائد العسكري الفذ، قد أصبح خارج اللعبة: حيث خلفته شابة مسيحية صغيرة السن، تنازلت عن العرش بعد قليل وهربت إلى روما واعتنقت الكاثوليكية. ولم يكن ثمة رئيس للبروتستانت يستطيع توحيد قواهم وتلاحمها بعد أن فقدوا جميع الامتيازات التي اكتسبوها عندما تمكنت الجيوش الإمبراطورية من استرداد الكثير منها، ولا سيما بعد معركة «نوردلينجن - Nordlingen» وانتصار «آل هابسبورغ»



فيها يسمي المؤرخون الفترة ما بين عام ١٦٣٥ وعام ١٦٤٨ بـ«المرحلة الفرنسية»، لأن الهجمات الشديدة ضد «آل هابسبورغ» حينذاك، كانت تأتي من فرنسا، العدو التقليدي لتلك الأسرة المالكة.

كانت فرنسا بأغلبيتها كاثوليكية، على الرغم من أن كثيراً من جنرالاتها القادة، في تلك الفترة «المارشال تورين- Marshal Turenne» كانوا مثأل«هوغونوت». ولم يمارس ملكها الصوري، في ذلك الحين، «لويس الثالث عشر» أي سلطة تُذكر، وكذلك الطفل «لويس الرابع عشر» الذي أتى بعده، فقد كان يمارس السلطة أولاً «الكردينال ريشليو- Cardinal Richelieu» رئيساً للوزراء وحاكماً فعلياً، وبعد ذلك خليفته «الكردينال مازاران- Mazarin» الذي كان أيضاً حاكم فرنسا، على الرغم من أنه كان إيطالي الأصل.

وعلى النحو ذاته، الذي أقام فيه ملوك فرنسا الكاثوليك من «آل فالوا»، لفترة وجيزة، تحالفات مع السلطان العثماني لمحاربة «آل هابسبورغ»، كذلك تحالف «ريشيليو» و«مازاران» مع الأمراء البروتستانت الألمان والسويديين لتحقيق الأهداف ذاتها، في حين كان الدين، بالنسبة إلى كثير من الحكام البروتستانت المحليين، لايزال السمة الرئيسة للحرب، وأعتقد أننا يمكن أن نقول الآن، إن الحرب لم تكن دائماً دينية، بل كان تصميم كل من فرنسا والسويد لها، يقوم على أساس تحقيق منافع على حساب أسرة «هابسبورغ» التي يجب أن نتذكر أنه كانت لها أيضاً أملاك فيما يُعرف الآن بشمال إيطاليا، وكذلك في وسط أوروبا. ولذلك شنت الحرب على كلا الجبهتين، واستمرت حتى تم التوصل إلى السلام النهائي في عام ١٦٤٨ بموجب معاهدة «وستفاليا».

يتفق المؤرخون، والاختصاصيون في العلوم السياسية، وفي العلاقات الدولية، جميعاً هذه المرة، على أن معاهدة ١٦٤٨ تعد خطاً فاصلاً بين نشوء نظام



«وستفاليا» الذي بقي صامداً حتى اليوم، على الرغم من تعديله مراراً، من ناحية، وبين صعود التطرف الإسلامي الذي لا يستند إلى تنظيم الدولة، من ناحية أخرى ومن تلك اللحظة فصاعداً، لم يعد الدين، في الغرب على الأقل، مبرر شنّ الحرب، وإنما العدوان على الأراضي وعلى حقوق الأمة والدولة.

يمكن أن أقول إذاً انطلاقاً من مقاصد بحثنا، إن الحروب الدينية انتهت في الغرب في عام ١٧٣٢ بموت «غوستافوس أدولفوس» في المعركة وبانتهاء القرن السابع عشر أصبحت فكرة التسامح مألوفة جداً وبمجيء عصر الأنوار، الذي أدخله الإمبراطور المستبد المستنير «جوزيف الثاني» إلى مناطق «آل هابسبورغ» في عقد عام ١٦٨٠ مثلاً، ومن ثم مجيء الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩، أصبح التسامح الديني فعلاً القاعدة بين مختلف طوائف المسيحية، وبعد ذلك، بمعناه القانوني، بين طوائف أخرى كاليهود في القرن التاسع عشر واليوم تُعدّ الحروب الدينية موضوعاً من الماضي وأي حكومة لا يمكنها اليوم، أن تصرّ على حقها في تحديد ما يجب أن تؤمن، أو لا تؤمن به، ضمن خصوصية بيتك.

إن لهذا كله أهمية بالغة في أي مناقشة تتناول الإسلام ومستقبل اتجاهه في القرن الحادي والعشرين. يقول كثير من المعلقين المعاصرين، ولاسيما ذوي الاتجاهات الليبرالية منهم، إن ما يحتاجه الإسلام اليوم هو عملية إصلاح إلا أنني، على الضد مما يقوله معظم الكتاب، أرى أن الإسلام شهد فعلاً عملية إصلاح في القرن الثامن عشر، وذلك بإدخال مذهب الإسلام الوهابي في شبه الجزيرة العربية فالوهابية هي مذهب الإسلام الرسمي في المملكة العربية السعودية اليوم، وهي أيضاً العقيدة التي يؤمن بها، ليس ابن لادن وإرهابيو ٩/١١ وحسب، بل كثيرون، في أنحاء العالم العربي، بفضل دولارات البترول السعودي.



ولكن سواء كنت مصيباً في هذا الأمر أو لم أكن، فإننا نحن الذين نعتنق البروتستانتية، نؤمن بأن الإصلاح مهما كان مفيداً روحياً لنا، وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين يؤكدون أن عصر التنوير في القرن الثامن عشر، مدين للإصلاح، وبه أصبح ممكناً، إلا أنه أدى إلى حروب استمرت مدة قرن تقريباً في أوروبا التي فقدت أجزاء من ألمانيا، وما يزيد على ٦٠٪ بالمئة من سكانها، كما شهدت القارة ارتكاب فظائع ضد المدنيين لم يشهد التاريخ مثيلاً لها طوال قرون، ولا حتى في القرون الوسطى إذن، ففي الرغبة في أن يكون للإسلام إصلاحه، أو افتراض أن يكون قد أنجز إصلاحه، هل يمكن أيضاً أن نحكم بأن هذا الدين سيُبتلى بالحرب بين الأخوة، الحرب نفسها التي عانت منها المسيحية طوال مدة إصلاحها في القرنين السادس عشر والسابع عشر...؟

أطرح هذا السؤال لأننا الآن نفترض أنه لمن المفروغ منه أن إحدى نتائج حرب الثلاثين عاماً بين الكاثوليك والبروتستانت في قلب أوروبا، بالتحديد، أن الدين، بعد المذابح جميعها، لن يعود ثانية سبباً للحرب بين الدول المتحضرة وهذا يفترض مسبقاً أن يتم ما بعد عام ١٦٤٨، وما بعد عصر الأنوار (يعني القرن الثامن عشر)، فصل الكنيسة عن الدولة، وهذا غير موجود حتى الآنفي العالم الإسلامي والمسلمون، على الرغم من شتى الجهود والمحاولات، هم في منعطف تاريخي قريب الشبه بالمنعطف الذي كنا فيه في عام ١٦١٨عندما نشبت حرب الثلاثين عاماً منذ فترة من الزمن ليست طويلة، كانت لنا نزاعات مشابهة، وإذا كنا نذكّرنذكّر المسلمين اليوم بأن التغيير الذي نودّ أن ننصحهم بالقيام به هو تغييرٌ قمنا به بأنفسنا، فآمل أن يكونوا على استعداد لأن يصغوا إلينا، ولاسيما إذا ما اتبعوا منحى «لامين سانه-Lamin Sanneh»، فالحداثة، والتسامح، وحرية الرأي، والكلمة، كلها ذات جذوردينية، ولا تقوم على رفض علماني لجميع وجهات النظر الدينية، سواء أكانت مسيحية أم إسلامية.







٥

شعر الإبادة الجماعيّة

الابتهاج بجرائم القتل باسم الدين

في قصائد الشعر

منذ ٩/١١ في الولايات المتحدة الأمريكية، و٧/٧ في المملكة المتحدة، كان ثمة اتجاه في الغرب يعتبر المسلمين مجرمين والمسيحيين ضحايا. رأينا في الفصول السابقة أن العالم الإسلامي كان في الواقع، طوال قرون في حالة هجوم، بينما كان الغربيون يشنون أحياناً هجمات ضد سيطرة المسلمين الطاغية، في بعض الفترات كالحروب الصليبية، ثم انقلب الوضع بعد عام ١٦٨٣ فأصبح عكس ما كان عليه من قبل، وتغلب الغرب على العثمانيين، القوة الإسلامية العظمى المتداعية.

الإرهابيون في هذا القرن الجديد كانوا مسلمين متطرفين، كجماعة القاعدة وأتباعها الكثيرين. ولكن أحد الأسباب التي يبررون بها قتل الغربيين، هو أن معظم ضحايا الحروب، في السنوات الأخيرة، كانوا مسلمين قتلهم مسيحيون. وإذا ما أخذ المرء بالحسبان مجازر البلقان في عقد عام ١٩٩٠ لتبين له أن ذلك صحيح إلى حد كبير، على الرغم من أنه يجب ألا ينسى أن بعض الضحايا كانوا من الكروات الكاثوليك، قتلهم صرب أورثوذوكس، وفي عام ١٩٩٥ انتقم الصرب بقتل كروات أيضاً وبينما قتل في ٩/١١ حوالي ثلاثة آلاف شخص، بينهم بعض المسلمين، ذُبح في البوسنة في غضون أيام قليلة أكثر من ضعف هذا العدد - ٨٠٠٠ رجل وطفل، كلهم من المسلمين، في مجزرة «سريرنيتسا» في عام ١٩٩٥، قتلهم صرب أرثوذوكس من القوات غير النظامية التي قادها مجرم حرب ذو شهرة أسطورية اسمه «راتكو ملاديك-Ratko Mladic»،



وبعد مضي ما يزيد على أحد عشر عاماً لم يُلقَ القبص عليه ويسلم للعدالة قط.

وباختصار نقول، إن الأمر المهم الذي يجب تذكره هو أن المسلمين كانوا، في حياتنا، ضحايا بقدر ما كانوا جناة، وأن الأرثوذوكس لم يكونوا الطرف الآثم وحده، وأن الشر بأي حال من الأحوال، ليس في جانب واحد لذلك سوف ننظر في هذا الفصل بالطريقة التي تم فيها ذبح عشرات آلاف البوسنيين المسلمين، خلال عقد عام ١٩٩٠، لا لسبب سوى دينهم. ثم نفحص المجازر التي ارتكبت على نطاق أصغر ضد المسلمين الذين ذُبحوا في الهند، بأيدي غوغاء متعصبين من الهندوس-مرة أخرى- لا لسبب آخر سوى دينهم. وأخيراً سوف نرى ماعلاقة هذا كله بالإرهابالحديث، وما هي الذرائع التي قُدمت لارتكاب هذه المجازر الفظيعة، التي كان ضحاياها مسلمين، إلى القتلة من المسلمين الذين يرتكبونالفظائع اليوم.

هذه هي الخلفية، وفق التسلسل الزمني، للمرحلة التالية لقصة الحروب الدينية. في الغرب، تمكنت إسبانيا في نهاية المطاف، من استعادة شبه جزيرة إيبريا من الحكم الإسلامي في أواخر القرن الخامس عشر. استغرقت ملحمة «الاسترداد -Reconquista» الطويلة سبعة قرون من غزوات بطيئة وغالباً ما كانت متقطعة وأخيراً استُعيدت إسبانيا من أيدي الـ«مورو».

أما في الجزء الشرقي من أوروبا، في الفترة الزمنية نفسها، كانت القصة على وجه التحديد مختلفة تماماً. عندما ارتكب صليبيو البندقية وحلفاؤهم حماقة احتلال القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة، مهدوا بذلك الطريق أمام مختلف الشعوب التركية المسلمة التي تعيش في الأناضول، لكي تستولي، في نهاية المطاف، على الإمبراطورية البيزنطية في عام ١٤٥٣، لتنهي بذلك ألف سنة من الحكم المسيحي، ثم تبدأ مرحلة التقدم العثماني في شبه جزيرة



البلقان، وفي جزء من وسط أوروبا ذاتها أيضاً ولو سقطت فيينا أثناء الحصار التركي في عام ١٥٢٩، بعد انتصار العثمانيين النهائي على المجر في معركة «موهاكس-Mohacs»، في عام ١٥٢٦، لأصبح قلب أوروبا لأول مرة مفتوحاً أمام غزو إسلامي، منذ الهزيمة التي ألحقها «شارل مارتل» بالقوات الإسلامية في سنة ٧١١.

اتبعت في فصول هذا الكتاب حتى الآن تراتبية زمنية. ولكنني في هذا الفصل سأتخلى عن ذلك لسبب معقول: باستثناء أقلية من المتعصبين الذين يودون استعادة السيطرة الإسلامية على إسبانيا -وهم من فصيلة الإرهابيين الذين زرعوا القنابل في مدريد في العام ٢٠٠٣- نحن لا نعيش اليوم في عصر نشعر فيه بالنتائج المباشرة للحقبة الزمنية التي حكم فيها المسلمون إسبانيا، وانتهت منذ أكثر من خمسة قرون يمكن أن يشعر كثير من المسلمين المعتدلين، حتى بعد مضي زمن طويل، بحنين إلى خلافة الأمويين الموهوبة في قرطبة، وما حفلت به من قيم فنية رفيعة وتسامح ديني، غير أن إسبانيا المسلمة لم تكن سبباً في مآسي القرن الحادي والعشرين.

إلا أن الوضع في البلقان كان مختلفاً. هناك في الواقع، أُبيد في القرن العشرين، وعلى وجه التحديد حتى العام ١٩٩٩، مئات الآلاف من الناس الأبرياء معظمهم مسلمون، وذلك لأسباب تعود إلى أحداث جرت في البلقان منذ ستة قرون مضت أو أكثر ففي حين كانت أشباح الأندلس قد ماتت بالنسبة إلى الأكثرية، إلاأن أشباح شبه جزيرة البلقان لاتزال حية فعلاً. وهي للأسف ما زالت تطالب بمزيد من الضحايا للانضمام إلى صفوفها المتغولة.

هذا الفصل إذن سيتبع تراتباً زمنياً مختلطاً، ندرس في جزء منه غزوات الأتراك العثمانيين للبلقان، بدءاً من القرن الرابع عشر فصاعداً، ثم اعتناق الكثيرين في المنطقة دين الغزاة، الإسلام، وبالتالي كان هناك ردود فعل وحشية من معظم



السكان المحللين بسبب سيطرة الغرباء، التي كان لها نتائج دموية امتدت من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ عام أو أكثر، وتصاعدت حتى وصلت إلى الأحداث التي وقعت خلال حياة الكثيرين منا.

يمكن القول إن النصر العثماني، بكل ما انطوى عليه من مقاصد وأغراض، بدأ في «مزادكرد- Manzikert»، على الرغم من أن السلجوقيين أبناء عمومة العثمانيين، هم الذين انتصروا في تلك المعركة. وفر نجاح الغزو التركي للأناضول إمكانية قيام قبائل تركية مختلفة بالتوطن في المنطقة، ولفترة من الزمن كانت ممالك صغيرة متنوعة تزاحم إحداها الأخرى، لتكون هي الأقوى.

«تاج الجبل» هي إحدى قصائد الشعر الصربي التي نالت شهرة واسعة، ووصفها الكاتب المعروف «تيم جوداه -Tim Jodah» بأنها «أنشودة التطهير العرقي». وما يثير الدهشة أن كاتبها هو المطران «بيتار الثاني بيتروفيش نجيكوس -Petar II Petrovic Njecos» زعيم الجبل الأسود، في عام ١٨٤٧ والقصيدة مستوحاة من حملة أسطورية شنها صرب الجبل الأسود على المسلمين «السلاف» قبل بضعة عقود فقط، في القرن الثامن عشر وفي حين يرتاب خبراء آخرون مثل «مارك مازوير- Mark Mazower» في أن تكون هذه الحملة حدثت فعلاً، يمكن للمرء أن يقول، إن شن مثل تلك الحملات كان أمراً شائعاً. وإن لم تشن هذه الحملة، فهناك ما يكفي من الشواهد لمنح القصيدة درجة عالية من الأصالة.

يتفق كثير من المعلقين الصربيين، على أن تلك القصيدة تُعدّ «العمل المركزي للأدب الصربي كله»، (بعد إنشاء يوغوسلافيا في عام ١٩١٨، أصبحت تُعدّ العمل المركزي للأدب اليوغوسلافي أيضاً، على الرغم من أنها تمجد ذبح المسلمين الأبرياء).



إنني أركز اهتمامي على القصيدة هنا، ليس لأنها تظهر المسلمين كضحايا فحسب - فهذا وإن كان بذاته مهم بما يكفي - إلا أنني أفعل ذلك، لأنها تمدنا ببصيرة نيرة للنفوذ إلى عقلية الإرهابيين، وإلى عقلية مدبري المجازر الجماعية في القرن العشرين، سواء تلك التي ارتكبها الصرب والكروات ضد البوسنيين، أو التي ارتكبها النازيون وغيرهم من الجماعات المشابه أيضاً. إنها العقلية التي أنتجت الهولوكوست، وجميع ضروب الإبادة الجماعية التي شهدها القرن العشرين وما بعده.

وباختصار، إن هذه المجزرة، والقصيدة التي كُتبت احتفاء بها، ماهما إلا تجسيد للحروب الدينية كما رأيناها عبر كتابنا هذا.

إن من استلهم المجزرة كان مطراناً أيضاً. المطران دانيلو. كانت ليلة الميلاد تقترب، فقرر المطران ورجاله الاحتفال بها، وذلك بقتل أكبر عدد مستطاع ممن يجدون من المسلمين السلاف. ولما كان المسيح نفسه نجا من مذبحة، في واقعة عُرفت بمذبحة الأبرياء، فإنه لمن السخرية الصارخة اللجوء إلى هذه الطريقة لإحياء ذكرى ميلاد أمير السلام!

هنا نحن بحاجة إلى العودة قليلاً إلى تاريخ بلدان البلقان، ويسعدني أن أدرج بعض الكتب القيمة مثل مؤلفات «تيم جوده - Tim Judah» و«مارك مازوير - Mark Mazower» و«برانيمير أنزولوفيش - Branimir Anzulovic» و«فاميك فولكان - Vamik Volcan» و«ميشيل سيلز - Micheal Sells» و«ميشا غليني- Misha Glenny»، وكلها مؤلفات مدرجة إلى جانب بحثي الأكاديمي: «لماذا غضب الشعوب: القتل باسم الله - Why the Nations Rage: Killing In the Name of God».

بعد غزو العثمانيين لشبه جزيرة البلقان في القرن الرابع عشر، واصلوا تقدمهم إلى أن استولوا على الجزء الأكبر من هنغاريا، بعد ذلك بأقل من قرنين



فقط. وكما حدث أيضاً بعد الاحتلال المبكر لإسبانيا، حافظ معظم السكان- اليونان والسلاف والألبان والرومان والهنغار، جميعهم على السواء - على انتمائها المسيحي. إلا أن أقلية ضئيلة اعتنقت دين الحكام الجدد، الإسلام.

قُتل مئات آلاف الأبرياء، من رجال ونساء وأطفال، في حقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، ومرة أخرى في عقد سنة ١٩٩٠ ذلك كله بسبب ما يفترض أن أحداً ما في القرن الرابع عشر: قد يبدو لنا نحن في الغرب مبهماً وغامضاً، ولكنه يُعدّ بالغ الأهمية، وبمثابة حياة أو موت في البلقان، في زمننا اليوم وهنا تصبح القصة تاريخياً مشوشة! وفوضوية جداً...! (في بعض محاضراتي حول هذا الموضوع، أشرت إلى ذلك، وآمل ألا يصاب عقلكم بالهذيان فيما يلي... ولكن يمكن فهمه، ولذلك سأثابر).

رأينا أن جيوش الغزو الإسلامي، منذ القرن السابع وما بعده، لم تحاول أن تفرض على سكان البلاد التي احتلتها اعتناق الإسلام، بل التزمت بحكم الآية القرآنية التي تقول «لا إكراه في الدين» وفي ذلك شيء من المنفعة المالية لغير المسلمين، من الذين إذا كانوا يؤمنون بإله واحد، فسيمنحون حق الحماية، أو وضع الذمي، وكان يتعين عليهم أن يدفعوا ضريبة أكثر مما يدفع المسلم، وهكذا يكون إيراد السلطة من السكان المسيحيين أكبر إن لم يعتنقوا الإسلام جماعياً.

ولكن من ناحية أخرى، حين يكون المرء ذمياً يفقد ميزات كبرى. وهنا أيضاً يختلف المؤرخون تاريخياً، مثلما يختلفون في سائر القضايا التي لها علاقة بتاريخ الإسلام والبلقان. دعونا أولاً نلقي نظرة على ذلك النظام المطبق، ثم على العلاقات التي كانت سائدة بين الجماعات الدينية المختلفة في تلك المنطقة: المسلمين، والمسيحيين الأرثوذوكس، والمسيحيين الكاثوليك، واليهود.



إنه لمن الضروري ألا يغرب عن بالنا أن هوية المرء في الإمبراطورية العثمانية لم تكن جنسيته وإنما دينه ولا يكفي التأكيد كثيراً على أهمية هذه النقطة؛ لأن دين الناس هو الدين الذي ولدوا عليه، وهكذا كان العثمانيون يرون الناس، وهكذا كان الناس أيضاً يرون أنفسهم، ولهذا السبب فإن الحروب في البلقان وسائر المذابح الجماعية في القرنين التاسع عشر والعشرين نتيجة نزاعات دينية، على الرغم من أنها يمكن أن تبدو عصية على فهمنا نحن الغربيين، في القرن الحادي والعشرين.

وباختصار، كان الجميع في الإمبراطورية العثمانية جزءاً من النظام الملي. الذي صنف الجميع وفق انتمائهم الديني، بدءاً من رؤساء الوزراء حتى بسطاء الفلاحين. المسلمون في ملة الإسلام، واليهود في ملة اليهود، والكاثوليك في ملتهم، والأرثوذوكس المسيحيون في ملة الأرثوذوكس وهم يدينون بالولاء سياسياً ودينياً للبطريرك الأرثوذوكسي في القسطنطينية، الذي كان فضلاً عن ذلك مسؤولاً دينياً يعينه السلطان العثماني لرعاية العدد الكبير جداً من السكان الأرثوذوكس.

كان معظم سكان البلقان من الأرثوذوكس، يدينون بولائهم للعقيدة الأرثوذوكسية. وأعتقد أن بعض الكتاب مثل «مارك مازوير» ومن يشاطرونه الرأي على حق حين يؤكدون أن الفلاح السلافي متوسط الحال، كان حتى فترة متقدمة من القرن التاسع عشر يعتقد أنه أرثوذوكسي مسيحي في المقام الأول، وأن مثل هذه الأساليب الحديثة في تفكيرنا قومياً، وفق انتمائنا العرقي، لا بد أنها ستبدو غريبة عليهم تماماً.

هناك اليوم اتفاق غير مألوف، بين التيار الفكري لليسار الليبرالي المستقيم سياسياً، وبين تيار السياسيين البريطانيين أتباع «تاتشر» من اليمين البريطاني، على تهدئة مفترضة في بلاد البلقان وبالتالي في بقية بلدان الإمبراطورية التي



كانت تخضع للحكم العثماني. ويعارض مثل هذه الرؤية الشاعرية، مؤرخو الأديان اليمينيين، كالخبيرة في الشؤون الإسلامية «بات يعور» (الاسم مستعار حفاظاً على سلامتها)، التي كتبت عدة كتب حول وضع المسيحيين في ظلّ الحكم الإسلامي، ولاسيما المسيحيين في الشرق الأوسط. وباختصار، يشدد الأول على الانسجام الذي ساد بين الجميع، وتصف الثانية الاضطهاد الشديد الذي عانى منه المسيحيون. التأكيد السياسي الصحيح هو أن الحكم الإسلامي كان دائماً أكثر استنارة من المسيحي، وذلك أمر معروف ولا يحتاج إلى إيضاحات.

دفاع اليمين يأتي من السيدة «تاتشر» نفسها، وذلك من خلال دعمها القوي للبوسنيين ضد الصرب في العقد العاشر من سنة ١٩٩٠، ودعم نصيرها الأكاديمي القدير «برنارد سيمس -Bernard Simms». ولكن، على الرغم من أنني أكثر من تعاطف مع البوسنيين، مثلما تعاطف أنصار «تاتشر» وآخرون كثيرون في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنني لم أستطع أن أفهم لماذا لم تفعل السلطات الأوروبية أي شيء للحيلولة دون وقوع المجازر، ويجب أن أضيف بمرارة، أن أقدر المؤرخين المرموقين من أنصار «تاتشر»، لم يكن يتمتع بالرؤية التاريخية، عندما يتصدى لدراسة المجموعات الدينية المختلفة، التي كانت تعيش في ظل الحكم العثماني.

لم تكن الحياة في البوسنة نعيماً دائماً، ففي العقد الثامن من عام ١٨٧٠ ذُبح آلاف الصرب البوسنيين الأرثوذوكس الأبرياء، لا بأيدي الجنود العثمانيين فحسب، وإنما بأيدي قوات من مسلمين بوسنيين أيضاً، وعلى النحو ذاته، المرفوض كذلك، قُتل عدد مشابه من المسلمين الأبرياء بأيدي المتمردين الصرب في سنة ١٨٤٠.



هنا أتفقُ و«مارك مازوير»، الذي يقترح طريقاً وسطاً في كتابه: «البلقان» الذي يؤرخ للمنطقة كلها، ويتناول منطقة البلقان بأكملها، يبين لنا أن حياة المسيحي العادي كانت صعبة، وأن مهن غير المسلمين كانت محدودة جداً، والضرائب مرتفعة، وكانت تمر فترات طويلة يعاني فيها المسيحيون من الاضطهاد كثيراً، حيث تصدر خلالها مراسيم جائرة تفرض عليهم أعباء ثقيلة تستمر زمناً طويلاً.

إلا أنه في واحد من كتبه: «سالونيك: مدينة أشباح»، ينظر في جزء مصغر من البلقان. ويبين كيف عاش في تلك المدينة، يهود ومسلمون ومسيحيون بانسجام طوال قرون، وصولاً إلى القرن العشرين، حين أصبحت الحياة فيها لا تطاق، في ظل هيمنة مزيج من قومية حديثة، ثم إيديولوجية الإبادة الجماعية النازية، ما جعل استمرار الانسجام والسلام في المدينة مستحيلاً وسالونيك الآن مدينة أكثرية يونانية ساحقة باختصار، إن خبرة بلاد البلقان ليست في هذا التطرف أو ذاك، بل في مزيج من كليهما، في ظروف تتنوع كثيراً، ما بين مكان أو آخر، وفي كثير من الحالات، وفق هوى الموظفين العثمانيين المحليين.

ولكن، بقيت أكثرية شعوب البلقان أرثوذوكسية (أو كاثوليكية وبروتستانتية في هنغاريا، خلال الفترة القصيرة التي كانت فيها خاضعة للحكم العثماني)، وقد اعتنق بعضها الإسلام والإسلام كما رأينا آنفاً، ليس ديناً عنصرياً كالمسيحية في القرون الأولى، ومرة أخرى الآن، بدءاً من القرن العشرين، يتقبل بترحاب الذين يعتنقونه من مختلف الأعراق، وعلى قدم المساواة هذا يعني مثلاً، أن السلاف الذين اعتنقوا الإسلام توصلوا إلى شغل بعض أهم المناصب في الإمبراطورية العثمانية، وحدث إن تعيّن رئيس وزراء سلافي فإنه يمكن أن يفاوض نيابة عن السلطان، أسقفاً سلافياً أرثوذوكسياً كان ينتمي أيضاً إلى أسرة المفاوض ذاتها. وهكذا كانت تتاح للسلاف الذين يعتنقون الإسلام إمكانية أن يشغلوا أي



منصب في الإمبراطورية، وأن يصبحوا كذلك تجاراً أو ملاك أراضٍ إقطاعيين، ولكنهم في الحالة الأخيرة، عليهم أن يخضعوا للقيود التي يفرضها النظام الإداري العثماني على تملك الأراضي.

المنطقة التي شهدت أكبر تحول من المسيحية إلى الإسلام، تُعرف الآن بالبوسنة، وألبانيا أيضاً، فالمسلمون عاشوا في البلقان، في سائر أنحائه طوال قرون عديدة. وهناك بدأ العبث بالتاريخ واللعب به.

إن أحد الامتيازات الرئيسة التي كان بوسع الصرب الاحتفاظ بها لأنفسم قبل الفتوحات العثمانية، هي ما يوصف بـ«الكنيسة المستقلة»، وذلك يعني حرفياً «الحكم الذاتي» للكنيسة، كما يعني أن الصرب، طالما كانوا خاضعين اسمياً لبطريرك القسطنطينية، فهم أيضاً، لهم كنيستهم الوطنية بعد أن استولى العثمانيون على صربيا في عام ١٤٥٩، بعد الهزيمة الكبرى للقوات الصربية في معركة كوسوفو في عام ١٣٨٩ كان لديهم كنيستهم التي يمكن أن يقولوا إنها تخصهم كما كانت الرمز المتبقي مما كان يوماً إمبراطورية الصرب الكبرى، التي حكمت وهي في أوجها، قسماً كبيراً مما هو الآن اليونان ومقدونيا، وساعدت على احتفاظ الصرب بوعيهم القومي حياً طوال ما يزيد على خمسة قرون من الحكم الأجنبي العثماني.

كما أن مناطق أخرى من بلدان البلقان كان لها أيضاً كنائسها الأرثوذكسية الخاصة، مثل تلك التي نسميها الآن رومانيا واليونان وبلغاريا ففي هذه المناطق كان لليونان نفوذ روحي، بينما لم يكن لهم أي نفوذ عرقي ويرى المؤرخون أن هذا الوضع، كان وراء تأخّر نمو الوعي الذاتي القومي في المنطقة، حتى فترة متقدمة من القرن التاسع عشر.

بالنسبة إلى الصرب بالمقابل، أن يكون المرء أورثوذوكسياً، يعني أن يكون صربياً، والعكس صحيح. فالدين والهوية مترابطان بإحكام، كما كان الأمر في دار



الإسلام، حيث كان الدين والدولة شيئاً واحداً أيضاً، وما زال الأمر كذلك حتى الآن.

ومع ذلك، لم يكن الأمر بسيطاً، ومن هنا تأتي التعقيدات.

ففي القرن الرابع، اتخذ كل من النصف الشرقي والنصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية القديمة اتجاهاً مختلفاً. وما يكاد لا يصدق، هو أن الحد الفاصل في البلقان بين ما أصبح جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية، وبين الجزء الذي تبقى في الغرب، مازال حتى في القرن الحادي والعشرين الحدود الفاصلة بين الجزئين الكاثوليكي والأرثوذوكسي في شبه جزيرة البلقان.

ولكن، على الرغم من أن الحد الفاصل دينياً بين كرواتيا الكاثوليكية وصربيا الأرثوذوكسية، لايزال قائماً منذ ألف وستمئة عام ونيف، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الحدود الفاصلة عرقياً فالحدود الدينية واضحة، ولكن الحدود العرقية، في الواقع، أكثر إرباكاً وأقل وضوحاً وكل شيء يعتمد على معرفة من اعتنق ديانة غير ديانته، وأي ديانة اعتنق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وذلك ما فتح الباب على مصراعيه لنقاش تاريخي، يمثل فعلاً مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى آلاف سكان بلدان البلقان في الآونة الأخيرة.

استوطن المنطقة في عصر الرومان، «الإليريانيون- Illyrians»، ويحتمل أن يكونوا أسلاف «الألبان» اليوم، الذين ينحدرون أيضاً من الرومانيين القدماء الذين استوطنوا البلقان، والذين يقال إن رومان اليوم منحدرون منهم. (الرومانية لغة رومانسية، أو لاتينية جديدة كالإيطالية والإسبانية) ووصل إلى المنطقة في عصر انحطاط روما موجتان منفصلتان من السلاف، الموجة الشمالية اتجهت إلى ما يسمى اليوم كرواتيا، والجنوبية اتجهت إلى ما يسمى اليوم صربيا لا يُعرف الكثير عن هذه الغزوات الخاصة، لأن إحدى المشكلات تعود إلى أن معظم فصول التاريخ الحديث كتبه مؤلفون قوميون منحازون،



استخدموا الماضي عمداً لاستغلاله في تحقيق أغراض تتعلق بقضايا الحاضر. شيء من هذا القبيل رأيناه في معرض الحديث عن الدقة التاريخية في تأويل مرحلة صدر الإسلام. ودول البلقان ليست استثناءً، وفي جميع الأحوال، فإن معرفة الحقيقة بعد هذه المسافات التاريخية الشاسعة، أمر صعب المنال ولكنني، أعتقد أن الأمر الأساس، هو أننا من الناحية العرقية، لا نشير هنا إلى عرقين مختلفين كلياً، وإنما إلى موجتين من غزو قام به قوم من العرق ذاته.

وأما لغوياً، فحتى العقد العاشر من عام ١٩٩٠، كانت توجد لغة تدعى بدقة «صربية كرواتية»، يتكلمها الصرب والكروات، وكذلك البوسنيون (من مختلف الأطياف)، وكانت الفوارق بينها طفيفة جداً، كالفوارق بين من يتكلم اللغة الإنكليزية في نيويورك وبين من يتكلمها في سان فرانسيسكو. صحيح أن الكروات (والبوسنيين) يستخدمون الأبجدية اللاتينية، ويستخدم الصرب الأبجدية «السيريليكية- Cyrillic» التي تستخدم في روسيا وبلغاريا أيضاً، ولكن في جميع الأحوال، وبدقة، اللغة هي نفسها.

وذلك لأن الصرب، كما أقول، والكروات والبوسنيين ينتمون إثنياً إلى عرق واحد، ولا يوجد أي فارق عرقي بينهم. وربما دخلوا البلقان خلال فترات بينها فوارق زمنية قصيرة، ولم يسبق أن خضع الكروات قطّ لأي حكم إسلامي، وإنما احتلت هنغاريا بلادهم في القرن الثاني عشر، وعاشوا في ظل الحكم المجري حتى القرن العشرين. ولذلك أصبح معظم الكروات كاثوليكيين، بينما أصبح معظم الصرب أرثوذوكسيين، عاشوا فترة وجيزة في إمبراطوريتهم، تحت حكم أسرة «نيمانجيك - Nemanjic» الملكية، وفي ظل الحكم الإسلامي بعد ذلك، حتى زمن متأخر من القرن التاسع عشر، وحتى القرن العشرين في بعض أجزاء صربيا.



لا يوجد مسلمون صرب، أو كروات أرثوذوكس، بل يوجد مسلمون بوسنييون، ويسمون أحياناً بوسنياك. ونحن نرى أيضاً صرباً بوسنيين، وكروات بوسنيين. ولكن لماذا يُعَرّف هؤلاء بديانتهم، وليس بانتمائهم العرقي؟ هذا الأمر كان سبباً في موت عشرات آلاف الضحايا في العقد العاشر من عام ١٩٩٠، إن لم نذكر ما سبق ذلك من مذابح في المنطقة، مثل حروب البلقان في عامي ١٩١٢ و١٩١٣.

تعود تسميتهم الأخيرة «بوسنيون مسلمون» إلى عهد الشيوعي اليوغوسلافي «تيتو»، الذي تولى الحكم بعد الحرب العالمية الثانية، (كان نصفه كرواتياً ونصفه الآخر سلوفينياً)، ولكن أكثر المؤرخين اليوم يعزون تسميتهم الأولى كمسلمين، إلى النظام الملي العثماني. والمسلمون البوسنيون الآن هم أحفاد بوسنيي المنطقة الذين اعتنقوا الإسلام في مطلع الأعوام الأولى، التي تلت الغزو العثماني، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

أدى هذا الوضع المأساوي إلى مقتل عدد كبير منهم في السنوات الأخيرة أثناء حياتنا. وفي حين كان ثمة مملكة بوسنية مستقلة لبعض الوقت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لكن البوسنيين، بالنسبة إلى كثيرين يُعدون غرباء، إنهم مجموعة سلافية ثالثة، ويختلفون سياسياً، لا عرقياً، عن المجموعات الأكثر عدداً من الصرب والكروات، إلا أن كثيرين من جيرانهم الأقوياء، سواء من الصرب أو الكروات، لم يروهم على هذا النحو، كما لا يرونهم كذلك الآن أيضاً.

فالصرب يرون أنهم كانوا من الجاحدين الذين خانوا دمهم الصربي وتخلوا عن الأرثوذوكسية واعتنقوا الدين الإسلامي، كالكروات الذين كانوا كاثوليك، وعلى النحو ذاته خانوا كاثوليكيتهم واعتنقوا الإسلام. وكثير من البوسنيين



المسلمين يدعي، لكي يخدع الجميع، أن أسلافهم مجموعة بوسنية من القرون الوسطى عُرفت باسم «البوغوميل- Bogomils».

وهؤلاء كالكاثاريين الألبيجيين، كانوا أتباع بدعة تمت بصلةإلى الديانة الزارادشتية التي دخلت البلقان بشكل مشابه لدخول البدعة الكثارية جنوب فرنسا.

مما لاشك فيه أن بعض مؤرخي البوسنة مثل «نوئيل مالكولم - Noel Malkolm» ومدافعين آخرين قادرين مثل «برنداان سيمس - Brendan Simms»، لهم ملء الحق في أن يؤكدوا أن السلاف البوسنيين المسلمين الآن هم في الواقع بوسنيون وليسوا صرباً أو كرواتاً. ومنالصعب أن نقول، ونحن على مسافة زمنية بعيدة، أن الحامض النووي للصرب أو البوسنيين سيكون، إلى حد بعيد، واحداً وأعتقد أنني أتفق هنا والغربيين على أن البوسنيين المسلمين هم في الواقع بوسنيون، ينتمون إلى مجموعة عرقية أخرى مختلفة تماماً، وقدكانوا أعضاء طائفة مسيحية محلية، لها كنيستها التي عرفت باسم الكنيسة البوسنية. يعرف القليل عن هذه الطائفة الخاصة، باستثناء أنها كانت مسيحية، ولا تتفق عقيدتها أبداً مع الكاثوليكية أو الأرثوذوكسية.

يمكن القول باختصار، إن الدين لم يكن راسخاً بقوة في البلقان، ولاسيما في البوسنة، ولذلك لم تكن تتوفر لدى كثيرين من السكان المحليين، حين أتى العثمانيون، قناعة قوية بالمسيحية، تحول دون اعتناقهم الإسلام في حين يمكن أن يكون أجداد بعض البوسنيين المسلمين من «البوغوميل»، فإنه لمن الممكن من باب أولى أيضاً، أن يكونوا منحدرين ببساطة من بوسنيين عاديين، اعتنقوا الإسلام منذ قرون، لأسباب متعددة.

ثمة سابقة تاريخية كان من شأنها أن تكون مفارقة رائعة لو لم تكلف المشكلات الدينية في بلاد البلقان حياة كثير من الناس في غضون سنين طويلة.



تكمن المفارقة في أن هوية المرء في تلك المنطقة، كانت قديماً، تحدد غالباً بناء على دينه، قبل أي شيء آخر عندما أخذت رياح القومية العرقية تهب على البلقان من أوروبا الغربية- ليس قبل القرن التاسع عشر- كان كثير من الناس آنذاك لا يعيرون أي اهتمام للمجموعة العرقية التي ينتمون إليها. كثيرون من البلغاريين مثلاً، كانوا يعتبرون يونانيين، لأنهم كانوا يتبعون الكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية، وذلك أمر ظل يعدّ مشكلة بالنسبة إلى مقدونيا، فالبلغار يعتبرون المقدونيين بلغاراً غربيين؛ ويعتبرون اليونانيين من السلاف الذين يتكلمون اليونانية؛ والمقدونيون يرون أنفسهم ببساطة مجرد مقدونيين.

كثير من السكان في المنطقة كانوا من أصول سلافية قديمة، المجوعتان الكبيرتان هما الألبان، الذين لا يخطئ أحد في تمييزهم، لأنهم يتكلمون لغة مختلفة جداً. وال«فلاش - Vlachs» المعروفون أيضاً باسم ال«مورلاك - Morlachs» أي ال«فلاش السود»، وهم مجموعة عرقية تمتّ بصلة إلى رومان الشمال الذين يتكلمون اللغة الرومانية.

يؤكد كثيرون في بلاد البلقان، أن البوسنيين الصرب ليسوا من الصرب أبداً، وإنما من ال«فلاش» الذين اعتنقوا الأرثوذوكسية، ثم أصبحوا يتكلمون اللغة الصربية، وذلك على نحو مشابه، للسلاف البلغار، وكثير من الذين كانوا شعوباً تركية غزت المنطقة في مرحلة مبكرة، واندمجوا بعد ذلك في المناطق السلافية المحيطة بهم. لا حاجة إلى القول إن البوسنيين الصرب، والصرب عامة، لا يتفقون وهذا التأويل الخاص لماضيهم ولكن ذلك لا معنى له، إذا ما تذكرنا أن كل شيء في نظام الملة العثماني، كان يدور حول فلك الدين لا نعرف ما الذي حمل الفرد البوسني على اعتناق الإسلام، ربما كان إيماناً أصيلاً، أو رغبة في الحصول على منفعة ما باعتناق دين السادة الجدد. ولكن سواء أكانت الأسباب دينية أم لم تكن، فليس لذلك كبير أهمية. ما كان مهماً، هو أن



الذين تحولوا إلى الدين الجديد، تماثلوا روحياً والعثمانيين المكروهين الظالمين، وأما بالنسبة إلى السكان الصرب المحيطين بهم، فكان لذلك أهمية هائلة.

وذلك لأن الصرب كانوا يرون أنهم شعب مقدس، على نحو لا يختلف عن يهود «العهد القديم»، شعب مختار كرسه الله عبر المعاناة.

اثنان من ملوك الصرب الأوائل، في القرون الوسطى، كانا قديسين. أحدهما طُوِّب فيما بعد، والآخر، القديس «سافا- Sava» كان تقياً ورعاً من أسرة «نيمانجيك» الملكية. (كان الملك ستيفان دوشان (١٣٣١-١٣٥٥) أكثر ملوك أسرة «نيمانجيك» نجاحاً، لكنه لم يطوب قديساً، فقد أصبح ملكاً بعد أن قَتل أباه، واعتُبر بسبب جريمة قتل أحد الوالدين، غير مؤهل للقداسة).

قبل الغزو العثماني للبلقان، انهارت إمبرطورة «دوشان» العظمى، التي بذل أفضل جهوده لتوحيدها، وانقسمت إلى أجزاء صغيرة متعددة ودويلات صغيرة، لا تملك أي منها القوة الكافية لصدّ الهجوم الذي كانت تواجهه. (صدرت كتب لـ«نوئيل مالكولم»، و«مارك منزوير»، و«جون فاين»، و«تيم جوداه»، تروي ما نحتاج معرفته عن تاريخ البلقان في القرون الوسطى).

كان العثمانيون في عام ١٣٨٩ قد احتلوا معظم شبه جزيرة البلقان،وكانت بعض الدول مجبرة على التحالف معهم، وعندما احتلوا ما تبقى من صربيا، لم يكن هناك جنود مسيحيون في الجانب الصربي فحسب، وإنما في الجانب العثماني أيضاً. كان لدى قائد الجيش الصربي «لازار»فرصة ضئيلة جداً للنجاح عندما اشتبكت قواته مع القوات العثمانية في «كوسفو»، في معركة (حقل الشحارير- Field of Blacbirds)، في أقدس يوم من أيام السنة وفق التقويم الصربي، وهو يوم عيد القديس «فيتو أو فيدوفان - SaintVitus Vidovan».



وبينما يعتبر الصرب أن معركة كوسوفو كانت بمنزلة هزيمة تاريخية، يمكن القول إنها أسفرت عن تعادل الطرفين، فالسلطان العثماني فقد حياته، كما فقد الأمير «لازار» حياته أيضاً، في حين أُجبر الصرب على دفع جزية إلى العثمانيين، لكن صربيا لم تُحتل كلها إلا في عام ١٤٥٩، أي بعد مضي سبعين عاماً على معركة كوسوفو. وبدءاً من ذلك التاريخ خضعت للاحتلال التركي الدائم حتى زمن متقدم من القرن التاسع عشر.

ومع ذلك، ما زال الصرب حتى أيامنا هذه، يعتبرون العام ١٣٨٩ أكثر أعوام تاريخهم قداسة ومأساوية وأما نحن، فيبدو لنا أمراً غريباً أن يقوم شعب بإحياء ذكرى هزيمته بمثل هذا الحزن، كما لو قام الإنكليز بالاحتفال بذكرى معركة «بانكر هيل»، أو قام الفرنسيون بالاحتفال سنوياً بذكرى معركة واترلو! ولكن، مهما كان يبدو غريباً، حال الصرب وكوسوفو بالفعل، إلا أن التاريخ يري أن المعركة انتهت بالتعادل، وأن صربيا نجت حتى الآن طوال جيلين آخرين.

أصبح «لازار» بعد موته مباشرة بطلاً وشهيداً يقدسه الشعب الصربي - وكما يقول الصرب بلغتهم: «شهيدٌ اختار ملكوت السماء بدلاً من مجد الأرض»؛ ولايزال هذا التعبير، «اختيار ملكوت السماء»، شعاراً صربياً، ومفهوماً عقلياً، يمد كثيراً من الصرب بالقوة، كما حدث مثلاً، عندما أجبر الكروات في عام ١٩٩٥ السكان الصربيين على إخلاء منازلهم، في منطقة «كراجينا» الحدودية، التي توالت على العيش فيها أسرهم طوال قرون.

كما اكتشف عالم الآثار البريطاني «سير آرثر إفانس-Sir Arthur evans»، - أحد مكتشفي «كنوسوس[1] -Knossos» - أثناء جولة له في منطقة البلقان في عقد سبعينيات عام ١٨٧٠، شعراء محليين لايزالون يتغنون بروايات عن

[1] - كنوسوس: ملكية قديمة تقع في جزيرة كريتي اليونانية، ازدهرت في العصر البرونزي بين عامي ٢٠٠٠ و١٤٠٠ قبل الميلاد. (المترجم)



كوسوفو، وتضحية الصرب البطولية، وملكوت السماء. وذلك يشابه أيضاً ما جرى في حروب عقد تسعينيات عام ١٩٩٠، ويعتقد كثيرون أن الخطابات التي ألقاها القائد الصربي «سلوبودان ميلوسوفيش» في عام ١٩٨٩ في مناطق تقطنها أكثرية ألبانية، أشعلت فتيل المجازر التي جرت بعد مضي عام.

ثمة حقيقة بالغة الأهمية يجب أن نتذكرها حين ننظر في ما حدث في عقد العام ١٩٩٠ وما قبل ذلك، من المجازر المتعددة، التي كثيراً ما شهدتها منطقة البلقان، تتكرر دورياً، بدءاً من أواخر القرن الثامن عشر وما بعده، بين أعراق بلقانية هي نفسها، سواء تلك التي كانت تخضع لحكم مسيحي، ولاسيما «آل هابسبورغ»، أو تخضع أحياناً لحكم بعض حكام البندقية، أو لحكم فريق كاثوليكي لفريق آخر، وأيضاً في ظل السيطرة الإسلامية في أجزاء أخرى من المنطقة، لم يكن قد حدث عنف قط، حتى في الماضي البعيد، كالعنف الذي اتسمت به الحروب في ما هو الآن وسط يوغوسلافيا السابقة وجنوبها. هذه الحقيقة تحدث فرقاً هائلاً في الطريقة التي نبحث فيها موضوع هذا الكتاب، الحروب الدينية.

كان الكروات الكاثوليك، يخضعون لحكم المجريين شركائهم في الكاثوليكة، ولحكم السلاف الذين كانوا ينتمون إلى العرق نفسه؛ وكان السلاف الذين حالفهم الحظ وهربوا من مجازر العقد الأخير من عام ١٩٩٠ كاثوليكيين أيضاً، وغالباً ما كانوا يخضعون لحكم النمساويين الكاثوليك.

مثلما كان الكروات الذين يعيشون في منطقة «داالميشيا -Dalmatia» يخضعون لحكم كاثوليك البندقية أولاً، وبعد ذلك لحكم كاثوليك النمسا وبينما لم يكن أحد يريد أن يخضع لسلطة أحد آخر، فإن الفارق الثقافي بين الكروات والمجريين مثلاً، كان ضئيلاً، ويكاد لا يذكر، إذا ما قورن بالفارق بين الصرب المسيحيين، والأتراك العثمانيين المسلمين. وعلى غرار ذلك بلغاريا



مثلاً، فعلى الرغم من وجود أقليات من المسلمين الـ«بوماك» في بلغاريا حتى الآونة الأخيرة، فإنها تمكنت من الهرب من أهوال الحروب الدينية وعلى الرغم أيضاً من أن كثيراً من الـ«بوماك» طُردوا من بلادهم في القرن العشرين، وأن آلاف المسيحيين المجريين ذُبحوا على أيدي الأتراك في القرن التاسع عشر، إلا أن أياً من الفريقين لم يحاول الانتقام من الآخر بشكل دموي.

وباختصار، كما يذكرنا «مارك مازوير»، إنه لمن الخطأ الفادح تماماً رؤية البلقان كبحر محيط عملاق من الدماء والعنف.

وكما أشار كثير من المؤرخين بدقة، علاوة على ذلك أيضاً، لم يكن بوسع أي شعب من شعوب جنوب شرق أوروبا، أن يجاري النازية في درجة العنف الذي مارسته في زمنها، حين قضت، في الهلوكوست، ليس على ستة ملايين يهودي وحسب، وإنما على أكثر من عشرين مليون روسي أيضاً، اعتبرتهم عرقياً، أدنى مرتبة ليس من حقنا، نحن في الغرب، أن نقدم عظات إلى الذين يعيشون في أنحاء أخرى من العالم، ولاسيما أولئك الذين، كما يقول أحد الكتاب، يوجدون وراء باب أوروبا الخلفي ولكن بدءاً من القرن الثامن عشر وصاعداً، ولاسيما بعد الإرهاصات الأولى لانتفاضة الصرب الأولى لانتفاضة الصرب ضد العثمانيين، في العام ١٨٠٤، كانت المجازر التي ترتكب باسم الدين، جزءاً لا يتجزأ من بعض أجزاء البلقان. وهذا ما يمكن أن نركز علية الآن بالتفصيل.

تصف قصة «تاج الجبل»، الشعرية، التي يعود زمن تأليفها إلى عام ١٨٤٠، مجزرة حدثت في تاريخ غير محدد، قبل ذلك ببضع سنين إلا أننا إذا ما نظرنا ملياً في العبارات التي استخدمت، يمكن أن نجد أنها يمكن أن تكون مكتوبة في عقد عام ١٩٩٠، أو بمناسبة مجزرة النازي ضد اليهود أو الروس أثناء الحرب العالمية الثانية، لأن الفكرة التي تعلنها هي نفسها تماماً.



نرى في القصيدة، أن صرب الجبل الأسود، الذين نفذوا عملية تطهير عرقي في القرن الثامن عشر اعتبروا «إبادة حلفاء الأتراك» في الواقع وبالمعني الحرفي مروعة.

يبدأ المطران «دانيلو» العملية، بقوله:

الذين يتقولون على اسم المسيح

سنعمدهم بماء أو بدم!

سنجتثّ الوباء من الحظيرة!

لندع أغنية الرعب تجلجل بقوة،

لتكن الصخرة الملطخة بالدم هيكلاً أصيلاً.

الهدف كان «تطهير» البلاد من الكفار، والعبارة المستخدمة هنا «Cestici» التي تمثل مفارقة تاريخية، بالمعنى الدقيق للكلمة، فهي كمصطلح، لم تستخدم قبل أول تمرد ضد الأتراك بين سنتي ١٨٠٤ و١٨١٣، ومعناها الحرفي، «إبادة مجموعات غير مرغوب فيها من السكان». الحظيرة -هي قبل أي شيء آخر- حظيرة الخنازير. كانت تربية الخنازير حتى أواسط القرن التاسع عشر، أحد أهم المصادر الأساسية للدخل في تلك المنطقة من البلقان.

بوسعنا هنا أن ندرك سيكولوجية هذه الأفعال فالتخلص من أحد لا يكون «منا»، يمثل ردة فعل سيكولوجية تقليدية، هي طرد الأجانب الذين ليسوا منا، على الرغم من أنهم يمكن أن يشكلوا نسبة ضئيلة من السكان، أو أنهم أبرياء تماماً من أي فعل خاطئ ألمّ بنا.



عادت وجهة النظر هذه لتتكرر بعد ذلك، في ضوء رغبة الفاشيين الرومان في تطهير بلادهم من اليهود في القرن العشرين، وما يتسم بالأهمية بالنسبة إلى ما نرمي إليه، هو أن «الحرس الحديدي» فعل ذلك تحديداً باسم المسيحية، وباسم «عصبة كبير الملائكة ميكائيل»، على الرغم من أن اليهود الرومان كانوا أقلية ضئيلة من السكان، تقلّ نسبتهم كثيراً عن نسبة اليهود في ألمانيا النازية.

هذا النمط من التفكير انتشر في البلقان حتى في زمننا الحاضر، الرغبة مثلاً، في قتل أكبر عدد ممكن من البوسنيين المسلمين، لإبادة مسلمي كوسوفو الألبان، وجعل صربيا كلها، منطقة صربية خالصة، عرقياً ودينياً.

وهو أيضاً مماثل لرغبة منظمة القاعدة بإقصاء الأميريكيين عن الأرض العربية المقدسة على الرغم من أن قوات الولايات المتحدة تشكل نسبة ضئيلة جداً من عدد السكان، فإن المصطلح الذي يستخدمه ابن لادن شبيه جداً بلغة المطران «دانيلو» التي يستخدمها هنا حين يشير إلى شركاء ابن لادن في الدين، السلاف المحليين المسلمين، وهي بلا شك لغة تجعل بيانات عام ١٩٩٨ مجرد سخرية صارخة، لأن المسلمين المتشددين في عصرنا، لا يرغبون في أن يكونوا مماثلين عقلياً لأولئك الذين قتلوا مسلمين أبرياء منذ ثلاثة قرون.

يُشَبّه المسلمون في قصيدة الشعر بالوباء، مثلما صرح ابن لادن في فتوى عام ١٩٩٨ تماماً. والأوبئة شر بطبيعتها ويجب استئصالها.

ولا ريب أن تقليص الأعداء إلى مستوى الجراثيم، يعني تجريدهم من إنسانيتهم، ومن ثم يصبح قتلهم أسهل. ونحن عادة لا نقدم على قتل كائن بشري مثلنا، ولكننا لا نتردد في أن نتخلص من أمراضنا، ولاسيما إذا كانت خطرة ومؤذية كالأوبئة.



الأمر الآخر الذي يجب ملاحظته، هو اللغة المستخدمة. خبراء مثل «مارك جورجنسماير-Mark Juergensmeyer»، وهو أستاذ في جامعة كاليفورنيا، أشاروا إلى أن المسألة تتعلق بتحويل نزاعات إنسانية عادية، إلى أخرى أكبر، ذات أبعاد كونية، لكي يصبح فرض عقاب إلهي أمراً ممكناً، على ما يمكن أن يكون في هذه الحالة وحالات أخرى مماثلة وفي أي سياق آخر، مجرد جريمةقتل. لا يقدم المرء عادة على قتل بشر، ولكن إذا أمره الله، حينئذٍ يجب تنفيذ أمره. هكذا يسير المنطق الملتوي. ومرة أخرى تُجرد المجزرة من الصفة الشخصية. فهي ليست قيام شخص بارتكاب جريمة وحشية، بل هي تنفيذ جماعة بأكملها إرادةالله، بأناس ليسوا أعداء شخصيين، بل أعداء الله، ولذلك يجب إبادتهم استجابة للأمر الإلهي.

تبدأ المذبحة ليلة عيد الميلاد:

ثمة ذبح، مذبحة كبرى، أيضاً.

بمنتهى السعادة استمعت إليها طوال ساعة.

أولئك الذين نفّذوا المذبحة يخبرون المطران بغطرسة:

بما أن وادي «سيتنجي» طويل،

فلم يهرب أحد، حتى ولا شاهد واحد

لكي يقول ماذا حدث هناك.

لقد أعملنا سيوفنا في جميع هؤلاء

الذين لم يقبلوا أن يتعمدوا،



ولكن أولئك الذين انحنوا أمام الطفل المقدس

ورسموا على صدورهم إشارة الصليب،

نقبل بهم إخواناً لنا.

لقد حرقنا بالنار جميع بيوت الأتراك

كي لا يبقى أي مسكن أو أي أثر

لعدونا الكافر المحلي في هذه الديار.

كان المطران يهتزّ طرباً، وهو يستمع إلى رواية المجزرة المثيرة:

يا له من فرح عظيم يا صقوري،

يا لها من بهجة، وحرية بطولية

في هذا الصباح، بعثتم روح المجد من قبور أجدادكم فرحاً بالنصر.

لايزال مزيد من الأبرياء المسلمين المذبوحين في كل مكان:

دامت المذبحة يوماً وليلة،

كان نهر «كريمنيكا» مملوءاً بالأتراك.

لم يعد ثمة في ناحيتنا

أي أثر للوجود التركي

باستثناء جثث بلا رؤوس، وأطلال.



علق «تيم جوداه» على الطريقة التي أصبح فيها هذا الشعر ملهم الأجيال المتأخرة. مستخدماً ترجمة إنكليزية مختلفة، ليبين كيف استخدم قتلة أكثر من ثمانية آلاف بوسني مسلم في سربرنيتسا في عام ١٩٩٥، المنهجية نفسها، والأساليب النفسية ذاتها أيضاً، لإبادة ضحاياهم كان يجب تحطيم كل شيء، وكل شخص، كيلا يبقى ثمة أثر، أو شاهد، أو ناجٍ يروي أي شيء أراد سائقحافلة، بجرأة بالغة، مساعدة بعض المسلمين على الهرب. ولكن الجنود أصروا على أن سائقي الحافلات أيضاً، ينبغي أن يكونوا متواطئين في عمليات القتل. ويجب أن يقتل كل منهم، على الأقل، مسلماً واحداً. وعندما سئل السائق المسكين ما إنكان بوسعه مساعدة أحد على الهرب، أكد أن الأوامر العسكرية تقول: «لا يريد الرئيس أن يبقى شاهد واحد خلفنا». وكما أشار «جوداه»، إن هذا مماثل تماماً لما حدث في «تاج الجبل»:

لا عين واحدة ترى، ولا لسان تركي هرب ليروي قصته في اليوم التالي!

أوكلنا أمرهم كلهم إلى حد السيف...

ربما كان عدد ضحايا المجزرة التي تصفها قصيدة الشعر، بالمئات وليس بالألوف أو عشرات الألوف، كمجازر الإبادة الجماعية اللاحقة.

ما له أهمية، كما يشير «جوداه» وكتّاب آخرون، هو أنهم يقتلون «سلافيين» لا أتراكاً. يجب التسليم بأن آلاف الأتراك إبان الثورة الصربية الأولى في عام ١٨٠٤ كانوا إمّا ضحايا قُتلوا ذبحاً، أو أجبروا على الفرار، ولاسيما في المناطق المحيطة ببلغراد ولكننا نعرف أن ضحايا المجزرة في قصيدة الشعر، وفي معظم المجازر الأخرى الموثقة تاريخياً، منذ ذلك الحين وحتى أيامنا هذه، كانوا جميعاً من السلاف، الجماعة العرقية نفسها التي ينتمي إليها أولئك الذين ارتكبوا الفظائع بعض المعلقين الذين يتسمون بالاستقامة السياسية، يكرهون فكرة النزاعات العنصرية، ولعل خير من عرض وجهة النظر هذه هو «ميخائيل



إيغناتييف - Michael Ignatieff» المعلق السابق في الـ BBC، والأستاذ في جامعة هارفرد، وعضو البرلمان الكندي الآن، إلا أنه باستثناء هذه النقطة، يقدم لنا في كتابه القيِّم «الدم والانتماء - Bood and Belongig» عن مجزرة يوغوسلافيا في عقد تسعينيات عام ١٩٩٠، تأويلاً ممتازاً للنوع الجديد من القوميات الهمجية، التي عادت للظهور بعد عام ١٩٨٩، ويقلل من أهمية دور الدين في أعمال القتل أثناء المجازر التي حدثت.

إنني، على الضد من ذلك، أعتقد أن «تيم جوداه» ومؤلفين آخرين كثيرين، مثل «بول موجزيس-Paul Mojzes» كانوا على حق، لأن الموضوعتعلق بحرب تقوم على أساس ديني كما أن «ميشيل سلز-Michael Sells» يصف ما حدث في عقد عام ١٩٩٠، في كتابه القيم: «جسر الخيانة: الدين والإبادة الجماعية في البوسنة - The Betrayd: Religion and Genocide in Bosia»، بأنه يعود كلياً إلى خلافات دينية لا عرقية، ويبيّن أن الخلاف الحقيقي الوحيد، بين الصرب والكروات والبوسنيين، خلاف ديني في الواقع، وأما في النواحي الأخرى فكلهم سواسية. لذلك فإن الحديث عن تطهير عرقي ليس صحيحاً، فالشعوب الثلاثة متماثلةعرقياً والتطهير هنا، تعبير ملطف للقتل، لذلك فهو تطهير ديني، لأن الاختلافات الدينية هي التي كانت تحدد ما إذا كان شخص ما في معسكرات الموت، سيقتل أو لا يقتل، كما حدث في المعسكر ذي السمعة السيئة، الذي أقامه الصرب في«أوميرسكا-Omerska»، ونال شهرة دولية عندما اكتشفه صحافيو التلفزيون في سنة ١٩٩٢.

كما أتفق أيضاً وكاتب مثل «جوداه» الذي يقول: إن العنصر الديني في الحكم التركي، كان أصل الاختلاف في البلقان.



أي إن السيطرة الإسلامية، وليس الإمبريالية التركية، هي التي خلقت المشكلة ولذا فإن جوداه، وسيلز، وآخرين، يقولون بحق، إن ذلك هو ما جعل العناصر الدينية المتنازعة في البلقان تتخذ منحى دموياً غريباً إلى حد بعيد، ولاسيما بدءاً من ثورة الصرب في عام ١٨٠٤ فصاعداً. فالحرب الأهلية بطبيعتها الخاصة جداً، تتسم بقسوة بالغة. والناس الذين عاشوا جنباً إلى جنب طوال أجيال، يقتل الآن بعضهم بعضاً، كما يذكرنا «ميشيل ايغناتييف» في دراساته المفيدة، كما أن إضافة البعد الديني، جعل وضعهم أكثر سوءاً.

ذلك لأن السلاف المسلمين كانوا يُعدّون خونة من نوع خاص: في حين كانوا يتكلمون اللغة نفسها التي يتكلمها زملاؤهم المسيحيون، وغالباً ما يرتدون الزي نفسه، ويعيشون في المدن أو القرى نفسها، أو بجوارها إلا أنهم، وأسلافهم كانوا قد اعتنقوا دين العدو المكروه الظالم: دين الأتراك العثمانيين.

ولهذا السبب، فإن الصرب على مدى أجيال متتالية، لا يسمون شركاءهم في الوطن بصفتهم هذه، وإنما يسمونهم «أتراكاً»، وهم طبعاً ليسوا أتراكاً، لكن كأنهم عندما غيّروا دينهم، غيروا هويتهم العرقية أيضاً. لقد أطلق ميشيل سلز على هذه الواقعة، كما أطلقت عليها أنا أيضاً، مسمى «قومية دينية». فالانتماء الديني والانتماء الوطني اندمجا معاً ليصبحا شيئاً واحداً. والذين ينتمون إلى جماعة عرقية معينة، يجب أن يكون انتماؤهم إلى دين معين أيضاً، وإلا، لن يكونوا من أعضاء تلك الجماعة العرقية حقاً، على الرغم من أنهم ينتمون إليها بيولوجياً.

هذا ليس ميداناً غير مألوف لمسنا هذا الشعور عندما نظرنا في حروب القرن السادس عشر الدينية في فرنسا، حين كان معظم الشعب الفرنسي يشعر بأنه، لكي يكون فرنسياً، من ناحيتي الأصالة والمواطنية، فمن الضروري أيضاً أن يكون كاثوليكياً وكان هذا يشبه الوضع في إنكترا، بدءاً من عهد الملكة إيزابيل



الأولى، ولكن دون أن يرافقه العنف، إذ كان الشعور الوطني يملي على المواطن الإنكيزي المخلص أن يكون بروتستانتياً، لأن كثيراً من الدول المعادية، مثل فرنسا، كانت ذات أغلبية كاثوليكية ساحقة. ووجود أقليات من الـ«هوغونوت» البروتستانت في فرنسا، والكاثوليك في إنكلترا، كان أمراً لا يمكن تحمله، مهما كان عدد تلك الأقليات قليلاً.

وهكذا كان الوضع في البلقان أيضاً، ولكنه أصبح أسوأ بما لا يقاس، لأننا نتحدث هناك عن أديان مختلفة تماماً. الإسلام والمسيحية، فالكروات الكاثوليك يكرهون سيطرة المجريين الذين كانوا كاثوليك مثلهم، والأقلية الكاثوليكية في إنكلترا، على الرغم من تشددها، لم تحصل على حقوقها المدنية حتى في عشريات عام ١٨٢٠، في بلد بروتستانتي يحكمه بروتستانت، وفي حين كان الصرب يشكلون أكثرية أرثوذكسية، كان يحكمهم شعب آخر، غريب اثنياً ودينياً، أي الأتراك المسلمون.

قابل مقاتل صربي فتى أثناء حروب يوغوسلافيا في تسعينيات عام ١٩٩٠، يعمل صحفياً من الواشنطن بوست، وروى له «إنه قطع حناجر ثلاثة أتراك، ولم تراوده قطّ أي كوابيس» (وحين قرأ السناتور «دانييل باتريك موينيهان» ذلك مرة تلو أخرى، شعر بأنه مضطر أن يرد، بأن الهمجية عادت فعلاً).

لم يكن الضحايا «أتراكاً» بل بوسنيين مسلمين. إن اعتبار الأعداء، ليسوا منهم فعلاً، يسهِّل مهمة قتلهم، وهنا تتجسد عملية تجريدهم من إنسانيتهم مرتين، مرة لأنهم أتراك وليسوا سلافيين، ومرة أخرى لأنهم مسلمون وليسوا مسيحيين أورثوذوكس.

كان الضحايا في بعض الأحيان أتراكاً؛ حدث ذلك في حربين، الأولى في عقد عام ١٨٧٠، عندما تحالف الأتراك والسلاف المسلمين معاً للهجوم على بلغاريا، وعلى الثوار الصرب، وثوار آخرين كانوا قد تمردوا على سلطة العثمانيين.



حينذاك قامت قوات الـ«باش بزق» العثمانية بارتكاب مجزرة أودت بحياة آلاف الأبرياء المسيحيين السلاف، ما دعا المسؤول البريطاني الكبير «وليام غلادستون» إلى وصفها بـ: «فظائع بلغاريا».

الحرب الضارية الأخرى كانت حرب البلقان الأولى في العام ١٩١٢، عندما تحالف اليونان والبلغار والصرب والرومان وآخرون معاً، لاسترداد أكبر مساحة ممكنة مما تبقى من البلقان في أيدي السلطات العثمانية في هذه المرة ارتكب الطرفان كلاهما فظائع مريعة، أغلبها كان ضد السكان المدنيين، وقد عانت أعداد هائلة منهم، وكان حالهم أسوأ من الجميع. لقد أُمِر الجنود اليونانيون بألا يعتبروا الجنود الأتراك كائنات بشرية. وهذا المفهوم مشابه لكيفية تعامل القوات الألمانية مع الجنود الروس، أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث اعتبرتهم «دون البشر - Untermenschen»، فساعد ذلك على عدم إحساس الجنود اليونانيين بخسائر الأتراك البشرية.

لم يضطلع الكروات بأي دور في حرب البلقان الأولى بين عامي ١٩١٢ و١٩١٣، لأنهم كانوا خاضعين للحكم الهنغاري، أما الصرب فكانوا أكثر نشاطاً، وحققت صربيا نجاحاً باهراً في استرداد مساحات واسعة من الأراضي، بما في ذلك ميراث الصرب التاريخي في قلب كوسوفو ولكن بعد عدة قرون، كان يعيش هناك، في ذلك الحين، قليل من الصرب، بينما كان معظم السكان، سواء آنذاك أو الآن، من الألبان المسلمين: زملاء أوروبيون، إلا أنهم ليسوا أرثوذوكس مسيحيين.

وكما ذكر تقرير لجنة «كارنيجي - Carnegie» عن الحرب التي حدثت قبل ذلك بقليل، كان غضب الجنود الصرب ضد الألبانيين مريعاً، كما حدث بعد سنوات عندما ذُبح عدد كبير من الألبان المدنيين الأبرياء في عام ١٩٩٩.



لاحظت اللجنة أن الجنود: «أطلقوا العنان لحقدهم القومي بكل قوة ضد القرويين المسالمين». وفي حالة خاصة واحدة، من مسرح الحدث، كان لديهم شهود:

كانت الحرائق ملتهبة في مكان حولنا... وكانت القرى الألبانية قد أصبحت طوال ليلتين مجرد أعمدة من نار [الشهود]. وحين وصلنا إلى «سكوبجي» كان السكان قد استيقظوا منذ الصباح الباكر ليكتشفوا أكداس أجساد الألبانيين، مقطوعة رؤوسها.

أولئك كانوا ضحايا الـ«Komitadjis»، قوات الصرب غير النظامية، التي كانت معروفة أثناء الحرب العالمية الثانية، وأثناء نزاعات عقد تسعينيات عام ١٩٩٠، باسمها البديل «Chetnikes». واصَل الشاهد روايته بقوله: إن الجثث كانت تطفو في النهر حتى مكان تواجدها في المدينة. ولكن ما كان مهماً وواضحاً هو أن أولئك الرجال الذين قُطعت رؤوسهم لم يقتلوا في معركة، بل كانوا مجرد مدنيين أبرياء مسالمين، ذُبِحوا لأن ديانتهم تختلف عن ديانة القتلة.

ولفتت اللجنة الانتباه إلى حدوث ما يُعرف اليوم «بالتطهير العرقي»، ووصفت ما شاهدته بما يلي:

«بيوت وقرى تحولت بأكملها إلى رماد، وأبرياء مسالمون ذبحوا جماعياً، وارتكبت أعمال عنف لا تصدق، من نهب وقسوة من مختلف الأشكال، تلك كانت الوسائل التي اتبعها صربُ الجبل الأسود، وما زالوا يتبعونها من أجل تحقيق تغيير عرقي في [تلك] المناطق».



إلا أنه يجب القول أيضاً، إن العثمانيين ارتكبوا في عقد سبعينيات عام ١٨٧٠، فظائع همجية ضد السكان اليونانيين والسلاف المسيحيين الأبرياء كذلك. وسجلت اللجنة رواية شهود عيان:

يوجد في كل مكان، أجساد هزيلة أشبه ما تكون بهياكل عظمية، وأيادٍ زرقاء منتزعة من سواعدها، وإيماءات غريبة، ومحاجر عيون، وأفواه مفتوحة كأنها تطلق صرخة يأس، وأسنان محطمة خلف شفاه مسودَّة وممزقة.

وقد لاحظت لجة كارنيجي أيضاً أنه إلى جانب التطهير العرقي، والقتل الجماعي، كان إضرام النيران في القرية أمراً عادياً.

إن حرق القرى بالنيران ورحيل السكان المهزومين، أمر عادي وتقليد من تقاليد التمرد، وحروب البلقان كلها. إنهاعادة من عادات تلك الشعوب جميعها.

أعتقد أن الدين والاختلافات الدينية تُعد أساساً عقلانياً مهماً لتلك الفظائع كما رأينا في رغبة الشعب الفرنسي ألا يكون ثمة بروتستانت يعيشون في فرنسا أثناء الحرب الدينية، وفي رغبة الألمان في القرن العشرين بأن تكون بلادهم خالية من اليهود «وبحسب العبارة الألمانية «Judenrein» نظيفة من اليهود». إن أولئك الذين يصبح الدين بالنسبة إليهم مرضاً - كأعضاء القاعدة الذين يريدون أن يعيش المسلمون الأصيلون فقط، وليس سواهم في شبه الجزيرة العربية- لا يمكنهم التعامل مع أولئك الذين يختلفون عنهم، كما لا يريدون العيش قريباً منهم، حتى وإن كانوا مجموعات قليلة.

بعد سنوات قليلة، بدءاً من عام ١٩١٥ فصاعداً، ارتكبت القوات التركيةفظائع ترقى حقاً إلى درجة الإبادة الجماعية، عندما ذُبح ملايين الأرمن المسيحيين في مجازر يعتبرها كثيرون الآن، وهم محقون، أول هولوكوست في القرن العشرين. أكتب هذه الأسطر، في الأسبوع الذي نال فيه الكاتب التركي



الشجاع «أورهان باموك» جائزة نوبل للآداب،التي يستحقها شخص مثله فعلاً، فقد كان يصر دائماً على أن الإبادة الجماعية الأرمنية حدثت فعلاً، وأن الأتراك هم المسؤولون عنها، في حين لاتزال تركيا، ونحن في القرن الحادي والعشرين، تود نكران ذلكالحدث   أثناء الحرب العالمية الثانية تفككت مرة أخرى، دولة يوغوسلافيا المصطنعة، التي كانت قد نشأت بعد عام ١٩١٨، ولكنها تفككت في هذه المرة بالقوة، على أيدي النازيين الألمان والغزاة الإيطاليين، (واستولت بلغاريا وهنغاريا على بعض أجزاء من أراضيها أيضاً) وكان الكروات قد منحوا الاستقلال، لكن الدولة الكرواتية ضمت أيضاً معظم أراضي البوسنة والهرسك. ما تطور بعد ذلك كان حرباً ثلاثية: حيث تعاون الكروات «الحركة الثورية الكرواتية -Ustasa» والبوسنييون المسلمون الفاشيست المتعاونون مع العسكريين الألمان والإيطاليين، ولا سيما ضد الصرب؛ القوات الصربية (Chetniks) الموالية للملك المنفي التي تقاتل قوات المحور والشيوعيين، وقوات يوغوسلافية هي جيش حزبي شيوعي يقوده تيتو الذي حارب المحور أولاً، كما حارب القوات الصربية أيضاً.

ساندت بريطانيا أصلاً القوات الصربية، ولكنها عندما اكتشفت، فيما بعد، أن تيتو هو الذي كان يحارب قوات المحور فعلاً، دعمت قوات الأنصار الحزبية (جيش التحرير الشعبي بقيادة تيتو)، وكانت النتيجة انتصار تلك القوات، وإعادة إنشاء دولة يوغوسلافيا في عام ١٩٤٥، تحكمها سلطة شيوعية. مات تيتو في عام ١٩٨٠، وبرحيل الرجل القوي أخذت الدولة المصطنعة تتفكك مرة أخرى، مع نشوب حرب عام ١٩٩١، وإعلان الكروات والسلاف استقلالهما، وتلاهما بعد ذلك بوقت قصير، استقلال البوسنة.

حاول تيتو أثناء الحرب العالمية الثانية، بكل ما أوتي من قوة، أن يرسخ شعوراً قومياً يوغوسلافياً أصيلاً، دينياً وعرقياً، كما عرفه هو والشيوعيون كذلك بـ«أخوة ووحدة» كان تيتو يدرك أن ذلك أمر مهم، لأن كثيراً من الفظائع



ارتكبت على نطاق واسع، خلال الفترة الواقعة بين الأعوام من ١٩٤١ إلى ١٩٤٥. هنا لم يكن القتال أساساً، وفي الواقع، بين مسلمين ومسيحيين، لأن كثيراً من المسلمين حاربوا مع الكاثوليك الكروات ضد الأورثوذوكس الصرب. وكانت القوات الكرواتية الفاشستية (Ustase) أحياناً تتصرف بقسوة بالغة فاجأت حتى القوات الألمانية النازية. كما أن الكروات كانوا يريدون إجبار الصرب على اعتناق الكاثوليكية، وكان تغيير الانتماء الديني بالقوة أمراً مألوفاً. إلا أن القوات الصربية وقوات الأنصار التابعة لتيتو، التي تضم في صفوفها مختلف المجموعات العرقية والدينية، ارتكبت فظائع أيضاً، ولاسيما إحداهما ضد الأخرى. بذل تيتو كل ما في وسعه لكي تبقى يوغوسلافيا موحدة، وتلك ليست مهمة سهلة.

لأن ذكريات جميع الفظائع الوحشية التي ارتكبت أثناء الحرب لم تضمحل، وإنما بقيت مكبوتة، إلى أن تغيرت الظروف. يعتقد بعض رعاياها- ممن قضيتُ مع عدد منهم أيام إجازة ممتعة في عقد سبعينيات عام ١٩٧٠، وفي عقد ثمانينيات عام ١٩٨٠- أنهم مواطنون يوغوسلاف حقاً، كائنة ما كانت جنسيتهم أو ديانتهم (هذا إن كان لهم أي عقيدة دينية) مهما كانت ثانوية.

اعترف تيتو أيضاً بالبوسنيين المسلمين جماعة مختلفة بذاتها، ذات هوية قانونية خاصة. وقد كانوا الجماعة الأكبر عدداً في البوسنة دولتهم، ولكن عددهم لم يتجاوز أبداً نسبة ٥٠٪ من عدد السكان، لأن كثيراً من الصرب والكروات يقطنون في المنطقة، كما كان أسلافهم يعيشون فيها منذ قرون ولكن، في حين كان يبدو مثلاً، أن كل شيء يسير على ما يرام، عندماجرت الألعاب الأولمبية الشتوية في «ساراجيفو»، وصفق العالم لما بدا أنه مثال الانسجام بين الأعراق والأديان، إلا أن ذلك المظهر الخارجي كان مخادعاً تماماً.



بعد تفكك دولة يوغوسلافيا، بدءاً من العام ١٩٩١ اندلعت حملةمسمومة من النزاعات العنيفة في الأوساط الأكاديمية، وفي أوساط أخرى أوسع، تتعلق بمسألة عدد الأشخاص الذين ذبحوا أثناء الحرب، كم كان بدقة...؟ ومتى ذبحوا...؟ ومن كان الفاعل...؟ هل كان عدد الضحايا عشرات الآلاف...؟ أو مئات الآلاف...؟ ومن الذي قام بالقتل...؟ولماذا...؟ ولما كان الاختلاف يتعلق غالباً بهوية الفاعلين القومية، فإنه يستحيل الآن أن نقول بدقة من كان محقاً كل ما يمكن أن نقوله على وجه اليقين هو أن مئات ألوف الضحايا الأبرياء براءة خالصة قُتلوا، وأن إنجاز تيتو في الحفاظعلى وحدة تلك الجماعات المتباينة، بعد عام ١٩٤٥ وحتى وفاته في عام ١٩٨٠، كان إنجازاً مذهلاً.

إن إحدى أهم الصعوبات التي واجهت تيتو، هي أن تلك الفظائع بقيت حية، كأنما حدثت بعد ظهر أمس. والصعوبات الأخرى هي أن المجازر الجماعية التي حدثت قبل قرون استُدعيت من جديد، كأنما حدثت في ذلك الأسبوع، أو في ذلك اليوم نفسه وكان غضب الصرب في كوسوفو الذي يعود إلى عام ١٣٨٩ لايزال يضطرم بالسخط، على الرغم من أن الصرب استعادوا استقلالهم فيعقد عام ١٨٥٠، وأصبحوا بلا شك، أكبر الأطراف المكونة لدولة يوغوسلافيا وأقواها بعد عام ١٩١٨، ومن ثم، بعد عام ١٩٤٥.

وبالتالي، عندما اندلعت الحرب الدينية ثانية في عام ١٩٩٢، وبعد استقلال كرواتيا، والبوسنة بعد ذلك، حدثت مجازر للمرة الثالثة في القرن العشرين، أدت إلى سقوط ضحايا جلهم من المدنيين الأبرياء.

هنا، ينبغي أن أقول إنني لا أؤيد مبرر «الكراهية القديمة» التي استخدمها بعض رجال الدولة الأوروبيين بعد عام ١٩٩٢، الذين أكدوا أيضاً أن شعوب البلقان كلها كانت مجرد حفنة من الهمج يقتل بعضهم بعضاً، منذ زمن بعيد، وأنه



من الأفضل ألا تتدخل البلدان الأوروبية التي لا تجاورها. ولكن السماح بأن يموت مئات ألوف المدنيين في عمليات تطهير عرقي قريباً من عتبات أبوابنا، أمر يُعدّ بالتأكيد، غير أخلاقي، وأنا أتفق كلياً مع الإجماع الذي تم في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث توافق جمهوريون مثل «بول دول» مع الديموقراطي «بيل كلينتون»، على أنه ينبغي أن يتدخل الغرب لوقف المجزرة، وذلك ما قامت به الولايات المتحدة بموجب اتفاقيات سلام «دايتون» في عام ١٩٩٥.

ومع ذلك، بينما كان معظم سكان بلاد البلقان يعيشون معاً بوئام طوال قرون، وكان الكروات يعيشون في ظل حكم المجر حتى عام ١٩١٨، دون أن يسجل التاريخ حدوث مجازر جماعية، فإن المرء لا يستطيع أن يتغاضى عن أن العلاقة بين المسيحيين والمسلمين شهدت مجازر متبادلة استمرت طوال ما لا يقلّ عن مئتي عام. وعلى الرغم من مضيزمن طويل على نشوء تلك الكراهية، فإنها لا تنطوي على مشاعر قديمة، فما إن نشبت الحرب في عام ١٩٩٢ حتى استؤنفت من جديد مجازر المدنيين الأبرياء.

هنا أتفق والكثير مما قالته حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، عن إحصاء جميع المجازر والفظائع التي ارتُكبت في البلقان في عقد تسعينيات عام ١٩٩٠ يمكن أن يكون الصرب مدانين بارتكاب ما لا يقل عن ٧٠٪ منها، والكروات بارتكاب حوالي ٢٠٪ منها، (ضد بوسنيين مسلمين في مدن مثل «موستار-Mostar»، وضد صرب في «كارايجينا- Karaijina» في عام ١٩٩٥)، والبوسنيون بارتكاب حوالي ١٠٪ منها. إن مؤيدي الجناح اليميني للبوسنيين المسلمين الذين أعلنوا أن هذه الجماعة الأخيرة كانت بريئة تماماً، لم يأخذوا بعين الاعتبار العدد الكبير من الدلائل المحايدة المتوفرة ضدهم.



ومع ذلك، يجب أن نتذكر أن مجازر متعددة كتلك المجزرة التي ارتكبتها قوات كرواتية غير نظامية ضد بوسنيين مسلمين مدنيين، واكتشفتها قوات بريطانية في «أهميسي - Ahmici»، لم يرتكبها، على سبيل المثال، صربيون. ولكن جميع المذابح الجماعية، والمجازر خلال أمد طويل، كانت بلا شك تقع على عاتق الجنود الصربيين وحلفائهم المحليين.

وعلاوة على ذلك، فإن كثيراً من المجازر، كما بيّن كثير من الشهود بوضوح، كانت دينية. ولنأخذ على سبيل المثال مجزرة تقليدية ارتكبها الجنود الصرب في الثالث من أيار/مايو ١٩٩٢، في قرية «هارانكا- Haranca» البوسنية هناك، قامت المليشيات الصربية، والجنود غير النظاميين، الذين كانوا قبل قليل مجرد مواطنين عاديين، بإضرام النيران في جميع البيوت، وقتلوا جميع سكانها تقريباً وجد الصحفي البريطاني «تيم جوداه» امرأة، كانت واحدة من قلة قليلة جداً من الناجين من تلك المذبحة.

قرب البيت الذي قتلوا سكانه، برك من الدم الجاف لاتزال تُرى.

لماذا...؟ لماذا...؟ أنت تسأل لماذا...؟ صرخت امرأة، والدموع تنهمر على خديها: «لا يوجد طعام ولا ماء. وكل مخزوننا حُرق إنهم يريدون تنظيف هذه المنطقة عرقياً. لا يوجد سبب آخر. وذلك لأننا مسلمون» أعتقد أن هذا تحليل صائب وهو أيضاً ما سماه فرويد «نرجسية الفوارق الطفيفة» وقد التقط هذه الجملة مؤلفون كتبوا عن حروب البلقان مثل «سيلز - Sells» و«إيجناتييف - Ignatieff». فأقرباء تلك المرأة ذبحوا لأنهم مسلمون، يدينون بدين الأعداء الذين اضطهدوا، طوال قرون، الصرب القتلة الحاليين.

وكما لاحظت لجنة «كارنيجي -Carnegie» فعلاً في عام ١٩١٣، كانت المذابح الجماعية والحرائق من الأمور العادية في نزاعات البلقان، ولكن أضيف إليها في عقد تسعينيات عام ١٩٩٠ عنصر آخر لم يكن متفشياً في



منطقة الحروب الدينية المحلية، على الأقل. هذا العنصر هو الاغتصاب المتعمد، الاغتصاب الممنهج كسياسة.

غالباً ما كان الاغتصاب يُرتكب أثناء الحروب على نطاق واسع، ولعل خير مثال على ذلك أعمال اغتصاب على نطاق واسع، رافقتها غالباً جرائم قتل ملايين من النساء الألمانيات، اللواتي اغتصبهن جنود القوات السوفيتية بعد احتلال ألمانيا ما بين عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥ هذا لا يعني أنّ قوات الحلفاء كانت بريئة كلياً، ولكن الشعب الألماني لاحظ أنه بينما حدثت بعض الانتهاكات في الجبهة الغربيةمن قبل جنود بريطانيين وأمريكيين، إلا أن فظائع انتهاكات القوات السوفيتية في الجبهة الشرقية كانت على نطاق واسع وبدرجة لا تقاس.

لم تحظَ الانتهاكات مبدئياً، وما رافقها من أعمال النهب على نطاق واسع، بإدانة السلطات السوفييتية ولا بإقرارها ومعروف أن ستالين أقرّ بأن القوات بحاجة إلى بعض الترفيه ونظراً لضخامة المذبحة التي يمكن أن يكون عدد ضحاياها في الجبهة الشرقية، بلغ عشرين مليون قتيل، وربما أكثر، كثيرون منهم من المدنيين الروس، وضمنهم يهود سوفييتيون قضى عليهم النازي، ولعل ذلك أدى إلى أن يكون ذلك الجزء من الحرب أشد وحشية من أي حرب شُنت في تاريخ الحروب كلها. وفضلاً عن ذريعة الإفراغ الجنسي المعتاد، كان هناك، بلا شك، عنصر الانتقام الذي هيمن على تفكير القتلة السوفييت فقد اغتصب كثير من جنود الجيش الأحمر زميلاتهم النساء من دون أن تتوفر لديهم أي ذريعة مقبولة ليس ذلك وحسب، بل إن النساء الألمانيات اللواتي اغتُصبن كن بريئات، إلا من كونهن ينتمين إلى الجنسية نفسها التي ينتمي إليها الرجال الذين ارتكبوا الفظائع ضد الروس منذ العام ١٩٤١ إن الاغتصاب لا يمكن أن يُغتفر أبداً، كائنة ما كانت ذرائع القيادة السوفيتية لتسويغه أدركت السلطات السوفيتية في نهاية المطاف، أن ذلك كان من شأنه أن ينال إلى حد كبير، من سمعة الاتحاد السوفيتي لدى الألمان الذين سيخضعون لحكم



روسيا، وفق قواعد إدارة مناطق الاحتلال المحددة في نهاية الحرب وهذا ما اكتشفه منذ زمن قريب «جون لويس غاديس- John Lewis Gaddis» وكتّاب آخرون بعد بعد قراءة وثائق ملفات الاتحاد السوفييتي التي نشرت مؤخراً. وقد ذهب «غاديس» في الواقع بعيداً حين أراد أن يؤكد بجدارة، أن ذلك العمل الهمجي الذي ارتكبه السوفييت، يعني بالنسبة إلى معظم الألمان، أن جمهورية ألمانيا الديموقراطية، دمية النظام السوفيتي في ألمانيا الشرقية، لم تكتسب قط، شرعية في نظر مواطنيها العاديين، لأنه كشف حقيقة الطبيعة الاستبدادية للنظام السوفييتي.

وفي جميع الأحوال، على الرغم من أن السلطات السوفيتية في البدء غضت النظر عن أفعال جنودها، فإن أي جندي سوفيتي لم يغتصب أحداً، بأمر صريح من الكرمل.

لكن ذلك كان مختلفاً كلياً عن الاغتصاب الجماعي للنساء المسلمات في عقد عام ١٩٩٠ من قبل الجنود الصرب والقوات الصربية غير النظامية وما هو مروع حقاً، فضلاً عن فعل الانتهاك نفسه، أن الاغتصاب كان سياسة صربية رسمية ضد النساء البوسنيات المسلمات، لا من أجل إذلالهن في استعراض للقوة الذكورية وحسب، وإنما من أجل أن يحملن من رجال صربيين، لأن المولود الذي يولد نتيجة هذه الواقعة يكون، وفق العقيدة العنصرية والدينية للصرب، صربياً أورثوذوكسياً، وليس بوسنياً مسلماً وبذلك يمكن أن ينظف البلقان من العنصر البوسني المسلم، سواء من منظور عرقي أو ديني وكما أكد العالم النفساني أستاذ جامعة فيرجينيا «فاميك فولكان- Vamik Volkan» حين كتب عن تلك الأعمال الوحشية، فقال: إن ذلك المنطق، من وجهة النظر البيولوجية، ليس صحيحاً، وفضلاً عن أن تلك الأفعال تُعدّ جرائم حرب، فإن تلك العقيدة، على الرغم من أنها تفتقد إلى الدقة، لكن آلاف الجنود الصرب الذين قاموا باغتصاب النساء البوسنيات في سائر أنحاء البلقان



كانوا مؤمنين بها فعلاً أثارت أعمال الاغتصاب في البوسنة التي تتم أساساً برعاية الدولة اهتمام وسائل الإعلام في العالم. ولكن تلك السياسة استمرت حتى عام ١٩٩٩، وعندما هاجم الصرب سكان كوسوفو الألبان أيضاً، أنقذهم، هذه المرة، تدخل حلف شمال الأطلسي - الناتو.

المثال التقليدي لهذه الظاهرة كلها، يمكن رؤيته بما حدث في ذلك العام، في منطقة «كيرز-Qirez» في كوسوفو فالنيران أضرمت في القرى الستة التابعة لها، وأجبر سكانها على الهرب ولوّثت أكثر من ٧٠٪ من الآبار عمداً بإلقاء جثث القتلى فيها، لجعل المنطقة كلها، بشكل دائم، غير صالحة للسكن.

ولحسن الحظ، كان ثمة عدد قليل من الناجين عاشوا تجارب بشعة، ورووا روايات مروعة روى فريق منهم لمركز حماية المرأة والطفل: كان الاغتصاب أحد أسلحة الحرب التي استخدمت ضد النساء والفتيات الصغيرات كان ثمة عدد كبير من الرجال في عداد المفقودين، ولا يعرف أحدٌ عنهم شيئاً. قتلت إحدى النساء من قرية «كوتشيسي - Kochece» أمام أولادها.. وأضرمت النار في ثلاثة أشخاص أحياء.. وقتل في تلك القرية عشرون شخصاً (بينهم طفل، وخمس فتيات صغيرات، بعد أن اغتصبن قبل قتلهن، وبعد ذلك ألقيت جثثهن في آبار المياه). اغتصبت تلك الفتيات قوات أرسلت لهذه الغاية.. سرت شائعات مفادها أن بعض النسوة ألقين في آبار المياه، وهن على قيد الحياة، بعد أن اغتصبن.

يُعد مفهوم الشرف ركناً بالغ الأهمية في المجتمع الإسلامي ولذلك فإن الاغتصاب مصدر خزي ليس للمرأة المغتصبة وحسب، وإنما لأسرتها كلها أيضاً، وأحياناً للقرية أو للمجتمع الأوسع وفي بعض البلدان الإسلامية - كما يحدث في بعض أنحاء باكستان اليوم - تتعرض المرأة الضحية «للعقاب» بصفتها زانية، على الرغم من أنها اغتصبت دون موافقتها ورغماً عنها. والحمل



خارج إطار الزوجية مصدر عار، والمرأة التي تُغتصب وتحمل نتيجة اغتصابها، يكون عارها مضاعفاً. وهذا الأمر كان الصرب المعتدون يعرفونه جيداً بالتأكيد.

خلال عمليات الاغتصاب، كانت توجد «معسكرات الاغتصاب» الخاصة لهذا الغرض، وكانت تُنقل إليها النساء جماعياً. روت امرأة بوسنية وُجدت في أحد تلك المعسكرات قرب «بريجيدور - Prijidor» أنه قيل لها ولأخريات، إنهن سوف يلدن «أطفالاً صربيين». وفي معسكر آخر مشابه قرب «دوبوج - Doboj» روت امرأة أن النساء اللواتي حملن، تعيّن عليهن البقاء هناك ثمانية أشهر أو أكثر إلى أن يضعن «مواليدهن الصربيين» وكان الصربيون يفكرون أنهم، على هذا النحو، سيتخلصون من البوسنيين، وستتخلص صربيا من سكان البلقان المسلمين كانت الحركات النسائية التي كتبت حول أعمال الاغتصاب هذه تعرف أنها ليست مجرد نوع من العنف المأساوي الذي غالباً ما يمارس أثناء الحروب، بل كانت أسوأ من ذلك إلى حد بعيد، لأنها ليست مجرد جريمة ضد المرأة فحسب، وإنما جريمة إبادة جماعية متعمدة ضحاياها مجموعة سكانية معينة.

(حدثت انتهاكات مشابهة، كما قرأت، في ظروف مختلفة تماماً، أثناء محاولة باكستان قمع تمرد بنغلاديش، في عام ١٩٧١. لكن الفارق الأساس، في هذه الحالة، هو أن الجماعتين كانتا مختلفتين عرقياً، إلا أنهما تدينان بدين واحد. اغتصب رجال من البشتون الباكستانيين نساءً بنغلاديشيات، على الرغم من أن الباكستانيين كما البنغلاديشيين يدينونبدين واحد، هو الإسلام).

وكما أعربت الكاتبة المرموقة، وداعية حقوق المرأة، في الولايات المتحدة الأمريكية «كاترين ماك كينون-Catherine Mac Kinnon» بأن الأمر:



اغتصاب عنصري كسياسة رسمية أثناء الحرب، وحملة إبادة جماعية هدفها السيطرة السياسية... الاغتصاب أداة للتهجير القسري، الاغتصاب لإجبارك على أن تغادر موطنك وألا تعود إليه أبداً.

اعترفت تقارير مختلفة أن الإبادة الجماعية في البلقان، لم تكن أمراً جديداً: لاحظت لجنة «كارنيجي» أن حروب عام ١٩١٣ كانت الأسوأ، لأنها حدثت بين أناس عاشوا بوئام معاً سكاناً مدنيين قبل النزاع كانت هناك نزاعات «لم تنشب بين الجيوش وحدها وإنما بين الشعوب أيضاً»... لذا كانت حروباً دموية جداً، ولهذا فإنها... تؤدي إلى القضاء على السكان، وتدمير مناطق بكاملها. لذلك كان هدف الجناة، كما لاحظت اللجنة، «الإبادة الجماعية لسكان أجانب».

كان الاغتصاب في العقد الأخير من سنة ١٩٩٠ جزءاً من العملية نفسها، كما أشار تقرير صادر عن الأمم المتحدة في سنة ١٩٩٥، حول موضوع الاغتصاب:

الأغلبية العظمى من الضحايا كنّ مسلمات، وكان القوميون الصرب فحسب، يرتكبون الاغتصاب كجزء من مخطط إرهابي شامل لجميع أنحاء البلاد، يعرف باسم التطهير العرقي.

والأمر الغريب أيضاً فيما يتعلق باغتصاب النساء المسلمات، هو أن النساء الكاثوليكيات الكرواتيات كنّ يخططن للهرب من ذاك الرعب، ولكن آلاف الكرواتيين قتلوا أو تم تطهير مناطقهم عرقياً - كان الاغتصاب انتقاماً لأمر آخر مختلف تماماً ارتكبه الأتراك العثمانيون منذ قرون مضت.

ذلك الأمر كان نظام آل «ديرفشيم - Dervshime» الذي رأيناه آنفاً. وهو يرسي قاعدة تؤكد أن العثمانيين لم يكونوا عنصريين، لأنه كان بوسع المرء آنذاك أن يشغل أعلى المناصب الرسمية، بما في ذلك منصب رئيس الوزراء،



طالما كان مسلماً كان كثير من المسؤولين الكبار مثلاً، من السلاف الأوروبيين أو من أصول إفريقية، ولم يكن للونهم سواء أكانوا بيضاً أم سوداً أي أهميةما يُعتد به أن يكونوا مسلمين، وتلك مسألة أساسية. وربما كانت المناصب الدبلوماسية استثناء، إذ كان يشغلها يونانيون أرثوذوكس من رعايا الإمبراطورية، فقد كانوا غالباً ما يُستخدمون كمترجمين، أو سفراء، ولاسيما في المفاوضات مع بلدان مسيحية.

أراد العثمانيون، في الوقت ذاته، جهازاً من الموظفين والمستخدمين يكون ولاؤهم كلياً لهم، وألا يدينوا بالولاء لأحد غيرهم. ولهذا السبب كانوا يلجؤون إلى اختطاف صِبية، على نطاق واسع، من بيوت مسيحية- سلاف من البلقان، وشركس من القوقاز- ثم يقومون بإرسالهم إلى إسطنبول، لكي يعتنقوا الإسلام، ويصبحوا أوفياء للسلطان فحسب، كجنود في سلك «الانكشارية - Janissaries» أو موظفين مدنيين «Dervshime».

أكد «فاميك فولكان»، عن قناعة كما أعتقد، أن الاغتصاب، بالنسبة إلى بعض الصرب، على الأقل، كان انتقاماً من الأتراك العثمانيين، بسبب الطريقة التي لجأوا إليها، منذ قرون، حين سرقوا صبية سلافيين من القرى وحولوهم إلى مسلمين، وإلى جنود أو موظفين مدنيين. ذلك أمر يبدو لنا غريباً جداً، وبالتأكيد، لم تكن النساء البوسنيات اللواتي عوملن بهمجية بالغة في القرن العشرين، بأي شكل من الأشكال، مسؤولات عمّا فعله السلاطين العثمانيون، منذ مئات السنين.

لا أعتقد أنه يمكن تطبيق هذه الفرضية على معظم أعمال الاغتصاب التي ارتكبها الصرب ضد النساء البوسنيات، على الرغم من أنه قد يكون لها تأثير في بعض الحالات التي بحث فيها «فولكان» ولكن طريقة اختطاف الصبية للحصول على موظفين إداريين أوفياء، كانت بلا شك، جزءاً من الشعور البالغ



بالإذلال الذي عانى منه الصرب طوال قرون، على أيدي الحكام الغرباء دينياً، وذلك كان بالتأكيد أحد أسباب كراهيتهم العميقة لزملائهم سلاف البوسنة الذين اعتنقوا دين العدو.

وبينما كانت النساء يُشكّلن، إلى حدٍّ بعيد، أغلبية الضحايا، كان بعض الرجال البوسنيين المسلمين يُجبرون أيضاً على عضّ خصيتي زملائهم السجناء المسلمين البوسنيين. مرة أخرى، كجزء من خطة لإخصاء السكان المسلمين في البلقان ومنعهم من الإنجاب في المستقبل. وكما لاحظنا آنفاً، فقد أُجبر سائقو الحافلات على المشاركة في الفظائع، من أجل توريط أكبر عدد ممكن من الرجال الصربيين في أعمال العنف ضد البوسنيين.

يرى كثير من الخبراء أن ثمة منطق قوي وراء هذه الهمجية، مهما كان الأمر عصياً على فهمنا ففي العقد الأخير من عام ١٩٩٠ تحدثت صحف العالم كثيراً عن «عنف أرعن» إلا أن ما يبدو أنه رعونة بالنسبة إلى الأشخاص العدول الذين يقرؤون الصحف في «نيويورك»، و«شيكاغو»، و«لوس أنجيلوس»، هو في الواقع، أمر بالغ الحساسية بالنسبة إلى الآخرين ذوي العقلية الراديكالية المختلفة، ولنقل في مدينة «بال» أو «بلغراد» من مدن الغرب.

إذا كنّا على استعداد دائماً لمواجهة تهديد الإرهاب بفعالية، فإننا يجب أن ندرك أن ملايين الناس في أنحاء العالم يفكرون على نحو مختلف تماماً عما نفكر نحن؛ وما لم نبادر إلى استكشاف تصورهم أنفسهم للأمور بدقة، فإننا لن ننجح في التصدي بشكل صحيح لكثير من المشكلات التي تواجهنا في القرن الحادي والعشرين وهذا ينسحب أيضاً علينا، كيف نرى النشاطات الإرهابية التي يرتكبها أولئك الذين لا يختلفون في الواقع عنا، من الأوروبيين البيض، وملايين غيرهم من الأقليات العرقية التي تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن هم أقرب إلينا مما يمكن أن نقرّ ونعترف.



وما يلي سأعرض حكاية من مخيلتي، تجري أحداثها في بعض الأماكن الحقيقية، وتستلهم أفكار الكاتب «مارك هشتر - Mark Hechter» (وحكايات مشابهة لكتّاب آخرين).

دعنا نقول على سبيل المثال: لدينا قريتان متجاورتان: (س) ثم (ع) سكان (س) من الصرب البوسنيين الأرثوذوكس، أما سكان (ع) فهم من البوسنيين المسلمين كانت هاتان القريتان تعيشان في وفاق دائماً، على الرغم من اختلاف ديانتيهما يوجد في قرية (س) كنيسة أرثوذوكسية كبيرة، ويوجد في قرية (ع) مسجد يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر.

نشبت الحرب؛ فأصبحت العلاقات بين سكان القريتين (س) و(ع) أشد توتراً ولكنهم تمكنوا من الاستمرار في العيش معاً إلا أنهم الآن يتحدثون عبر الهاتف بدلاً من تبادل الزيارات شخصياً لم يعد من المناسب وجود المرء في القرية الأخرى فقد تنشأ مشكلات.

حين وصل نمور الصرب، يقودهم زعيم المجموعة الشهير «أركان»، إلى القرية الصربية (س)، تبدد التعايش المثالي على نحو مأسوي لدى الجميع. إذ أجبروا، بفوهات بنادقهم، الفتيان الذكور جميعهم على السير وإياهم إلى قرية البوسنيين المسلمين (ع)، وعندئذٍ أضرموا النار وقتلوا فيها، كل الذكور، وجميع البوسنيين المسلمين كذلك. ثم أخذوا النساء اللواتي نجين من المجزرة، بعيداً إلى أحد «معسكرات الاغتصاب».

كذلك هُدم المسجد وسوي بالأرض؛ فالمسجد، كما يعتقد الصرب، ركن أساسي في تاريخ إسلام البلقان، ولذلك فإنه، كما المكتبة الإسلامية ذات الشهرة الواسعة، والأرشيف في «ساراجيفو»، يجب إزالتها جميعها من المنطقة. والمسجد يشكل ذاكرة مسلمي البوسنة، ويجب اجتثاثه منها، جنباً إلى جنب مع اجتثاث سكان البوسنة المسلمين جميعهم وذلك لأن تدمير رموز



العدو له من الأهمية ما لأهمية قتل العدو نفسه (الذين يريدون المزيد حول هذا الموضوع، يمكنهم قراءة كتب المؤَلف الأكاديمي بامتياز، عالم النفس البريطاني «أنطوني سميث»، فهو يعالج موضوع الرمزية الاثنية والذاكرة الدينية منذ الأزمنة القديمة وحتى زمننا الحاضر. فعلم الرموز علم أصيل وليس بدعة واختراعاً، كاختراع «دان براون» لبطل روايته «شيفرة دافينشي!».

يقول «أركان» ورجاله حينئذ لسكان القرية (س) بعد الزلزال، بما أن بعض فتيان القرية شاركوا في مجزرة قرية (ع)، على الرغم من أن مشاركتهم كانت على مضض، فإن قريتهم (س) بأسرها تُعدّ مسؤولة عن الفظائع التي ارتكبها النمور ليس ذلك فحسب، بل إن أقرباء الضحايا البوسنيين المسلمين وأصدقائهم الذين يعيشون في كل مكان، يريدون، بلا شك، الانتقام. ما يعني أن الجميع في قرية (س) يتهددهم خطر الإبادة من قبل قوات البوسنة المسلمين. ولذلك ليس هناك سوى سبيل واحد للحماية، هو الاستجابة لكل ما سيقوله النمور، وسيتولى «أركان» ورجاله مهمة الحفاظ على أمن السكان وسلامتهم من انتقام المسلمين. وذلك يعني أن كثيراً من شباب القرية، يجب أن يأتوا للمشاركة في مزيد من الغارات الأخرى على قرى البوسنيين المسلمين. وسيكون من الأفضل ألا يتفوه أحد بأي حديث عن أنشطة النمور، وإلا فإن «أركان» وقواته سيثأرون من الفاعلين.

والخلاصة، فإن سكان قرية (س) المساكين الذين كانوا مسالمين حتى تلك اللحظات، وجدوا أنفسهم محاصرين وغارقين، بلا أي أمل في الهرب من العنف الذي يحيط بهم فهم في نظر كل من حولهم، شركاء في جريمة مواطنيهم الصرب، على الرغم من أن أياً منهم لم يكن إرهابياً قبل بدء الحرب، وأنهم لا يبتغون أي شيء آخر سوى العيش بسلام مع البوسنيين المسلمين معظم روايات تلك الفترة تؤكد أن الكنيسة الأورثوذوكسية الصربية كانت



تعمل بشكل وثيق جداً مع السلطات الصربية -على الرغم من أنه يفترض أن معظم المسؤولين الصربيين الذين تعاونت الكنيسة معهم كانوا ملحدين شيوعيين- وذلك لإثارة الذعر بين الصرب الذين يعيشون خارج حدود صربيا، ولاسيما في أوساط الذين يعيشون منهم ضمن حدود البوسنة.

يصف «فاميك فولكان» كيف عاش الصرب البوسنيون بسلام مع الكروات الكاثوليك، ومع البوسنيين المسلمين في المنطقة. وكذلك كيف حاول المسلمون البوسنيون إقامة نظام ثيوقراطي، يكون فيه الصرب مضطهدين، مثلما سبق أن كانوا قبل قرون مضت. الاغتصاب والفظائع الأخرى، أصبحت آنئذ صيغة دفاع ديني/ عرقي ضدّ العدو الإسلامي:

هذا الخيال جعلهم يحاولون زيادة عدد سكانهم باغتصاب نساء بوسنيات مسلمات. قرّر الصرب أن الطفل المولود من أمّ غير صربية، بعد أن يغتصبها صربي، سيكون مولودها صربياً، ولن يحمل أي أثر وراثي من هوية أمّه الشخصية.

اعترضت قلة من الجنود الصربيين الشجعان، على طلب انخراطهم في أعمال الإبادة الجماعية البشعة، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أنه ليس لديهم خيار آخر. فالمشاركة في أفعال الاغتصاب التي ترعاها الدولة، لم تكن خياراً بل أمراً إلزامياً. اكتشف أحد المنشقين العلاقة الوثيقة بين الاغتصاب والرغبة في القضاء على مسلمي البلقان جميعاً:

الاغتصاب جزء منه: إنه نشر الخوف والرعب على نحو يجعل الناس الذين يهربون، لا يفكرون في العودة ثانية. وعمليات الطرد حولت صرب البوسنة إلى أناس يملأ الحقد نفوسهم، ويفترض أن المجازر والانتهاكات لا بد أن تغذي النفوس بالكراهية.



ليس مجرد مصادفة أيضاً أن يكون الصرب قد استخدموا الدعارة العنيفة لتخدير مشاعر رجالهم، والحطّ من قدر ما تتمتع به النساء من تقدير.

ذلك كله وثيق الصلة أيضاً بما رأيناه منذ قليل، فالهدف كان ارتكاب أفعال مريعة تؤدي إلى أن يصبح التعايش، بين الشعبين الصربي والبوسني المسلم، أحدهما إلى جانب الآخر، أمراً مستحيلاً مرة أخرى، وتوريط أكبر عدد ممكن من الصرب لخلق ظروف ينتابني دائماً، كمؤرخ متدرب، قلق الابتعاد عن سبيلي لسبر غور ميادين اختصاصات أخرى إلا أنني أعتقد أن «فاميك فولكان» يمكن أن يرينا، كعالم نفسي متخصص في النزاعات العرقية الدينية، الأسباب العميقة التي أدت إلى أحداث مريعة، عانى منها كثير من الناس العاديين. ويجب ألا ننسى أن معظم الفظائع التي حدثت أثناء حروب البلقان في القرن العشرين، ارتكبها في الواقع أناس، كانوا يعرفون بعضهم بعضاً، كما اكتشف «ميشيل ايغناتييف» في كتاباته عن نزاعات العقد الأخير من العام ١٩٩٠، أو أناس كانوا على الأقل، نشأوا ليس بعيداً عن المكان الذي نشأ فيه ضحاياهم يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضاً، أن الحرب الأهلية في الولايات المتحدة مثلاً، على الرغم من أنها كانت دموية، ومات فيها ملايين الضحايا، كان الشماليون يريدون هزيمة الجنوبيين، وليس القضاء عليهم. أما في المجازر التي نصفها في هذا الفصل، منذ التمرد الصربي في عام ١٨٠٤ وحتى مذبحة الألبانيين التي ارتكبها الصراب في «راساك - Racak» في عام ١٩٩٩ كان الهدف دائماً الإبادة الجماعية للعدو، إبادة جماعية للمسلمين، وليس مجرد هزيمتهم ولذا حين نفكر في الحروب الأهلية في البلقان يجب أن نتذكر دائماً أن شيئاً مريعاً كان يحدث بين الولايات أثناء الحرب الأهلية في الولايات المتحدة.





٦

حرب على الإرهاب

أو حالة نزاع مستمر - الحياة منذ ٩/١١

إنني كمواطن بريطاني، اعتاد إرهاب الجيش الجمهوري الأيرلندي، كانت مناسبة رائعة -إذا كان هذا هو التعبير المناسب - أن أكون كأجنبي متعاطفاً مع الولايات المتحدة في ٩/١١ كنت قد بدأت مهمتي حين وصولي كموفد جديد بمنحة دراسية إلى جامعة فيرجينيا، ولكنني كنت أيضاً قد أصبت مصادفة بجرح قبل أيام قليلة ولذلك كان بوسعي أن أقضي يومين كاملين لا أفعل شيئاً سوىمتابعة الأخبار المريعة، بينما كانت الولايات المتحدة نفسها تعترف، مثل كثير من بلدان العالم الأخرى، بأنها ضحية الإرهاب كنت في مكان يحمل الاسم المناسب، وهو «معهد دراسات العنف والثقافة والنجاة - Instituteon Violence Cultureand Survival» وأتمتع بعلاقات شخصية وثيقة مع «مجموعة تحليل الحوادث الطارئة- CIAG. Critical Incident Analysis». نتيجة ذلك تعيّن عليّ أن أعدِّل حالاً، الكتاب الذي كنت أعده عن الإرهاب الديني، لكي أضمنه جماعة من المتطرفين الإسلاميين يطلق عليها اسم القاعدة، التي كانت حتى ذلك الحين غير معروفة تماماً. كان جميع من يحيطون بي، ومنهم الخبراء، مثل صديقي البروفسور «لاري آدم - Larry Adams» من مجموعة «CIAG» وأحد المتخصصين المرموقين في مسألة العنف والإسلام، قد أصيبوا بالصدمة. لأن المناعة التي كانت تنعم بها الولايات المتحدة الأمريكية منذ قرون، ولم تتعرض بفضلها لأي اعتداء خارجي على أراضيها، وصلت إلى نهايتها.



لا أستهلّ فصول كتبي عادة بأقوال شخصيات مرجعية، لأن اهتمامي ينصبّ على أحداث جرت منذ ما يزيد على ألف سنة. بما في ذلك الحروب الصليبية التي بدأت منذ تسعة قرون، إلا أنها تبدو لبعض الناس ما زالت حية حتى اليوم ولا أحد ممن نعرفهم شخصياً شارك فيها لكن، سيجد كل شخص واعٍ في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر «٩/١١»، ذكرى لا تُمحى، ولاسيما من من كان مثلي، ومثل العديد من الأصدقاء والناس الذين عرفوا أشخاصاً ماتوا في ذلك اليوم المشؤوم، أو تضرروا مباشرة بسبب تلك الأحداث المشينة.

نشعر جميعاً، نتيجة لذلك، أن الحرب على الإرهاب تُحدِث فارقاً شخصياً كبيراً في حياتنا. بينما أكتب هذه السطور، وأنا في طريق عودتي إلى بريطانيا من فصلي التعليمي السنوي الأول في الولايات المتحدة، التي تأثرت بشدة من الضربة الإرهابية التي أصابتها، لم تعترضني، حين خرجت، أي مشكلة حين أحمل حقيبة يدوية على متن الطائرة، ولكن الآن توجد قيود صارمة على ما قد أحمله بيدي على متنها. لقد هزت بشدة أحداث بريطانيا في السابع من تموز/ يوليو «٧/٧» مدينة كمبريدج، التيأعيش فيها، فالمدينة تقع على الخط المباشر لمحطة «كينج كروس» للركاب، مسرح أحد التفجيرات الانتحارية، وكانت حفيدتي البالغة خمسة عشر عاماً من عمرها، وهي تتدرب في إجازة الصيف على العمل في المتحف البريطاني القريب من هناك، على بعد بضعة أمتارفقط من الحافلة التي تفجرت. وكنا كلنا نتلقى تباعاً روايات من كثير من الناس، حول الحرب ونشأة الإرهاب الذي بلغ درجة هائلة من العنف المريع في السنوات الأخيرة.

ومع ذلك، على الرغم من أن كل مَن حولي في مدينة «شارلوتسفيل - Charlotteville» في فرجينيا، كانوا جميعاً في حالة صدمة مفهومة تماماً، وعدم تصديق في الأيام التي تلت ٩/١١، فإنني وجدت نفسي أتفق و«سير ميشيل هوارد - Sir Meachel Howard» المؤرخ العسكري المرموق في



جامعة «أكسفورد» وجامعة «يال»، على أن العالم لم يتغير في ٩/١١، على الرغم من هول ما حدث في نيويورك وفي واشنطن العاصمة. وأن ما جرى كان بالأحرى -(وأنا أضيف الآن تأويلي هنا)-أن الولايات المتحدة وجدت نفسها منخرطة في نزاع مضى عليه أكثر من ألف عام، ويحتمل جداً أن يستغرق زمناً طويلاً وأن ما حماها، حتى الآن، من مغبة مثل تلك الفظائع، كان البعد والجغرافيا، وأنها حين وجدت نفسها طرفاً في النزاع، كانت قد فقدت في الوقت ذاته، مناعتها التي نعمت بها منذ وصول طلائع المهاجرين إلى أراضيها منذ أربعمئة عام خلت.

ظهر الإرهاب الديني مجدداً تحدوه رغبة مريعة بالانتقام في جميع أنحاء العالم، ولاسيما منذ نهاية الحرب الباردة. وفي الواقع، غالباً ما يرواد بعض الأوساط اليوم، شعور بالحنين إلى يقينيات الحرب الباردة القديمة، في ظل قوتين عظيمتين يفترض أنهما متساويتان، ومتصارعتان، وقادرتان في الوقت ذاته، على ضمان عدم تورطهما في نزاع محلي، يؤدي إلى اندلاع حرب نووية، ومن ثم إلى فناء الكرة الأرضية (وبما أنه كان لي كثير من الأصدقاء المنشقين خارج الستار الحديدي قبل عام ١٩٨٩، فأنا لا أؤيد رأيهم في الحنين إلى أعوام ١٩٤٥ - ١٩٩١، كما أن العالم الآن صار أكثر انقساماً وأشد اضطراباً، مما كان عليه في تلك السنوات).

لقد كُتب كثير من اللغو بعد فترة نزاعات عام ١٩٩١ حول أماكن؛ كالبلقان مثلاً - وهي منطقة كتبت عنها كتابين- وحول ما سمي «نزاعات قديمة» كالنزاع بين الصربيين والبوسنيين الذين كانوا يقتتلون طوال قرون، وحول المذابح الجماعية في العقد الأخير من سنة ١٩٩٠ التي تشكّل فصلاً آخر من ملحمة استغرقت زمناً طويلاً. إن كثيراً من الحروب الدينية التي ناقشناها في هذا الكتاب، كانت ولاتزال، في الواقع، أكثر تعقيداً.



ومع ذلك، على الرغم من أن النزاعات الحالية قد تكون جديدة -لم تكن يوغوسلافيا موجودة كدولة قبل العام ١٩١٨ مثلاً، ولم يبقَ لها في عام ٢٠٠٦ أي أثر على الخارطة - أعتقد أن السبب الأساسي للنزاعات كان هو نفسه طوال ألف عام، على الرغم من تغيُّر أسماء المشاركين.

وبعبارة أخرى، إن الإرهاب الذي رأيناه يعاود الظهر بعد انتهاء الحرب الباردة في عام ١٩٩١، والضربة القوية البشعة التي وُجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ٩/١١، لا يختلف كثيراً، في الواقع، عن الاستيلاء على القدس في العام ٦٣٨، وفي العام ١٠٩٩: كلها نزاعات باسم عقيدة دينية ولهذا السبب ارتكبت مجازر كثيرةفي القرون الماضية، فقد قُتل حوالي ٨٠٠٠ شخص في «سريرنيتسا» في عام ١٩٩٥، وقُتل أكثر من ٣٠٠٠ في واشنطن العاصمة وفي نيويورك، في عام ٢٠٠١.

إلا أن الذي اختلفَ هو أن الولايات المتحدة الأمريكية، القوة الأكبر والأعظم في مطلع القرن الحادي والعشرين، كانت متورطة مباشرة لأول مرة، في نزاع من النوع الذي تعاني منه البشرية منذ زمن مغرق في القدم جداً.

لم يتغيّر العالم في ٩/١١: ولكن ما تغيّر هو أن الأمريكيين أصبحوا يدركون الآن، من خلال خبرة شعبهم الخاصة، ومن خلال ماعاشوه في حياتهم على نحو مباشر، كل ما يتعلق بالعنف الديني وما يحيط به.

يحدث هذا بالتأكيد، على الرغم من أن الأكثرية الساحقة من الأمريكيين، سواء أكانوا متدينين أم علمانيين، لا يرون في الواقع، أن النزاع يكمن بين المسيحية والإسلام وهذا الموقف يعدّ جزءاً من المشكلة فعلاً، لأن معظم الغربيين يفصلون بين الكنيسة والدولة، ويجدون أنه يكاد يستحيل فهم عقلية الذين لا يقيمون الآن هذا الفصل الذي مضى عليه مئات السنين. أما في الإسلام،



من جهة أخرى، فيُعدُّ دمج الإيمان الديني في الدولة من طبيعة تصور المسلمين للدين.

(وأنا أقدم آخر مرجع شخصي في هذا الفصل، أقول إن المسلمين الذين تحدثت إليهم، خارج التسجيل أثناء استشارات خاصة مسجلة، كان يبهرهم لقاء مواطن أبيض غربي وناشط ديني وإني في الواقع مسيحي أمارس واجباتي الدينية بعيداً عن استعدائهم، وغالباً ما كان ذلك يشعرهم بالارتياح: أشكر الله لأنهم التقوا الآن شخصاً يمكن أن يدرك معنى أن يكون المرء مؤمناً بعقيدة دينية، كما يفعل المؤمنون سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين، وكائنة ما كانت العقيدة التي يؤمنون بها. وعلى الرغم من أنهم يعرفون أنني لا أتفق ومعتقداتهم الإسلامية، إلا أنهم يدركون أنني كشخص مؤمن أشبههم، على نحو ما، في كثير من الجوانب، في عالم أصبح علمانياً أكثر فأكثر وليس متديناً وأودّ أن أضيف، إن أولئك الذين تحدثت إليهم كانوا مسلمين جميعاً وليسوا عدوانيين، وغالباً ما كانوا شجعاناً يهتمون كثيراً بإحلال الوئام وعلاقات حسن الجوار بين الأديان. ولحسن الحظ، لم أكتشف حتى الآن أن إرهابياً يقف إلى جانبي...).

إن نهوض الدين مجدداً، كرائد رئيسٍ في شؤون العالم، لا بمعنى العنف والإرهاب، ولكن أيضاً في كثير من النواحي، استولى على حين غرة، على العالَم الأكاديمي العلماني تماماً. إن نظرية العلمنة، لأستاذ جامعة هارفارد «هارفي كوكس -Harvey Cox» تفترض أن معظم الناس حول العالم سيصبحون مع مرور الزمن، أقل تديناً، بدلاً من أن يصبحوا أكثر ورعاً وربما يعود ذلك إلى أن كثيراً من الجامعات الغربية تُعدُّ معاقل للعلمانية، وذلك لا يعني بأي حال من الأحوال، أنها بالضرورة معادية للدين، فاليقظة الدينية فيالقرن العشرين كانت صدمة كبرى.



ولحسن الحظ، لم يكن جميع الأكاديميين يجهلون ما وراء الحرم الجامعي الغربي، لذا يتعيّن علينا أن نفكر فيما كتبه الخبراء عنه في السنوات الأخيرة، لأن الكتّاب يساعدوننا على وضع الأحداث المحيّرة في إطار عمل مفيد. ويجب أن أضيف أن التركيب «The synthesis» فيما يلي هو من وضعي أنا، ولما كانت بعض الأعمال التالية هي أعمال أكاديمية، فيمكن ألا تكون معروفةً للجمهور الأوسع.

ألّف عالم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا «مارك جورجنسماير- Mark Juergensmeyer» كتابين موضوعهما العنف الديني، كان لهما تأثير كبير. كتابه الأول صدر في وقت مبكر من العام ١٩٩٣ وعنوانه: «هل الحرب الباردة الجديدة...؟ قومية دينيةً تتصدى للدولة العلمانية - The New Cold War? Religious Nationalism Confronts the Secular State»، وكتابه الثاني، الأكثر مبيعاً: «رعب في ذهن الله - Terror in The Mind of God»الذي حمل غلافه الأمامي صورة أسامة بن لادن، وقد صدر قبل وقت طويل من ٩/١١ وعلى نحو مشابه ألّف «جيلز كيبل -Gills Kepel» الخبير الفرنسي في الإسلام والتطرف الإسلامي كتابه: «انتقام الله - The Revenge if God» قبل وقت طويل من الموجة الحالية من الإرهاب الديني الدولي، الذي الذي يمكن القول إنه تنبأ بحدوثها. وقد أثبتت الأحداث اللاحقة صحة توقعاته جنباً إلى جنب مع ما طرحه «جورجنسماير» في كتابيه أيضاً.

إذن، لفهم الأبعاد العالمية لهذه لصحوة الدينية، ولاسيما عند النظر بشكل رئيسٍ في أشكالها الـ لاعنفية، يوضح «فيليب جينكينز-Philip Jenkins» في كتابه: «المسيحية التالية-Next Christendom» أن المسيحية لم تعد ديانة غربية، بل عادت نحو جذورها في العالم الثالث، فأعضاء الكنيسة الأُسقفية الناشطين في نيجيريا مثلاً سبعة عشر ضعف أعضاء هذه الكنيسة في بلدها الأصلي إنكلترا يقول «جينكينز»، على الرغم من أن نمو المسيحية في



بعض أنحاء العالم كأمريكا اللاتينية مثلاً، لا ينطوي على الانخراط في أي صراعات عنيفة، إلا أن الأمر لم يكن كذلك في أماكن كثيرة أخرى، ولاسيما في غرب إفريقيا وفي جنوب شرق آسيا مثلاً، حيث واجهت مزاحمة ديانة تبشيرية عالمية ومتنامية، هي الإسلام.

يقودنا هذا إلى المجموعة الأخيرة من الخلفيات الفكرية التي يجب مراعاتها، قبل أن نلقي نظرة تفصيلية على الحرب الحالية على الإرهاب، ونرى إذا ما كانت حقاً، مثلما تبدو من حيث الظاهر.

هناك نظريتان مختلفتان تماماً، واحدة سيئة السمعة غالباً، وأخرى يُعرف عنها القليل خارج الأوساط الأكاديمية ولكن النظريتين كلتاهما تعودان إلى ما قبل ٩/١١، وقد أعلن عدد كبير من الخبراء في وسائل الإعلام، أن أحداث ذلك اليوم أثبتت صحتهما تماماً النظرية الثانية بقيت غامضة نسبياً، ومع ذلك، فإني أرى أنها تفسّر على نحو أفضل، موجة الإرهاب الديني، وهي أوفى من الأطروحات الأخرى الأكثر شهرة وإثارة للجدل.

النظرية الأولى: نظرية «صموئيل هنتينجتون - Samuel Huntington» أستاذ جامعة هارفارد، التي قدمها أولاً إلى جمهور معظمه من الأكاديميين، في مقال نشرته مجلة الشؤون الخارجية في عام ١٩٩٣. وبعد ذلك، حين حازت شهرة أوسع تخطت الدوائر الجامعية، عندما صدرت في كتاب في عام ١٩٩٦ تحت عنوان: «صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي - The Clash of Civilization and the Remaking of World Order» والنظرية الثانية: نظرية أستاذ جامعة مسلم يُدرِّس في ألمانيا اسمه «بسام طيبي- Bassam Tibi»، ضمَّنها كتابه:

«تحدي الأصولية: الإسلام السياسي وفوضى العالم الجديد» Challenge of Fundamentalism: The Political Islam and the New



Disorder، الذي صدر في عام ١٩٩٨، ثم صدرت طبعة ثانية له، ككتاب جيب في أعقاب ٩/١١، في عام ٢٠٠٢.

قال هنتينجتون في مقاله وفي كتابه، إن النزاعات في المستقبل، بعد أن انتهت الحرب الباردة الآن، ستقوم على ما يسميه هو «حضارات»، وكل حضارة من الحضارات تقوم على ما تساهم به مجموعات مختلفة من الناس بشكل مشترك مع آخرين، في أماكن معينة في العالم. إن أهم نقاط العامل المشترك للوحدة، وفق ما يقول، تستند في الأصل إلى التراث الثقافي والديني. ولهذا السبب يُسمّي الحضارة الفردية للمجموعات باسم دينها، وهنا تصبح نظريته مثيرة للجدل.

بصرف النظر عن إيماننا الفعلي، فنحن في الغرب نعيش في المنطقة المسيحية الغربية، التي تقوم على أساس من المسيحية البروتستانتية والكاثوليكية المشتركة. كما أوضح هو بعمق- وكما كتبت أنا في مكان آخر عن هذا الموضوع -هذان التياران المسيحيان يتخذان كلاهما الإصلاح قاسماً مشتركاً بينهما. وقد تعيّن على الكاثوليكية أن تستجيب للتغيرات التي استحدثتها البروتستانتية، فضلاً عن أن أوروبا الغربية وابنتها الثقافة الأمريكية، تمتعتا أيضاً بتأثيرات عصر النهضة في القرن الخامس عشر، وعصر التنوير في القرن الثامن عشر.

كان الإصلاح والنهضة حدثين مزلزلين في مسار التاريخ والفكر الذي مرت به الحضارة المسيحية الأرثوذكسية، التي كانت روسيا مركزاً لها، على الرغم من أن الأرثوذكسية قامت تاريخياً، كما رأينا، على الثقافة البيزنطية والإمبراطورية يضاف إلى ذلك، أن الكنيسة الأرثوذكسية عانت من وطأة حكم دينٍ أجنبي هو الإسلام، الذي تخلصت منه روسيا مبكراً، بينما لم يكن الأمر كذلك في منطقة البلقان التي لم تتخلص من النير الإسلامي قبل أوائل القرن العشرين



وكانت هنغاريا، وحدها، من البلدان المسيحية الغربية التي خضعت لذلك المصير، لمدة وجيزة نسبياً.

ثمة حضارات أخرى تفسّر نفسها، إلى حد ما، مثل الحضارة: الهندوسية المتمركزة في الهند، والشنتوية المتمركزة في اليابان، والكونفوشية المتمركزة في الصين، والبوذية في جنوب شرق آسيا.

ولكن المثير للجدل حقاً في أطروحات «هنتينجتون»، كان وصفه الحضارة الإسلامية، بأنها ذات «حدود دموية». وبعبارة أخرى، بدا أنه يريد أن يقول، حيث نجد الإسلام نجد نزاعات دموية وعنف.

ولذلك رأت وسائل إعلام كثيرة أن حدث ٩/١١ ارتكبه مسلمون باسم الإسلام. وكانت تلك اللحظة المناسبة ليقول «هنتينجتون»: إن نظريته كانت صحيحة حقاً، وأتت الأحداث لتؤكد ما كان قد تنبأ به سابقاً قبل ثمانية أعوام.

كان «هنتينجتون»، في الواقع، قد أخذ جملة «صدام الحضارات» من مقال حول الإسلام كتبه «برنارد لويس»، ونُشر في مجلة «أتلانتيك» الأسبوعية في العام ١٩٩٠.

ولكن، كما رأينا لدى تحليل تداعيات عام ١٩١٨، أن كثيراً من المسلمين، عنيفون ومسالمون على السواء، تملكهم شعور قوي بالغضب فعلاً، تجاه ما لمسوا أنه إذلال ألحقه بهم الغرب بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية وقد بيّن «برنارد لويس» بوضوح في مقالة له أن الأمر لم يكن بهذه البساطة. وفي السنوات القليلة المنصرمة، كان «لويس» أحد القادة المشجعين على غزو العراق، والسبب الذي أدلى به إلى الصحافة، وإليّ شخصياً حين التقينا في عام ٢٠٠٥، وجود طبقة وسطى متعلمة واسعة، تضم عدداً كبيراً من النساء المهنيات، وهذه الطبقة قادرة على إرساء الديموقراطية والحرية بالمعنى



الغربي. وحتى في عام ١٩٩٠ كان يراود «لويس» شعور دائم بأن الصدام لم يكن أمراً مستبعداً. وأعتقد أن هذا غذّى تفاؤله منذ ذلك الحين.

ليس هذا هو المكان المناسب لنقول ما إذا كان رأي «برنارد لويس» الوردي في عراق «محرر»، وبالتالي فإن غزوه في عام ٢٠٠٣ كان مبرراً وما زال ولكن أعتقد أن الأمر الذي يتسم بالأهمية هو أن نقول، إن مخترع عبارة «صِدام الحضارات» لا يمتلك صلابة الرأي المتماسك مثل الأستاذ «هنتينجتون» الذي جعل العبارة مشهورة.

أستاذ آخر من جامعة «هارفارد» اسمه «دافيد ليتل - David Little» حدثني في عام ٢٠٠١ عن «ارتباك الحضارات»، وكتب عنه لاحقاً إلى معهد السلام في الولايات المتحدة وهو يشاطر آخرين كثيرين الرأي بأن ثمة معركة تجري ضمن الإسلام فعندما كنت أكتب هذا الفصل في صيف عام ٢٠٠٦، قرأت في صحيفة واحدة تقريراً عن أكثر من عشرين مسلماً شيعياً ذُبحوا في العراق على أيدي مسلمين سُنة متطرفين.

وفي الواقع، إن معظم المجازر التي ارتكبت في العراق بعد الغزو الغربي له، لم تكن مجازر قَتَل فيها عراقيون قوات بريطانية أو أمريكية - على الرغم من أن الإصابات المختلفة في القوات الأمريكية لم تكن قليلة- بل كانت مجازر تم فيها قتل مسلمين شيعة -وفي بعض الحالات يكون القتل انتقاماً- بأيدي مسلمين سُنة، سواء أكان القتلة من العراق، أم من الأردن، كما في حالة الزرقاوي القائد الإرهابي، أو كانوا مسلمين سنة من شرق المتوسط كما شهدت باكستان حالات قتل سنية/شيعية أيضاً.

ما الذي يؤمن به أولئك المتطرفون..؟ سمعنا جميعاً الكثير عن «أسامة بن لادن»، وعن «القاعدة» المنظمة التي يعتقد كثيرون الآن أنه من الأفضل ألا يُعتبر أفرادها مجرد مجموعة فريدة من الأشرار، وإنما ثلة من المتعصبين الذين



يمتازون بأنهم يؤمنون بأفكار متماثلة، تربط بعضهم بعضاً أواصر مباشرة واهية، ومعتقدات دينية مشتركة، وتطلعات واحدة.



خاتمة

تناولت دراستنا للحروب الدينية مدة تزيد على أربعة عشر قرناً. رأينا خلالها قبائل صغيرة تقيم إمبراطوريات شاسعة، بتداعياتها التي واكبتنا حتى ولوج القرن الحادي والعشرين. ورأينا كيف يقتل الجار جاره، بحيث يبدو أنه عقاب كوني بأمر الله. وتوصلنا إلى الاستنتاج المحزن، بأن عصر الحروب الدينية لم ينتهِ بعد، وبأنه لايزال يعيش معنا، وبأنه بقي قوة هائلة كما كان عبر التاريخ دائماً.

كما رأينا أيضاً، أن الحروب الدينية لا تقتصر على دين بعينه، وإني لعلى ثقة من ذلك، وفي هذا الصدد نحن جميعنا خطاة وبينما يمكن أن يكون من الملائم لبعض الناس أن يُنحي باللائمة على دين أو آخر، أعتقد أننا تعلمنا ما يكفي لكي نقول إن ذلك ليس من العدالة أبداً. يمكن أن يبدو الآن، أن الإسلام مثلاً، هو الطرف المذنب، لأن الارهابيين المسلمين يبثّون الكراهية باسم العقيدة الإسلامية، ولأن معظم ضحاياهم غربيون أبرياء. ولكن المسلمين في الماضي القريب، كانوا ضحايا، كما كانوا جناة كذلك، وماتزال الآلاف الثمانية، ضحايا «سريرنيتسا»، تصرخ في وجوهنا معلنة براءتها المطلقة. وفي الهند، وقع المسلمون والمسيحيون على السواء فريسة هياج غوغاء متطرفين هندوس يريدون تخليص شبه القارة من الكفار، مثلما يريد المسلمون المتطرفون تحرير شبه الجزيرة العربية من الكفار. الدين في كلتا الحالتين مختلف، ولكن بالتأكيد المطالب هي نفسها.

من الضروري أن نختم دراستنا بما يدعو إلى التفاؤل.

وهذا ما أريده! فمنذ سنوات قليلة قمت بذلك في كتاب حول موضوع مشابه، هو موضوع إيران، هذا البلد الذي كان العديد من شبابه موالياً نشيطاً للغرب، وكان له رئيس إصلاحي يريد بتؤدة تحسين الوضع شيئاً فشيئاً، وتحقيق نتائج



مرموقة للسلام، الذي عبّر عنه الرئيس خاتمي بالدعوة إلى «حوار الحضارات» ولكن كم كانت آمالنا كلها خائبة، فإيران موجودة على خارطة التطرف أكثر من أي وقت مضى، يقودها شخص يدرك حتى بعض أعضاء المؤسسة الهرمية الدينية الإيرانية، أنه متعصب خطير، ويحتمل أن تتسلح إيران سريعاً بترسانة نووية يمكن أن تهدد الاستقرار الإقليمي والعالمي.

ولكن رأينا بعد ذلك أيضاً، كيف أن أحداً لم يتنبأ - ربما باستثناء «عمانوئيل تود- Emmanuel Tod» و«دانييل باتريك موينيهان - Daniel Patrick Moynihan»- بالنهاية الهادئة للحرب الباردة، وزوال الكتلة السوفيتية، والاتحاد السوفيتي نفسه، ثم انضمام أوروبا الوسطى والشرقية اللتين تحررتا بسرعة إلى مجموعة الأمم الأوروبية الحرة والمزدهرة. ولم تحدث قطّ المعركة الفاصلة النووية، التي طالما أقلقت أجيالاً عديدة منذ عقد خمسينيات عام ١٩٥٠ وحتى عقد ثمانيات عام ١٩٨٠، وعلى الرغم من ذلك، ليس هناك على ما يبدو، توقعات كبيرة تدل على أن روسيا ستتحول إلى نظام تعددي ديموقراطي. كما يبدو أن الحرب العالمية الثالثة والإبادة الشاملة، أمر أكثر من مستبعد.

الحرب تتغير دائماً، وهي تتغير مرة أخرى الآن، في القرن الحادي والعشرين، حيث نشهد ما يسميه الخبراء بالحرب غير المتكافئة «Asymmetric»، التي تختبرها القوات البريطانية والأمريكية الآن في أماكن مثل العراق وأفغانستان، والتي تُعدّ الأعمال الإرهابية في ٩/١١ مثالاً تقليدياً لها.

الإسلام متورط الآن في كليهما، ولكن ذلك يمكن أن يكون، كما أظن، مرحلة عابرة. إذ لم يكن يتصور أحد في عام ١٩٨٠ حين كان «تيتو» لايزال حياً يحكم يوغوسلافيا، أن البلقان بعد خمسة عشر عاماً منوفاته سيكون مسرحاً لأسوأ مجزرة تشهدها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية، وأن فظائع لم تشهدها



تلك المنطقة منذ عهد النازيين، ستحدث هذه المرة، ليس باسم العِرق، وإنما باسم الدين وعلى الرغم من أن الأمثلة التالية لها علاقة بالإسلام، إلا أنهليس لدينا أي سبب لكي نفترض أن الأمور ستظل كذلك، ولكي نستخدم واحدة من عبارات «دونالد رامسفيلد» سيئة السمعة، نقول: يوجد كثير من «أشياء مجهولة نجهلها» مثلما يوجد أيضاً كثير من «أشياء مجهولة نعرفها»، ويمكن أن تحدث!أودّ أن أقول، إن الحرب غير المتكافئة ليست حرباً جديدة تماماً، كما يقول الخبراء العسكريون وإذا ما فكر المرء مثلاً، مرة أخرى في تاريخ البلقان، لما راوده الشكّ في أن قوات الأنصار التابعة لتيتو كانت، باعتراف الجميع، قادرة بمساعدة سخيةمن دول الغرب، على احتواء القوات الألمانية التي تفوقها كثيراً بعديدها الذي لا يتناسب مع عديد قوات الأنصار التي كانت بدورها تهدف إلى هزيمة القوات الألمانية.

منذ ما ينوف على مئتي عام كان في الواقع ثمة اسم لهذا النوع من الحرب، اختُرع أثناء نضال إسبانيا ضد قوات نابليون في حرب شبه جزيرة أيبريا في مطلع القرن التاسع عشر أطلق الإسبان اسم حرب الأنصار «Guerrilas» على الحرب التي يخوضها مقاتلو مقاومتهم، وإذا ما راقب أحدنا ما يجري في العراق وفي أفغانستان، لما وجد، كما أرى، أي اختلاف حقيقي، بين إسبانيا النابوليونية، ويوغوسلافيا الحرب العالمية الثانية، وأفغانستان القرن الحادي والعشرين. إذا ما كنت محقاً، فإن هذا النوع من الحرب غير المتكافئة، مسمى جديد لظاهرة قديمة.

إلا أن ثمة شعور بأن النقاد على حق، وبأننا نشهد الآن شيئاً جديداً تماماً، يشكّل خطراً كبيراً على الغرب الذي تعلّم تقليدياً، أن يخوض أنواعاً مختلفة جداً من الحروب.



لم تكن الحروب، طوال قرون، حروباً أهلية، بل كانت تجري بين دول تقود شعوباً وهذا ما سُمي «نظام وستفاليا» بعد المعاهدة التي وُقّعت في وستفاليا في العام ١٦٤٨، وهي، كما رأينا في فصل سابق، أنهت آخر حرب أوروبية دينية إن جيوشنا دُربت وجُهزت كي تقاتل في حروب تقوم بين دولة وأخرى فلو حدثت الحرب العالمية الثالثة، وأصبحت الحرب الباردة حرباً نووية ساخنة، لكان من شأن ذلك أن يُبقي الوضع على حاله: حرب بين دول حلف الناتو ودول حلف وارسو. ولمثل هذه الحرب، في الواقع، وبالتحديد، تخطط جيوشنا.

من حروبنا الأخيرة تلك؛ حرب كوسوفو، وحرب الخليج الأولى. كلاهما حربان من حروب النمط التقليدي، فدول الناتو هاجمت صربيا من أجل تحرير كوسوفو، وتحالف دول أممي هاجم في عام ١٩٩١ العراق من أجل تحرير الكويت.

إلا أن ما كان يجري في أفغانستان في ذلك الحين وفي السنوات التالية، من شأنه أن ينبّهنا إلى نوع جديد من الحروب، وهي حروب لا تقوم بين دول، وإنما بين خصوم لديهم وجهات نظر مختلفة عن العالم. نحن ساعدنا في أفغانستان قوات الميليشيات الإسلامية، «قوات المجاهدين» للتخلص من السوفييت. ولكننا بعد ذلك نسينا تلك المنطقة، ما ألحقَ بنا ضرراً بالغاً. لأن عدونا في الحرب الباردة - الاتحاد السوفيتي- كان مهزوماً، بفضل المعدات العسكرية الغربية وشجاعة المقاتلين الأفغان، وبعدئذ لم نعد نولي اهتماماً يذكر لما كان يجري. وكان ذلك خطأ فادح، أدى مباشرة إلى أحداث ٩/١١، كما أظهرت ذلك بوضوح، كتب كثيرة، ولاسيما مؤلفات «تشالمرز جونسون - Chalmers Johnson»، من مثل كتابه «الردة - Blowback».



لأن القتال لم يتوقف عندما غادرت آخر القوات السوفيتية أفغانستان ولكن بدأت حينذاك، على نحو ما، الحرب الحقيقية حفنة من القتلة أمراء الحرب تشتبك مع أخرى من أجل السيطرة على البلاد، وبالتالي يهزم الجميع عدواً أشد سوءاً من أيٍّ منهم، «طالبان» وحلفاءه من العرب، ومن بينهم أسامة بن لادن.

هنا أقول، إن هذا كان شيئاً جديداً.

كان نظام «وستفاليا القديم»، الذي يعود تاريخياً إلى معاهدة «وستفاليا» التي أنهت حرب الثلاثين عاماً في عام ١٦٤٨، يشير إلى إمكانية التحكم في دولة معينة ما، لأسباب تتطلبها المصالح العليا للدولة، أو لتصبح الأمة أكبر أو أقوى، أو لإبعاد خطر احتمال تعرضها لهجوم، أو لأسباب كثيرة أخرى تتعلق دائماًبمصالح الأمة. وحتى النازية، على الرغم من أنها عقيدة عنصرية، تندرج في هذا النمط، لأن هدف النازيين كان جعل ألمانيا أقوى دول العالم قاطبة.

صحيح أن هدف طالبان المبدئي كان الاستيلاء على الدولة، أعني أفغانستان لكن على الرغم من أنهم ينتمون إلى مجموعة قبلية خاصة هي «البشتون»، ويقطن عدد كبير منهم في باكستان، إلا أن هدفهم الأقصى لم يكن السيطرة القبلية أو القومية الهدف الأساس لطالبان، الذين استولوا بسرعة، وفي غضون فترة وجيزة على معظم أجزاء البلاد، لم يكن سيطرة عرقية أو عنصرية، بل سيطرة دينية.

إلا أننا، إذا نظرنا إلى أفغانستان في ظلّ حكم «طالبان»، لرأينا بوضوح أن حركتهم ليست حركة قومية «بشتونية». فتحالف الشمال مثلاً، يعتمد إلى حدّ كبير في الصراع على أقلية «الطاجيك» العرقية في الشمال. كما أن العدد الكبير من المحاربين، والكم الهائل من تمويلهم، لم يكن يأتي من «البشتون»



بل ممن يُدعون العرب الأفغان، الذين كان أشهرهم «ابن لادن» وشبكة «القاعدة» التي يقودها.

باختصار، انتقلنا من نزاع في إطار نظام «وتسفاليا» التقليدي، الذي يقوم على أساس الدولة الأمة، إلى نزاع آخر تكون فيه الحدود الوطنية عَرَضِيّة، والحرب لا تقوم على أساس البلد الذي يعيش المرء فيه، بل على أساس العقيدة الدينية التي ينتمي إليها. نعم، كانت «القاعدة» تقوم على أساس الدولة القومية - أي أفغانستان- التي كانت مكاناً ملائماً قبل أي شيء آخر. لم يكن هدف الـ«طالبانيين» وحليفتهم «القاعدة» إقامة أفغانستان أكبر، بل كان هدفهم بعث الخلافة الإسلامية، وإقامة إمبراطورية لا تقوم على أساس الجنسية، وإنما على مفهوم ديني.

كتب عدد من الأكاديميين حول ما إذا كانت القاعدة تنتمي وعقيدتها، إلى الحداثة فعلاً، في الوقت الذي تستخدم فيه مفاهيم قديمة تعود إلى ما قبل الحداثة، كالخلافة مثلاً؛ أو ما إذا كانت تعود حقاً إلى نظام مختلف تماماً، وأقدم، إلى نظام فكري بدائي يقوم بكامله على قيم ما قبل عصر الأنوار، وعلى تأويل ديني وحيد للعالم الذي نعيش فيه، ومع ذلك فإن «القاعدة»لا تتردد في استخدام وسائط التقنية الحديثة كالطائرات وأشرطة الفيديو، لتنفيذ دعوتها ونشر رسالتها.

إنني أميل أكثر إلى الرأي الأخير، بينما أشعر في الوقت نفسه أنه ليس هناك ما يتوافق مع النظرة الدينية للحياة، وقبول الأشياء الجيدة كلها التي جلبتها لنا التقنية الحديثة. لكن، ليس هنا مكان مناقشة ذلك.

إن النقطة الأساس، كما أعتقد، هي أن لدينا الآن مفهوماً غير «وستفالياني» للحرب لم يكن هجوم ٩/١١ بالمعنى التقليدي، هجوم دولة أفغانستان على دولة الولايات المتحدة الأمريكية كانت الهجمات مخططاً لها في أفغانستان،



واتخذت مكاناً لها في نيويورك وواشنطن العاصمة ولكن الأمر لم يكن نزاع بلد مع بلد آخر، على الرغم من أنه انتهى إلى شيء من هذا القبيل عندما حلت قوات الغرب فيأفغانستان وأطاحت بحكومة طالبان. بدلاً من ذلك، وبقدر ما كان الأمر يتعلق بالجناة ومعظمهم من مواطني المملكة العربية السعودية، فإن ذلك كان جزءاً من الصراع المستمر بين الإسلام وأعدائه، بين إيماندار الإسلام وأرض جسدت دار الحرب. والهجمات اللاحقة التي شُنت في إسبانيا وفي بريطانيا أكدت ذلك، أي أن الغرب هو عدو الإرهابيين، وليس أي بلد بعينه من بلدانه.

لاحظ عدد كبير من المعلقين آنذاك أنه فيما يتعلق بتكلفة الهجمات، لا مجال إطلاقاً للمقارنة بين الأعباء التي ترتبت على المهاجمين جراء الهجمات، وبين الضرر الذي ألحقوه بمستهدفيهم. إذ ترتب على المهاجمين تكلفة بعض فواتير الفنادق، وقليل من تذاكر السفر بالطائرات، وبعض السكاكين، كل ذلك لا يقارن أبداً بالدمار الكبير والتكاليف الباهظة التي تقع على عاتق دول الغرب منذ العام ٢٠٠١ جراء الحرب على الإرهاب.

في ظلّ النظام القديم، عندما يقوم بلد بغزو بلد عدو، فإن الأمر ينتهي هنا! يكون قد كسب الحرب وانتهى كل شيء. فمثلاً عندما هَزَمَ الحلفاءُ النازيين في عام ١٩٤٨، كانت الحرب العالمية الثانية في أوروبا قد انتهت.

ولكن كيف يمكن إعلان النصر في ظل الحرب غير المتكافئة؟ احتُلت أفغانستان، وهُزمت طالبان، وأجبرت «القاعدة» على التواري عن الأنظار، وأُلقي القبض على بعض قادتها، ومع ذلك استمرت الحرب على الإرهاب الآن في أماكن لم يكن له وجود فيها من قبل، مثل إندونيسيا، بكل الفظائع التي ارتكبت فيها ضد سائحين من بلدان الغرب، وفي لندن في ٧/٧، وقبل ذلك كله في العراق، الذي استُبدلت به، من أجل سائر المقاصد والأغراض، أفغانستان،



كمكان لتدريب المقاتلين الجهاديين على قتال الغرب أتاح هجوم الولايات المتحدة الواسع على العراق في عام ٢٠٠٣، أن تحتله بسرعة فائقة، وبعدد قليل، يكاد لا يذكر، من الضحايا الغربيين لكن الآن، وبينما أكتب هذه الأسطر، يبدو أن الإستراتيجية كلها آيلة إلى الفشل بسرعة، لا بسبب معركة الدبابات الضارية بين القوات الأمريكية والعراقية - الطريقة القديمة- وإنما بسبب الحرب غير المتكافئة، بمشاركة كثير من الأعداء الذين ليسوا من العراقيين، ولكنهم مسلمون محاربون من كل الأنواع، من الدول العربية كافة، يحاربون ما يؤمنون أنه جهاد، أي حرب مقدسة ليس هذا وحسب، بل من الواضح أيضاً أن مقاتلي طالبان يعودون بقوة إلى أفغانستان، والقوات الغربية هناك تعاني من أوضاع مريعة، وتحاول أن تحافظ على ذلك البلد من أن ينهار كل شيء فيه ثانية.

هذا يأخذنا بدقة، إلى نوع جديد أيضاً من الحرب غير المتكافئة، حرب لا حدود وطنية لها، ولكنها موجودة في عقول الناس. وهنا لا فائدة تُرجى من الأسلحة التقليدية، وما كان يجب أن يكون واضحاً للغرب منذ أن ربح بشكل أساسي الحرب الباردة، لا أقصد الربح بقوات الناتو وإنما حين ربحنا جميعاً المعركة اللاعسكرية، معركة الأفكار. لقد كان مفهوم الحرية، والديموقراطية، وحقوق الإنسان، هو الذي انتصر في سنة ١٩٨٩، ومن دون أن يطلق الغرب طلقة واحدة.

وبينما أنا منكب على كتابة هذه السطور، يحتدم نقاش غاضب في بريطانيا، بين المجتمع الإنكليزي العريض والأقلية الإسلامية المتنامية، وبالتوازي معه أيضاً، هناك نقاش بين السكان المسلمين أنفسهم. والقضية المطروحة: هل يجب على المرأة المسلمة أن ترتدي النقاب الذي يغطي الوجه ويجعله غير مرئي، أو ترتدي الحجاب الذي لا يختلف كثيراً عن الوشاح الغربي، ويُترك الوجه كله مرئياً ووراء هذا كله، فإن ما يعني المجتمع المسلم حقاً، هو: ما



اللباس الشرعي الذي يجب أن نرتديه ليُمَكِّننا من أن نكون مسلمين أتقياء، ويأخذ بعين الاعتبار أيضاً أننا نعيش في مجتمع ثقافته السائدة مختلفة عن الثقافة الإسلامية إذن يتعين علينا أن نبادر إلى القيام ببعض أشكال التكيف مع الأكثرية التي نعيش بينها فكيف يمكن أن أكون مسلماً مؤمناً ومواطناً بريطانياً في الوقت ذاته؟

تحرص بريطانيا- وأشك أن تكون الولايات المتحدة كذلك- على ألا يشعر مواطنوها المسلمون أنهم مجبرون على الاختيار بين دينهم أو مواطنيتهم، بل يجب أن يشعروا فعلاً أنه يمكن للمرء أن يكون مواطناً بريطانياً مخلصاً، ومسلماً ممارساً واجباته الدينية بنشاط أيضاً هذا الأمر أصبح، في فرنسا مثلاً، صعباً، طالما أن الفتاة المسلمة ليس بوسعها، ارتداء الحجاب في مدرستها، لأن ارتداءه لا يتوافق والمفهوم الفرنسي لعلمانية الدولة يمكن أن يبدو ذلك كله، مجرد حروب ثقافية بمظهر آخر ولكنني أشعر أن رؤية الأمور على هذا النحو ستكون، تزييفاً صارخاً وخطيراً كذلك نحن لا نتحدث هنا عما هو سديد سياسياً، أو عن أمور أخرى تقلق الناس على ضفتي الأطلسي. إن ما نتطلع إليه هنا حقاً هو، إيجاد أفضل السبل بالنسبة إلى الغربيين، أمثال معظمنا، لمساعدة الجانب الصحيح على الفوز في المعركة الأيديولوجية التي يخوضها الآن، الصراع الداخلي الذي سيحدد روح ومستقبل الإسلام نفسه.

بذل بعضنا، أثناء الحرب الباردة كل ما في وسعه لمساعدة منشقين خلف الستار الحديدي، بطريقة ربما اتسمت بالتهور أتذكر أنني قمت برحلات مخيفة لرؤية أصدقاء في أماكن مثل براغ أو بودابست، لمساعدة أولئك الذين أرادوا بملء حريتهم ممارسة حقوقهم وواجباتهم الدينية كمؤمنين متدينين.

فكر بعض أصدقائي أن أفضل طريقة للمساعدة كانت تهريب كتب أدبية لهم من الغرب. ولكنني فكرت أن ذلك كان خطأ، وشاطرني الرأي أصدقائي



التشيكيين والمجريين. وكانت أسبابهم مثيرة للاهتمام: لأن تهريب كتب الأدب من الغرب سيؤدي إلى اتهام المنشقين بالارتباط بسياسة أعداء البلاد التي كانوا يعيشون فيها- أعني أن يتهم أصدقائي تحديداً بارتباطهم بحلف الناتو والغرب هم فضلوا حينذاك طباعة أدبهم السري لم تكن الحرية مفهوماً غربياً، وإنما هي حق إنساني عالمي، من حقهم أن يتمتعوا به لأنهم بشر، بغض النظر عما إذا كان أحد منا في الغرب يؤيد هذا الحق - وهو ما فعلناه - أو لا يؤيده.

أشعر أن مثل هذا الصراع يحدث ضمن الإسلام اليوم: فأيُّ اتجاه يجب أن يتبعه أولئك الذين يجدون أنفسهم في وضع جديد كلياً كمسلمين، أعني أنهم أقلية من المؤمنين في بلاد الكفار، الغرب فهل هم أعضاء شجعان في أمة الإسلام، يعيشون بين الكفار، أم أنهم، كما يأمل المسلمون المعتدلون، يسكنون مع بشر مثلهم في دار السلام إن بعض المسلمين لديهم خيار آخر هو دار الصلح، أو بلاد الهدنة، لكن يرى مسلمون آخرون أن ذلك لم يعد خياراً بعد أن انضمت دول غربية كثيرة إلى الولايات المتحدة في غزو العراق في العام ٢٠٠٣.

يعتقد بعض المتشائمين مثل الكاتبة المصرية «بات يعور- Yeor Ba’t» أن أوروبا في سبيلها إلى أن تصبح بسرعة «أورابيا - Eurabia»، وهذا رأي يتبناه بعض المتشددين من المحافظين الجدد في الولايات المتحدة إذ إنهم يعتقدون أن طريقة تنازل حكومات الغرب الليبرالية للإسلام في مجالات «التصحيح السياسي-Political correctness» دليل على الاستسلام، وهم يقدمون أرقاماً مخيفة عن معدل ولادات النساء المسلمات، تؤكد أن أكثرية سكان أوروبا في غضون سنوات قليلة ستصبح من المسلمين.

أرى أن ذلك كله مجرد إثارة للمخاوف لا معنى له والأمر المهم، كما كتب «فيليب جنكينز -Philip Jenkins»، أستاذ «جامعة - Penn State



Univercity» المتخصص في الشؤؤن الدينية في كتابه «المسيحية القادمة-The Next Christendom» إن أعداد المسيحيين في الواقع، تتزايد المسلمين. يُعدّ «جنكينز» مثيراً للاهتمام، ولأنه بريطاني، وأستاذ جامعة علمانية تابعة للدولة، فإنه لا يُعدّ طرفاً في الحروب الثقافية داخل الولايات المتحدة، كخبراء آخرين في بوسطن، أمثال «بيتر بيرج -Peter Berger»، الذين يُعدون متعصبين سياسياً وثقافياً برأي كثيرين من العاملين في الأوساط الإعلامية والأكاديمية. إذ إن أي شخص يؤلف كتاباً لقسم الصحافة في جامعة أكسفورد، ثم يظهر على محطة تلفزيون «بات روبرتسون - Pat Robertson» ليعلق على الموضوع نفسه، يكون قد خطا خطوة نادرة!

ولكنني أعتقد أيضاً أن «جنكينز» مصيب. فإذا اتخذنا لندن مثلاً، بصفتها مدينة أوروبية عانت من الإرهاب، تضم بين سكانها عدداً كبيراً جداً من المسلمين، فمن المؤكد أن تكون نواة صالحة للإرهاب الإسلامي، وبالتالي قد يظن المرء أن تنبؤات الشؤم على حق ومع ذلك فإن لندن، أحد أجزاء بريطانيا التي تشهد نمو المسيحية التقليدية كذلك، خلافاً لمعظم التوجهات في بقية الدول الأوروبية ولكن كما أظهر «جنكينز»، وأظهرت إحصاءات بريطانية موثوقة، إن أكثر من نصف المسيحيين المتدينين الذين يرتادون الكنائس في لندن هم من السود، ومن أصول إفريقية. كما أن راعي إحدى أكبر كنائس لندن «Kingsway Intenational» نيجيري. ويوجد الآن في العاصمة، وبعض أنحاء أخرى منبريطانيا، مبشرون من نيجيريا والبيرو وكوريا ومن أنحاء أخرى تُقدّر بثلثي العالم، يأتون للتبشير بالإنجيل بين العلمانيين البريطانيين لعصر ما بعد المسيحية. ومقابل كل بريطاني أبيض يعتنق الإسلام، يحتمل أن ثمةإنكليزي آخر أبيض يعتنق المسيحية على يد مبشر إفريقي أو آسيوي.

ويُذكر أن «جنكينز» وأكاديميين آخرين، أدركوا أن المسيحية الآن، بأكثريتها الساحقة، ديانة ليست بيضاء، وهذا أمر يعرفه كثير منا منذ أن عقد مؤتمر



دولي كبير في لوزان في عام ١٩٦٤ حقيقة شائعة تقول إن كثيرين من قادة العالم الثالث رددوا على مسامعنا منذ أكثر من ثلاثين عاماً أن: سيكون هناك نسبة عشرين بالمئة فقط من المسيحيين من العرق الأبيض، ومن أصولأوروبية، في غضون عقود قليلة.

واحدة من الأساطير الكثيرة التي روجت لها القاعدة وفئات مختلفة من المتطرفين المسلمين - وللإنصاف نقول إنهم يؤمنون بها - هي أن المسيحية عدو للإسلام، كما أنها ديانة الغرب. وقد رأينا هذا المفهوم يتردد في بيانات ابن لادن بعد ٩/١١، لكن سرعان ما بينت الإحصاءات زيفه كلياً، إضافة إلى أن الأمر لم يكن كذلك منذ سنوات عديدة، كما أنه لم يكن كذلك منذ عقود أيضاً إن معظم المسيحيين المتدينين في العالم اليوم لايعيشون في الغرب، بل يعيشون خارجه، وخارج الولايات المتحدة بالتأكيد.

وفق إحصاءات وكالة المخابرات المركزية «CIA» الأمريكية، يوجد في جمهورية الصين الشعبية وحدها اليوم ١٠٠ مليون متدين مسيحي.

(يقدّر جنكينز العدد ما بين ٥٠ و٨٠ مليون، ومعظم الخبراء الذين أعرفهم يقدرونه بـ ٨٠ مليون، وبما أن أغلبية المسيحيين الصينيين ترتاد كنائس سرية «تحت الأرض»، وهي كنائس غير رسمية وغير قانونية، ومحظورة من قبل الحكومة، وهي كذلك خارج الكنائس الوطنية الثلاثة، لذلك يمكن أن يكون الرقم الذي قدرته وكالة المخابرات المركزية صحيحاً). ومع ذلك، يوجد في الواقع، عدد كبير، وحتى الرقم الأدنى المقدر بـ ٨٠ مليوناً يبدو أنه كبير إلى حدّ لا يصدق، حين يفكر المرء أنه كان ثمة ٢ مليون صيني مسيحي عندما طُرد المبشرون الغربيون من الصين في عام ١٩٥١ ومن الواضح أنه يوجد اليوم مسيحيون في الصين أكثر مما يوجد في كثير من بلدان العالم الأخرى.



على الرغم من وجود ٢٥ مليون مسيحي مُعَمَّد من أعضاء كنيسة إنكلترا في بريطانيا، فإنه لا يوجد أكثر من مليون من هؤلاء، أي ٤٪، يرتادون الكنيسة أيام الآحاد. ولكن يوجد في نيجيريا الآن ٢٠ مليون إنجيلي متدين (مسيحي أنجليكاني)، ممن يرتادون الكنيسة بانتظام أيام الآحاد، ما يعني أن لدى كنيسة إنكلترا في نيجيريا الآن، بعد أكثر منأربعين عاماً من استقلال نيجيريا، ٢٠ ضعف ما لدى الكنيسة الأنجليكانية الأم في بريطانيا، من الأعضاء المتدينين وبعبارة أخرى، إن المسيحية، تعود إلى جذورها في العالم الثالث، فهي في البدء لم تكن ديانة الغربيين الإسلام لم يكن قطّ، بأي حال من الأحول، ديانة غربية. وهكذا فإن الديانتين الكبيرتين العالميتين تلتقيان الآن وجهاً لوجه في منافسة على معتنقين جدد في كثير من أنحاء العالم، ودون أن يكون الغرب مكاناً لهذه المنافسة في القرن الحادي والعشرين. إذ ينافس المسيحيون النيجيريون المسلمين النيجيريين، وينافس المسلمون الإندونيسيون المسيحيين الإندونيسيين أيضاً، وتتكرر الحكاية نفسها في العالم النامي وفي كثير من أنحاء العالم الأخرى.

هنا، كما أعتقد، ستكون المنافسة الحقيقية، وهي قائمة فعلاً في خضم حمام من الدم يراق الآن، عندما تشتبك الديانتان التبشيريتان وجهاً لوجه في مناطق تكون- إذا صح القول- لقمة سائغة روحياً وكما قال لي مرة «بول مارشال-Paol Marshall» الخبير البريطاني - الأمريكي المرموق، ذو العلاقة الوثيقة مع مؤسسة «بيت الحرية -Freedom House»، إننا يمكن ألا نقرأ غالباً عن مثل تلك الاشتباكات في صحفنا، أو نراها على شاشات تلفزيوننا، ولكن آلاف الناس قُتلوا في السنوات الأخيرة، نتيجة أعمال العنف بين المسلمين والمسيحيين، ولاسيما في نيجيريا وإندونيسيا، وفي اشتباكات أقل عنفاً في مناطق أخرى أيضاً.



هنا ينبغي أن يكون المرء منصفاً، ففي بلد كالهند، فالمسيحيون والمسلمون هم الضحايا وليسوا الجناة، وحشود الغوغاء من المتطرفين الهندوس هم الذين نفذوا بكلا الطرفين حكم الموت، أحرقوا الكنائس، كما أحرقوا المساجد أيضاً، بالتواطؤ غالباً مع سياسيين وشرطة مرتبطين بأحزاب الهندوس القوميين ولكن غوغاء الهندوس لا يقتلون الناس في بريطانيا، حيث يوجد عدد كبير من السكان الهندوس والمسلمين، كما لا يأخذ الهندوس عنفهم إلى خارج الهند نفسها، ولم يكن ثمة هندوس شاركوا في ٩/١١ يمكن أن يكون النزاع بالغ الخطورة إذا نشب بين الهند وباكستان، حيث لدى كل منهما ترسانة كبيرة من الأسلحة النووية، قد تؤدي بالتالي إلى حرب نووية يُستدلّ من بحث أجري في عام ٢٠٠٢، أن أكثر من ٥٨ مليون إنسان سيقتلون إذا ما نشبت حرب نووية بين الهند وباكستان، هذا إذا استثنينا أولئك الذين يمكن أن يموتوا في بلدان أخرى إذا هبت رياح قوية باتجاه إيران، أو باتجاه الصين وتايلاند.

لأن باكستان وُجِدت نتيجة خلافات دينية فحسب - ولد كثير من الباكستانيين، بمن فيهم الرئيس مشرف، في الهند وهاجروا إلى باكستان بعد عام ١٩٤٧- فتلك لن تكون مجرد الحرب النووية الأولى بين دولتين، ولكنها ستكون حرباً دينية كذلك، لأن كثيراً من مجموعات المقاتلين تقوم بعمليات في كشمير، المحافظة التي يتنازع عليها البلدان. وهؤلاء المقاتلون مجموعات مسلمة بطبيعتها وتكوينها، ولها علاقات وثيقة بالقاعدة أيضاً، ويؤكد كثيرون أن لها علاقات كذلك بالعسكريين وبأجهزة المخابرات الباكستانية.

ولكنني أعتقد أن نزاعاً هندياً باكستانياً، قد يكون الوحيد الذي ينطبق عليه نظام «وستفاليا» القديم، أي الحرب بين أمتين - دولتين، وهي حرب ستكون في حال نشوبها بين الهند وباكستان، حرباً دينية، بين بلد مسلم، وآخر تزداد هويته الهندوسية بالتدريج بُعداً عن العلمانية.



كما أعتقد أن نزاعات أخرى ستكون أكثر قابلية للتأطير ضمن قالب ما بعد «وستفالي»، سواء أكانت من نوع الحرب «غير المتكافئة- Asymmetric» الموجودة الآن في العراق، أم كانت حرب أمة - دولة، فيها فصائل مختلفة، يحارب كل منها الآخر.

أقول إننا نرى ذلك في العراق الآن وأنا أكتب هذه الأسطر، حيث معظم الإصابات ليست في صفوف الجيوش الأمريكيية والبريطانية المحتلة، بل في صفوف فريق سنيين من العراقيين، يحارب فريقاً شيعيّاً آخر من العراقيين منذ معركة كربلاء الكبرى في سنة ٦٨٠ التي دارت رحاها فيما يسمى اليوم العراق، نحن نرى الآن مايمكن للمرء أن يسميه بحق المرحلة الثانية لحرب قديمة بين فرعي الإسلام. طوال ألف وخمسمئة عام من حكم الأمويين، ثم العباسيين، وبعد قرون من سيطرة العثمانيين، كان شيعة المنطقة خارج إيران، شعباً مضطهداً، ولكنهمالآن، بعد الإطاحة بالمجموعة التي التفَّت حول صدام حسين، في عام ٢٠٠٣، هم أكثرية على الأقل. ثمة أمر يجب أن نتذكره، وهو أننا نتكلم هنا عن عرب مقابل عرب، في حين أن الكرد يختلفون عرقياً ولكنهمسنيون أيضاً. لم يتمكن العرب الشيعة منذ القرن السابع، من حكم أنفسهم في بلادهم. والأسر الشيعية المختلفة التي أمسكت بالسلطة أثناء حكم آخر الخلفاء العباسيين العرب السنة الضعفاء، كانوا من أصولإيرانية، أو من العرق التركي. وما نراه الآن ليس سوى عملية انتقام تعود إلى أحداث جرت منذ ثلاثة عشر قرناً مضى.

النزاع بين المسيحيين والمسلمين في بلدان مثل نيجيريا وإندونيسيا، بالمقابل، يقع ضمن حدود أمة - دولة، ولا سيما في الحالة الأولى، حيث النزاع على منطقة وسيطة، لا يسود فيها المسيحيون ولا المسلمون، بل تتمكن كل من الديانتين من كسب أتباع لها بسرعة فيها.



وقد يكون النزاع في أوروبا مماثلاً أيضاً إذا ما اتخذ الاستيعاب منحى خاطئاً لأقلية إسلامية لا تعرف مدى استعدادها للاندماج في البلدان التي تعيش فيها. فالمسلمون الذين يودون أن يصبحوا مواطنين هولنديين يتعين عليهم أن يشاهدوا أفلاماً لأزواج مثليين، وأن يروا نساء شبه عاريات على الشواطئ، لكي يُنظر بعد ذلك ما إذا كانوا مؤهلين ثقافياً للحصول على جنسية مجتمع تعددي وعلماني على نحو متزايد أكثر فأكثر قد يبدو لنا ذلك أمراً غريباً، ولكن كان هناك أعمال عنف وقتل في هولندا، ولكن التسامح الهولندي الأسطوري - الذي غالباً ما يراه المرء جلياً في الأمور التي تتعلق بالعلاقات الجنسية، والمخدرات- أصبح الآن، إلى حد بعيد، من الماضي.

أما في أوروبا كلها، حتى لو اندمج معظم المسلمين على نحو أو آخر، بشكل إيجابي، أو بالتسامح على مضض مع محيطهم، فإن الأمر لا يتطلب سوى أقلية ضئيلة منهم تكون عنيفة، تتبنى الإرهاب، وبالتالي تخلق حالة من الفوضى والتنافر في المجتمع تصل إلى درجة لا تتناسب أبداً مع الأعداد الضئيلة لتلك الفئة الإرهابية. هذا الوضع يؤدي بالطبع إلى حلقة مفرغة، لأن سخط الأغلبية الغربية على الأقلية المسلمة بعد كل اعتداء إرهابي، يؤدي إلى اعتبار المسلمين الأبرياء مذبين جنباً إلى جنب مع الإرهابيين، وتغذي ردة الفعل هذه شعوراً بالاضطهاد لدى المجتمعات الإسلامية، كما تساعد المتطرفين كثيراً على كسب مزيد من الأنصار لقضيتهم.

وهذا ما يجعلني أميل إلى الشعور بأن النساء المسلمات، إذا كن يرغبن بصدق ارتداء الحجاب الكامل، أي النقاب، فيجب علينا أن نسمح لهن بذلك، لأنه لا يُلحق بأحد أي ضرر، من جهة، ولأنه من جهة أخرى، يجعل المجتمع الإسلامي يرى بأم عينه أنه يمكن للمسلمين أن يحافظوا على حقهم بممارسة شؤون دينهم، وأن يعيشوا بسلام كمواطنين على قدم المساواة، ضمن الأكثرية في المجتمع الغربي.



أقول «الغربي» عمداً، لأنه ليس ثمة بلد في أوروبا يقارب عدد المسيحيين المتدينين فيه، عدد المسيحيين المتدينين في الولايات المتحدة اليوم.

هنا أتفق تماماً ورأي «بيتر بيرجر- Peter Berger» أستاذ علم الاجتماع الديني في جامعة بوسطن، الذي يؤكد، أن الولايات المتحدة رفضت نظرية العلمانية، لأنها ظلت شديدة التدين، وأن أوروبا علمانية متشددة على الرغم من أن المواطنين البريطانيين مازالوا يقولون إن بريطانيا العظمى بلد مسيحي بموجب القانون. قد يكون ذلك صحيحاً من الناحية النظرية، لكننا نحن الذين نرتاد الكنيسة قلة ضئيلة بالفعل، وقد يصبح قريباً عدد الذين يرتادون المسجد أيام الجمعة أكثر من الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد.

ولكن هذا يختلف كثيراً عن سياسة الترضية التي لم تنجح في التاريخ قط، لا في الماضي، ولا في الحاضر، سواء اليوم أو في أي سياق آخر ما يطبّق على دين يجب أن يطبّق على دين آخر بينما أكتب هذه الأسطر، عوقبت مستخدمتان عامتان لأنهما تزينتا بصليب مسيحي في مكان عملهما في الحالة الأولى، تمكنت المرأة من أن تواصل استخدام صليبها، طالما كان أصغر من الصليب الذي كانت تتزين به من قبل، وفي الحالة الثانية، ما زالت تنتظر صدور الحكم يبدو أن فكرة التبشير تُطبق على مختلف الديانات، حتى إذا كان في ذلك ما يثير استياء ديانة أخرى ذهبت بعيداً جداً بفكرة «الكياسة السياسية - Political correctness».

إذ لا يجب أن تُخول الديانات المختلفة بعد الآن القيام بأنشطة تبشيرية. يجب علينا في الغرب أن نؤكد أن لجميع الديانات الحق في التبشير سواء كانت مسيحية أو إسلامية أو هندوسية. وأن البلدان الإسلامية يجب أن تسمح بحرية مماثلة في بلادها بدلاً من موقفها الحالي، الذي يصل أحياناً إلى حدِّ إعدام أي مواطن من مواطنيها يعتنق ديناً آخر.



كما ذكرت سابقاً، لم يكن يتوقع سوى عدد قليل جداً، حتى وقت مبكر من عام ١٩٨٩، سقوط الكتلة السوفيتية، في ذلك العام نفسه، ومن ثم تفكك اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في عام ١٩٩١ وكذلك ما يمكن أن يحدث للنزاعات الدينية في المستقبل أمر يصعب التنبؤ به أيضاً ولكن أعتقد، أن مثل تلك الاشتباكات،من المحتمل أن تستمر، وأن ذلك ستكون بشكل أساسي في إطار مفهوم ما بعد «وستفاليا»، أي الحروب «غير المتكافئة» التي أتينا على ذكرها قبل قليل.

يمكن أن تكون إيران مسلحة نووياً، وراغبة في شنّ حرب، ولكن بما أن نزاعاً إيرانياً - إسرائيلياً يمكن أن يتصاعد بسرعة ليتحول إلى حرب نووية، وعندها يمكن أن تتدخل قوى أخرى اعتادت أن تلتزم الوقوف على الهامش، كروسيا والصين، لأن الإشعاعات الذرية يمكن أن تصل إلى أراضيهما. وعلى النحو ذاته، سيحتاج الأمر حكومة قومية هندوسية متعصبة جداً، على رأسها حزب بهاراتا جاناتا مثلاً، أو أن تقع باكستان بأيدي متطرفين إسلاميين، فتنشب حرب نووية على نطاق واسع بين البلدين، بإمكانها أن تخلف عشرات الملايين من الضحايا.

ولكن، نظراً لأن نتائج فظيعة كهذه ستسفر عنها، بالتحديد، مجزرة نووية من هذا القبيل، فإنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذا هو السبب في أن مثل هذه النزاعات المشؤومة لن يحدث، على الرغم من أنه يمكن أيضاً أن يثبت أنني وقعت في خطأ مريع.

وفي جميع الأحوال، وعلى الرغم من أن حرب إبادة نووية يمكن ألا تنشب، إلا أن ذلك لا يعني، ألا يموت نتيجة صراعات دينية، الآلاف في أنحاء العالم.

نحن بحاجة الآن إلى تحليل أطروحة «سير هاري هينسلي - Harry Hinsly Sir» محلل برمجيات الشيفرة أثناء الحرب العالمية الثانية، ومؤرخ،



وكذلكمعلم العلاقات الدولية البريطاني، الذي كان له أثناء الحرب الباردة نظرية هلّل لها كثير منا فعلاً كانت فكرة «هينسلي» تتلخص في أن نتائج الحرب النووية ستكون مروعة، إلى درجة يعرف كلا الطرفين فيها، أن أياً منهما لن ينتصر- ولاسيما إذاأدت إلى ما يسمى «بالشتاء النووي» الذي سيلوث غباره طبقة الأوزون على نحو يجعل الحياة على الأرض أمراً مستحيلاً، لأن أشعة الشمس لن تستطيع عندئذٍ اجتيازالغلاف الجوي، ولأن كلا الطرفي يعرفان أن حرباً كهذه لا يمكن كسبها أبداً والمفارقة الغريبة هي أن الأسلحة النووية تضمن أيضاً ألا تنشب الحرب النووية أبداً، وفي الواقع، فإن أي نوع من الحروب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وحلفائهما، لنتحدث أبداً أثناء الحرب الباردة. لقد نجح الردع.

ولكن، إذا كانت الأسلحة النووية كفيلة بأن تُحدث إبادة كاملة، أو دماراً متبادلاً مؤكدا، يجب ألا يحدث، فمن المرجح ألا تحدث الحرب أيضاً.

ولكن ما رأيناه يحدث فعلاً منذ انتهاء الحرب الباردة في عام ١٩٩١: هو مزيد من الحروب، ومزيد من مئات الألوف إن لم يكن الملايين من الناس، معظمهم من المدنيين، قتلوا جميعاً، وكما هو الحال عادة، في أماكن بعيدة مثل روندا والبوسنة، في ظروف بشعة وغريبة.

ليس هذا وحسب، ولكن إذا ما فكر المرء في هذين النزاعين الأخيرين، في إفريقيا وفي البلقان، لوجد أن ما حدث في المقام الأول كان حروباً أهلية، ومجموعة من المجازر الداخلية، ارتكبت بأسلحة بسيطة كالمناجل، التي استُخدمت، كما في روندا، لذبح عشرات ألوف المدنيين الأبرياء، وغالباً ما كان القتلة يعرفون ضحاياهم تمام المعرفة ولأن العالم، بالتحديد، لا يسير نحو فنائه- مثلما يمكن أن يحدث إذا ما نشبت حرب نووية عالمية ثالثة - فمن المرجح أن تنشب حروب كثيرة تؤدي إلى موت آلاف الضحايا. إن غياب «الكارثة



الشاملة -Armageddon» جلب إلينا حرباً تلو الأخرى، وبالتالي شكّل تهديداً على نطاق واسع للناس العاديين، أكبر من التهديد الذي شهدناه أثناء الحرب الباردة، كما رأينا في ٩/١١ وفي ٧/٧.

أودّ أن أقول، إن هذا أكثر من مجرد «حرب على الإرهاب» وهم ليسوا إرهابيين بمعنى إرهاب القاعدة، أولئك الذين يقتلون جيرانهم في مناطق وسط نيجيريا أو في عدة جزر إندونيسية، حيث تنشب نزاعات دينية. الإرهاب بالطبع جزء من مواجهةٍ ذات أبعاد واسعة جداً، و«شاملة-Universalism»، بين إسلام نشيط توسعي/ تبشيري، على قدم المساواة مع مسيحية أممية نشيطة ومتعددة الثقافات، كما رأينا آنفاً حين أشرنا إلى نظرية بسام الطيبي المُقنِعة ولكن هناك أيضاً النزاعات المحلية في بلدان العالم الثالث التي تجد بصعوبة طريقاً لها إلى الصحف في الغرب: وهي أيضاً نزاعات دينية، لا تنطوي على مشاعر معادية للغرب ولا للعولمة، كإرهاب ٩/١١ فالنيجيري الذي يُقتل في البنتاغون أو في البرجين التوأمين: يمكن أن يكون شكل الموت مختلفاً، ولكن السبب والعنف الديني واحد وعلى الرغم من أنه سيكون أمراً ممتعاً أن أنهي هذا الكتاب بملاحظة تتسم بالتفاؤل، إلا أن ذلك قد يصعب القيام به وبطبيعة الحال، سيكون رائعاً إثبات الخطأ، من خلال انتشار السلام الديني، والتسامح، والتفاهم الذي ينتصر على العنف الذي شهدناه، ليس في السنوات الأخيرة وحسب، بل أيضاً في الأربعة عشر قرناً التي تناولها هذا الكتاب. ولكن لا أرى أن الطبيعة البشرية يمكن أن تتغير فجأة! فالنزاع الديني، وتحوّل العقائد الدينية، التي يُفترض أنها تقوم على السلام، إلى عنف كوني متعمد، لن يزول أبداً، إذا كنا واقعيين. إنه كما قال ناشر كتبي، قلب البشرية المظلم، والرغبة في قتل مخلوقات تشبهنا، والقيام بذلك تنفيذاً لشريعة الله.







تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.





كريستوفر كاثِروود

حروب باسم الرب

مسيحيون ضد مسيحيين سنة ضد الشيعة كاتوليك هد بروتستانت الصلاة يشن البنشر الحروب باسم الرب؟ منذ حملات الجهاد الأولى في القرن السابع، والحملات الصابرية في القرون الوسطى، على دروب الاصلاح والإرهاب التي يشنها المتعصبون اليوم يستعرض الباحث كريستوفر كاترووي تاريخ الحروب المقدسة المثير، ويكشف الخفايا و التفاصيل التي تعد أمراً جوهرياً لفهم هذا الموضوع الذي لا يزال يقسم البشرية الحصيلة في كتاب صارم بدال الماضي الذي صاغ حاضرنا المتسم بالعنف، والعلاقة المشؤومة بين الحرب والدين.





